

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

معلوم أن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا
جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ،
فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ،
وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْدٌ ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى ، وإنما
بشيء مستقبل . و ﴿ أُولَاهُمَا ﴾ أى : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ۝ ﴾ [الإسراء]

وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن
الإسلام : لأن كلمة (عِبَادًا) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت
الذى قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدث العلماء في قوله تعالى : ﴿ عِبَادًا لَّنَا ۝ ﴾ [الإسراء]

فمنهم من رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَادًا) يُقَالُ
للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التى تؤيد رأيهم حسب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى في قصة عيسى عليه
السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَرَفَيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴿

[المائدة]

والشاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ .. ﴾ (١١٨) ﴿ [المائدة]

فاطلق كلمة « عبادي » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن
يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سلَّطا على بنى إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكى موقفاً من مواقف يوم القيامة ،
يقول تعالى للمشرِكاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ
عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ (١٢٢) ﴿ [الفرقان]

فاطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا .. ﴾ (٥) ﴿ [الإسراء]

ليس من الضروري أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ،
وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم
منهم ، ويُسلِّطَ عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه
أن ينتقم من الظالم سلَّطَ عليه مَنْ هو أكثر منه ظُلماً ، وأشدَّ منه
بطشاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُكَيِّمُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩) ﴿ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الرأي لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٣٥٥

عباد تُطْلَقُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى الْكَافِرِينَ ، فَسَوْفَ نَأْتِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى
أَنَّهُ لَا تُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ^(١) .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ وَالَّذِينَ يَسْتَحُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَامًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۖ﴾ [الفرقان]

إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَتْ الْآيَاتُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، فَاطْلُقْ
عَلَيْهِمْ « عِبَادُ الرَّحْمَنِ » .

دَلِيلٌ آخَرٌ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي نِقَاشِهِ لِإِبْلِيسَ : ﴿إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ۖ﴾ [الحجر]

وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُؤْمِنُونَ .. وَقَدْ قَالَ إِبْلِيسُ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [الأنعام] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ [ص]

إِذَنْ : هُنَا إِشْكَالٌ ، حَيْثُ أَتَى كُلُّ بَادِلَتِهِ وَمَا يُؤَيِّدُ قَوْلَهُ ، وَالْخُرُوجُ
مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ نَقُولُ : كَلِمَةُ « عِبَاد » ، وَ « عَبِيد » ، كِلَاهُمَا جَمْعٌ
وَمُفْرَدُهُمَا وَاحِدٌ (عَبْد) . فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

لَوْ نَظَرْتَ إِلَى الْكُونِ كُلِّهِ مُؤْمِنَةً وَكَافِرَةً لَوَجَدْتَهُمْ جَمِيعًا لَهُمْ
اخْتِيَارَاتٌ فِي أَشْيَاءَ ، وَمَقْهُورِينَ فِي أَشْيَاءَ أُخْرَى ، فَهُمْ جَمِيعًا عَبِيدٌ

(١) قَالَ الْأَزْمُرِيُّ : اجْتَمَعَ الْعَامَّةُ عَلَى تَفَرُّقِ مَا بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ وَالْعِبَادِيَّةِ . فَقَالُوا : هَذَا عِبْدُ مَنْ
عِبَادُ اللَّهِ ، وَمَوْلَا عَبِيدِ نَعَالِيكَ . وَقَالَ اللَّيْثُ : يَقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ هُمْ عِبِيدَةُ الطَّاغُوتِ . وَيَقَالُ
لِلْمُسْلِمِينَ : عِبَادُ اللَّهِ يَمْبُدُونَ اللَّهَ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مِلَّةٌ : عِبْد]

بهذا المعنى يستوى فى القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخلق عبيد فيما لا اختيار لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نقسمهم إلى قسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تعالى لك فى أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفعل ومقابلته ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاختيار هذه يتميز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مرادهم إلى مراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلَمُوا جميعاً أمرهم لله فى منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى فى المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مرادهم وتركوا مراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خيّرهم : تؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ، لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حلّ ما أشكل فى هذه المسألة لا بدّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُعيّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمردوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختيارات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محل للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجال فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فهم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿ إِنْ لَعَنَتْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. ﴾ (١١٨)

[المائدة]

وقوله : ﴿ أَنْتُمْ أَهْلَتْمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ (١٧)

[الفرقان]

فسمّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يعدّ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستنوّا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : نقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا .. ﴾ (٥)

[الأنعام]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جاسوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم من قتلوه ، وسبّوا من سبّوه .

[الإسراء]

وقوله : ﴿أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ ۖ﴾ (٥٠)

أى : قوة ومنعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

[الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۖ﴾ (٥١)

جاسُوا من جاس أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب من فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دقّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تَجَلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن أثر التعبير بقوله : ﴿بَعْثًا ۖ﴾ (٥٢) [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

[الإسراء]

أى : وَعَدَ صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كاذب وَعَدَ يمكن أن يقى به صاحبه أو لا يقى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعَدًا : سألَكَ غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج في تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد معنً يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مثل هذه العوارض ، فوعده مُتَحَقِّقُ النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا يقال إلا في الخير ، فكيف سعى القرآن
هذه الأحداث : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ۝٥٠ ﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلق على الشر ، والوعد يُطلق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً في ظاهره ، وهو خيبر في باطنه ، وفي هذا الموقف الذي نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أن يُؤدّب هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر في ظاهره ، لكنه في الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إن حاولوا هم الاستفادة منه .

وتضرب لذلك مثلاً بالولد الذي يعاقبه والده على إهماله
أو تقصيره ، فيقتسو عليه حرصاً على ما يصلحه ، وصدق الشاعر
حين قال :

فَقَسَا لِيَذْجَرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلَيْقَسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْجَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ﴾

الخطاب في هذه الآية مُوجَّه لبني إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحول وانقلاب للاوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلَّطهم لتأديب بني إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تَخَلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به ، وتَنَصَّلُوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسَلَّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أديبهم رسول الله والمسلمون في المدينة ، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدَّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فأنحَلَّتْ الأمور الإيمانية في نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فأنحَلَّتْ عنهم صِفة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استصفوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كفتهم وتَخَلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكَمُوا إلى قوانين وضعية ، فسَلَّط عليهم عدوهم ليؤدَّبهم ، فأصبحت الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ۖ﴾ (٦)

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّةٌ على المسلمين ، فهم في ذاتهم ضِعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قسائبة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴾ (٦) [الإسراء]

فالتفكير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أن نعود كما كنَّا . عباداً لله مُستقيمين على منهجه ، مُحْكَمِينَ لكتابه ، وهذا وَعْدٌ سيَتَحَقَّقُ إن شاء الله ، كما ذكرت الآية التالية :

﴿ إِنِ احْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ ۖ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۗ ﴾ (٧)

وما زال الخطاب مُتَوَجِّهاً إلى بني إسرائيل ، هاكم سُنَّةٌ من سنن الله الكونية التي يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهي أن مَنْ أَحْسَنَ فله إِحْسَانُهُ ، وَمَنْ أَسَاءَ فعليه إِسَاءَتُهُ .

فها هم اليهود لهم القلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

(٦) تَبَرُّه : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِتْنَةَ الْمُشْرِكِينَ لَمُتَّبِرَةٌ لَّهُمْ فِيهِمْ وَبِأَظْلَمَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٩)

[الأعراف] متَّبِرٌ : اسم مفعول أى مُدْمَرٌ مُهْلَكٌ . [القاموس اللزيم ٩٧/١] .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

فيه إشارة إلى أنهم في شك أن يُحسنوا ، وكان أحدهم يقول للآخر : دَعَكَ مِنْ قَضِيَةِ الْإِحْسَانِ هَذِهِ .

فإذا كانت الكرة الآن لليهود ، فهل ستنزل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تنزل لهم الغلبة ، ولن تدوم لهم الكرة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧) ﴿ [الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفساد الثانية لهم ، وقد سبق أن قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ تَفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ۖ ﴾ (١) [الإسراء]

وَبَيْنَا الْإِفْسَادَ الْأَوَّلَ حِينَئِذَا نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ .

وفى الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا
يقظة وصحوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها
ستكون لنا الغلبة والقوة ، وستعود لنا الكرامة على اليهود .

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْزُوا وَجُوهَكُمْ﴾ .. (٧) ﴿[الإسراء]

أَيُّ : تُلْقَى بِهِمْ مِنَ الْآذَى مَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى وُجُوهِهِمْ : لِأَنَّ

الوجه هو السُّمَّةُ المعبَّرة عن نوازع النفس الإنسانية ، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما فى العراء ، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [الإسراء] أى : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى ، وسينقذونه من أيدي اليهود .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [٧] [الإسراء]

المتأمل فى هذه العبارة يجد أن دخول المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها فى أيدي اليهود ، بل كان فى أيدي الرومان المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكن إساءة لليهود ، وإنما كان إساءة للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو فى حوزة اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن تدخل عليهم المسجد الأقصى ، ونُظِّهْرَهُ من رِجْسِهِمْ .

ونلاحظ كذلك فى قوله تعالى : ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [٧] [الإسراء] أن القرآن لم يقل ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لنُبُوءَةِ القرآن ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يلفتنا : إن أردتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحووا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ... ﴾ (٧)

[الإسراء]

كلمة الآخرة تدل على أنها المرة التي لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غلبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَتَّبِعُوا مَا عُلِّمُوا نَجِيبًا ﴾ (٧)

[الإسراء]

يتببروا : أى : يهلكوا ويدمروا ، ويخربوا ما أقامه اليهود وما بنوه وشيدوه من مظاهر الحضارة التي نشاهدتها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقل : ما علوتم . إنما قال ﴿ مَا عُلِّمُوا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة من وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه عنهم :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أُنْثَىٰ مَا تُخَفُّوْنَ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ... ﴾ (١١٦)

[آل عمران]

فهم أذلاء أينما وجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون في ظله ، كما كانوا في عهد رسول الله ﷺ في المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهوية لا تذوب في غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون في البلاد التي يعيشون فيها ؛ لذلك تجد لهم في كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميل للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (١٦٨)

[الأعراف]

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أن أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حد زعمهم ، فتراهم يعملون للبناء والتعمير والتشييد .

وتحن الآن ننتظر وَعْدَ الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروية وعصبية سياسية ، لتعود لنا صفة العباد ، ونكون أهلًا لِنُصْرَةِ الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ۖ ﴾ (٧)

[الإسراء]

فهو وَعْدٌ آتٍ لا شك فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصها في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ^(١) ﴾ (١٠٤)

[الإسراء]

والمعامل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقق وَعْدِ الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مُرَادَة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قلنا لبني إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قُتِلَ لك واحد : اسكنْ فلا بد أن يُحْدَدَ لك

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والفقير ، والمطيع والعاصي ، والقوي والضعيف . [لسان العرب - مادة : لف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أن يظلوا مبشرين في جميع الأنحاء ، مُفَرِّقِينَ فِي كُلِّ الْبِلَادِ ، كما قال عنهم : ﴿ رَقَطْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا ۖ ﴾ (١٦٨) [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ ^(١) سُوءَ الْعَذَابِ ۖ ۝ (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكنة ونكد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاجَرُ الإسلام ، فبساعة أن يُهَاجَرُ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبه في الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس ، فلو لم تُثَرَّ الحيوية الإيمانية لَبُهِتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذي يشقى الناس به يُلَفِّتُ الناسَ إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة

(١) سامه الامر : كلفه إياه . وقال الزجاج : لولاه إياه ، وأكثر ما يستعمل في العذاب والنشر

والفعل . [لسان العرب - مادة : سوم] .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير في تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمان بالله ، ولو لم يكن الكفر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل فى الكون يعرض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحوا إليهم بفكرة الوطن القومى ، وزينوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن فى قيام دولة إسرائيل وتجمع اليهود بها نكاية فى الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن تضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿ عِبَادًا لَّنَا .. ﴾ (٥٠) [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفَرَّقُونَ مُبْعَثُونَ فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتية إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شُرْدَمَةٌ منهم ؟

إذن : ففكرة التجمع والوطن القومى التى نادى بها بلفور وأيدتها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسَهِّلُ علينا تتبعهم وتُمكننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (١٧) [الإسراء]

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٣٦٩

أى : أتينا بكم جميعاً ، نضمُ بعضكم إلى بعض ، فهذه إذن
يُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكُرة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون
فى النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن
نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : ﴿ قُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَمْنًا^(١)
تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٢)

[الأنعام]

والمراد بقوله هنا : ﴿ وَعَدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧)

[الإسراء]

هو الوعد الذى قال الله عنه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِمَسْزُورُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٧)

[الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَنْهُ تَأْوِجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا^(٢) ﴾

و (عَسَى) حَرَفٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّجَاءِ ، وَكَانَ فِى الْآيَةِ إِشَارَةً إِلَى
أَنَّهُمْ سَيُظَلَّلُونَ فِى مَذَلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ ، وَلَنْ تَرْتَفِعَ لَهُمْ رَأْسٌ إِلَّا فِى ظِلِّ
حَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِنْهُ ، وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُعَاهِدُونَهُمْ عَلَى
النُّصْرَةِ وَالنَّائِبِذِ وَالْحِمَايَةِ .

وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. ﴾ (٨)

[الإسراء]

(١) البأس : الشدة والقوة ، ويقول تعالى : ﴿ وَجِئَ الْبَاسُ ﴾ [البقرة] أى : وقت الحرب
الشديدة . [القاموس القويم ٥٢/١] .
(٢) حصيراً : مُحْبَسًا وَمُحْصَرًا ، وأصل الحصر والإحصار : المثلج . [لسان العرب - مادة :
حصر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٦/٢) : « حصيراً أى : مُسْتَكْرًا وَمُحْصَرًا وَسُجُنًا
لا مخرج لهم منه » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذي ما يزال
يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتي
من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿ رَبِّكُمْ .. (أ) ﴾ [الإسراء]

لأن الرب هو المتولى للتربية والمتكفل بضمان مقومات الحياة ،
لا يضمن بها حتى وإن كان العبد كافراً ، فالكل أمام عطاء الربوبية
سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

الجميع يتمتع بنعم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو
سبحانه لا يزال ربهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَرْحَمَكُم .. (أ) ﴾ [الإسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان في موقف يستحق فيه الرحمة ،
واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون في
حِصْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التي تُعطى لهم فرصة التعايش مع
الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم في مدينة رسول الله ، يوم أن
أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلت هذه المعايشة لدرجة أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن
يقترض لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفي هذا
حكمة يجب أن نعيها ، وهى أن المسلم قد يستحى أن يطالب رسول
الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودى فسوف يُلجّ في طلب حقه وإذا نسى
رسول الله سيذكره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويُغالطونه
مكرراً ، وقد حدث أن وقى رسول الله لأحدهم دينه ، لكنه أنكره وأتى

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٣٧١

يطلب به من جديد ، واخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول :
أبغنى شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزم الموقف في
حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمه ، فهبَّ خزيمه قائلاً : أنا
يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودي دينه ، فسكت
اليهودي ولم يرد ولم يجادل ، فدل ذلك على كذبه . ويكاد المريب أن
يقول : خذوني .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمه بعد أن انصرف الدائن
قال : يا خزيمه ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا
أقضى لليهودي دينه ؟ فضحك خزيمه وقال : يا رسول الله أصدقتك
في خير السماء ، وأكذبتك في عدة دراهم ؟

فسرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شَهِدَ لَهُ خَزِيمَةٌ
فَحَسْبُهُ »^(١) .

ثم يَهْدِدُ الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ
عُدْنَا .. ﴾ (٨) . [الإسراء]

إِنْ عُدْتُمْ للفساد ، عُدْنَا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من
جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على
الذنوب في الدنيا يُبرئهم من عذاب الآخرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانی في المعجم الكبير (١٠١/٤)
من حديث خزيمه بن ثابت قال الهيثمي في المجمع (٢٢٠/٩) : رجاله كلهم ثقات . . .

فالعقوبة على الذنب التي تُبْرَىء المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حضن الإسلام ، وإلا لَأَسْتَوَى مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ مَعَ مَنْ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ الْحَدَّ .

فلو سرق إنسان وَقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقَطَّع يده ، فلو اسْتَوَوْا في عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر في العقوبة ، وكيف يستوى الذي قُطِعَتْ يده . وعاش بِذَلَّتْهَا طوال عمره مع مَنْ أَفَلَّتْ من العقوبة ؟

هذا إن كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذي بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجود له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعْفَى صاحبها من عقوبة الآخرة : لذلك يقول تعالى بعدما : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (٨) [الإسراء]

﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ فعل يفيد التحويل ، كان تقول : جعلت المعجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صَيَّرْتَهُ وَحَوَّلْتَهُ . فماذا كانت جهنم أولاً فَيُحَوَّلُهَا الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ في هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هي بمعنى خَلَقْنَا ، أى : خَلَقْنَاهَا هَكَذَا ، كما تقول : سبحان الذى جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لَوْنٌ آخر فَحَوَّلَهُ اللهُ تعالى إلى البياض ، بل خلقه هَكَذَا بداية .

ومعنى : ﴿ حَصِيرًا ، ، (٨) ﴾ [الإسراء]

الخصير فراش معروف يُصْنَعُ مِنَ الْقَشِّ أو من نبات يُسَمَّى

السَّمَرُ ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّيَ حصيراً ، لان كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضيق في المكان للمكين ، وفي صناعة الحَصِير يَضْمُون الاعواد بعضها إلى بعض إلى أن تتماسك ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحَصِير ؟ نفرش الحَصِير : لأنه يحبس عَنَّا القَدْرَ والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا . إذن : الحَصْر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمقتبِع لمادة (حصر) في القرآن الكريم يجدها بهذه المعاني ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ^(١) الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَلَّوْهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ .. ﴾ [التوبة] أي : ضَيِّقُوا عليهم .

وقال تعالى في فريضة الحج : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَمَرَّ مِنَ الْهَدْيِ .. ﴾ [البقرة] أي : حَبَسْتُمْ وَمَنَعْتُمْ من أداء الفريضة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء]

أي : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهي لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا^(٢) .. ﴾ [الكهف]

(١) أنسلخ الشهر : انقضى وانتهى . [القاموس القويم ٢٢٢/١] .
(٢) قال ابن الأعرابي : سرادقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبي : علق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالخظيرة ، وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « لسرادق النار أربع جدر . كُتِفَ كل جدار مسيرة أربعين سنة . قال القرطبي في تفسيره (١١٢٤/٥) : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار ، وجدره ما وُصِفَ » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإن حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴾ (٢٠) ﴿ [السجدة] وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (٨) ﴿ [الإسراء]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا في الدنيا يحتمون في أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون في حضانة أهل الباطل ، أما في الآخرة فلن يجدوا ناصرًا أو مدافعًا .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ [المافات]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجعله آية أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرق له الناموس فيما لا يعلمه القوم كان أدعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هي التي أعطته هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح - عليه السلام - عبداً شكوراً ، فهناك فرق بين عبودية الخلق للخالق ، وعبودية الخلق للخلق ؛ لأن العبودية للخلق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خير سيده .

ثم تحدث الحق سبحانه عن بني إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد في الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكلُّ له عمله دون ظلم أو جور .

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المنهج الإلهي المنزل من

السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مُخلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾

فمَنْ كان يريد الأسوة الطيبة في عبودية الرسول لربه ، هذه العبودية التي جعلته يسرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصعد به إلى السماء ، وَمَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح في عبوديته لربه فأكرم نوريته من أجله ، فعليه أن يسير على نَرَبِهِمْ ، وأن يقتدى بهم في عبوديتهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهود الذين أفسدوا في الأرض مرتين .

والذي يرسم لنا الطريق ويوضح لنا الحق من الباطل هو القرآن الكريم : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ .. ۝﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ .. ۝﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا

القرآن ؟

نقول : لم يكن القرآن كله قد نزل ، ولكن كل آية في القرآن تُسمى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملت كل المسائل التي تضمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ۝﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُسْتَشْرِفٌ أَنْ يَسْتَزِيدَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ يَأْتِيَ
بجديد فليعلم أن منهج الله مُنْزَهٌ عَنِ النِّقْصِ ، وَفِي غِنًى عَنِ زِيَادَتِكَ ،
وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبْحَثَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَسَوْفَ تَجِدَ فِيهِ مَا تُصِيبُ إِلَيْهِ
مِنَ الْخَيْرِ .

قوله : ﴿ يَهْدِي .. (٩) ﴾ [الإسراء]

الهداية هي الطريق الموصِّلُ لِلْغَايَةِ مِنْ أَقْرَبِ وَجْهٍ ، وَبِأَقْلٍ تَكْلُفَةٍ ،
وهو الطريق المستقيم الذي لا التواءَ فِيهِ ، وَقُلْنَا : إِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ
يَهْدِي الْجَمِيعَ وَيُرْسِمُ لَهُمُ الطَّرِيقَ ، فَمَنْ اهْتَدَى زَادَهُ هُدًى ، كَمَا قَالَ
سُبْحَانَهُ : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

ومعنى : ﴿ أَقُومُ .. (١) ﴾ [الإسراء]

أى : أَكْثَرَ اسْتِقَامَةً وَسِلَاقًا . هَذِهِ الصِّفَةُ تُسَمَّى أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ ،
إِذْ : فَعِنْدُنَا (أَقُومُ) وَعِنْدُنَا أَقْلُ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ (قَيِّمٌ) كَانَ نَقُولُ :
عَالِمٌ وَأَعْلَمُ .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. (٩) ﴾

[الإسراء]

يدل على وجود (الْقَيِّمِ) فِي نَظْمِ النَّاسِ وَقَوَانِينِهِمُ الْوَضْعِيَّةِ ،
فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَا يَحْرُمُ الْبَشَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قَوَانِينٌ وَشَرَائِعٌ جِنْمَا
تَعْصُهُمُ الْمَظَالِمُ وَيَشْقُونَ بِهَا ، فَيَقْتَنُونَ تَقْنِينَاتٍ تَمْنَعُ هَذَا الظُّلْمَ .

وَلَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَنْزِلْ لَهُمْ مِنْهُجٌ مِنَ السَّمَاءِ ، فَمَا وَضَعُوهُ
وَأَنْ كَانَ قَيِّمًا فَمَا وَضَعَهُ اللَّهُ أَقُومُ ، وَأَنْتَ لَا تَضَعُ الْقَيِّمَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تُحْضَرُ بِشَيْءٍ مُعْجَاجٍ غَيْرِ قِيمٍ ، وَإِلَّا فَمَاذَا يُلْقِيكَ لِلْقِيمِ ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ،
فهناك فرق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب
القوانين الوضعية يُعدّلون نُظْمَهُمَ لعلاج الأمراض التي يَشْقُونَ بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدَثَتْ غَفْلَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَصَابَتْهُمْ بَعْضُ الدَّاءَاتِ نَتِيجَةً أَنْصَرَفَهُمَ عَنْ مَنَهِجِ رَبِّهِمْ نَقُولُ لَهُمْ :
عُودُوا إِلَى الْمَنَهِجِ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴾ (١٦)
[الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا في
مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدَ المستشرقين عن قول
الحق تبارك وتعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٢) ﴿

وهي آية أخرى يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢٢) ﴿

فكيف يقول القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴾ (٢٢) ﴿

في حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملت الآية لوجدت فيها الردَّ على سؤالك ، فالحق
سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٢) ﴿

ويقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢٢) ﴿

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتِّبَاع ، ولم يَقُلْ القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجَّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلُّى عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضالَّتَهم .

فنظام الطلاق فى الإسلام الذى كثيراً ما هاجموا وانتقدوه ، وراوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل فى قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأن يُقننوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُجاً فى الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد فى الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون فى حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا فى الإسلام ، لمعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كنز » وهو زعيم اقتصادى عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدى وظيفته كاملة فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لجَجِّ هؤلاء فى خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعنى أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما فى التعامل الربوى من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مرَّ الزمن أن تُسدِّد حتى القسط

سورة الأضرحة

٨٣٧٩

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسعى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التي ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَصَّتْهُمْ قَتَّلُوا لها .

فظهر دين الله هنا يعني ظهور نظم وقوانين ستضطربهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتباع .

إذن : فمتبع الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهدى ، وفي القرآن الكريم ما يوضح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا في قصة مولاه « زيد بن حارثة »^(١) ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - التي وهبته بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد في خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده في مكة فاتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خيره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختر زيد البقاء في خدمة رسول

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي : صحابي ، اختطفه في الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوعلته إلى النبي ﷺ حين تزوجها ، فتبناه واعتقب وزوجه بنت عمته ، جعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفي ٨ هـ .

الله وأثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على من أختارني شيئاً »^(١) .

وفى هذه القصة دليل على أن الرق كان مباحاً في هذا العصر ، وكان الرق حضانة حنان ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، وإن كلفه أعانه ، فكانت يده بيده^(٢) .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك أثره على أهله ، وأحب البقاء في خدمته ، فرأى رسول الله أن يكافئ زيدا على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فسيقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد »^(٣) .

وكان التبني شائعاً في ذلك الوقت ، فلما أراد الحق سبحانه أن يحرم التبني ، وأن يحرم نسبة الولد إلى غير أبيه بدا برسول

(١) أورده ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، (ترجمة رقم ٢٨٨٤) في ترجمة زيد بن حارثة الكلبي .

(٢) أخرج البيهقي في صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم في صحيحه (١٦٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكفروهم ما يطلبهم ، وإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه » . أورده ابن حجر في الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فذكر زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوج زيدا ابنة عتبة زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَوْلُ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ إِنَّكَ عَلَىٰ رَوْحِكَ وَأَنَّ اللَّهَ وَتَحِلِّي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [٣٥] [الأحزاب] .

[الاحزاب]

[الاحزاب]

وتعالى .

[الاحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

[الإسماء]

والأوسط في كل شيء . في العقائد ، وفي الأحكام ، وفي القصص .

نظم العقائد مثلاً ، جاء الاسلام ليحياه مجتمعاً متناقضاً بين مَن

تذكر وجود إله في الكون ، ومن من يقول بتعدد الآلهة ، فهاهنا

الإسلام وَسَطًا بين الطرفين ، جاء بالأقوم في هذه المسألة ، جاء

ليقول بآله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو اقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فله يدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١١﴾ [الشورى]
وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأولوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١١٥﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونعرض عن تدبرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكِّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يثري حياتنا ، ويوفر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فاللحق سبحانه أعطانا مَقَوِّمَاتِ الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمن أراد الكماليات فعليه أن يعمل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، امتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسهَّلت عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثقل وجده

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٢٨٢

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحت شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكنته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوة مُحركة عندما شاهد القدر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالم الذي اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء تسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكى عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفة ، لاحظ أن عينه قد برئت ، فبحث في هذه المسألة حتى توصل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخلق ، ويمرون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أَعَدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ ﴾ (٦١) [هود]

والاستعمار أن تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا نستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني

وهذا يهدم ، إذن : لايد أن تُنظّم حركة الحياة تنظيمًا يجعل المواهب في الكون تتسائد ولا تتعاند ، وتتعاصد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الشورى]

وإن كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيِّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرّم علينا التجسس وتتبع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغيبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ! لأن الله تعالى يريد أن يُثري حياة الناس في الكون ، وهب أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعته هذه السيئة الواحدة فربما أزهتك في كل حسناته ، وحرمتك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لامتك الانتفاع به .

وهب أن صانعاً بارعاً في صنعه وقد احتجّته ليؤدّي لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لازهدك هذا في صنّعه ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإن كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبع

غيب الناس ، والبحث عن اسرارهم نهاهم ايضاً عن تتبّع غيبك والبحث عن اسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبّيده نعمة أعظم من حفظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لاحدهم غيب أخيه أو عيب من عيوبه أذاعه وفضّحه به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلّعة^(١) في استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلّعة في تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إن تتبعت غيب الناس والتمست عيوبهم حرمت نفسك من مصادر يمكن أن تنتفع بها .

فالحق سبحانه يزيد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البقاء ، التنافس الذي يثرى الحياة ، ولا يشير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢٦) [المطففين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجتهد ليكون مثله أو أفضل منه ، وكان الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس القل والحق والكراهية ، بل تنافس من يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس من لا يشمت لغشيل الآخرين .

وقد يجسد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشيء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هواها تشبهه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب - مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يفضب وتثار حفيظته إن كان له عدو ، ويراه مصدر شر وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار..

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ، لأن صديقك قد يُنافسك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كجوبة ليذيعها ويسمع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

عَدَائِي لَهُمْ فَضَلَّ عَلَى وَمِنَّةٌ فَلَا أَبْعَدُ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعْدَاءِ
هُمُ يَحْشُوا عَنِّي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة ، حتى في الأعداء ، ونجد في هذا التنافس المثمر الذي يُثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بد له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمي الضعيف من بطش القوي ، فجاء منهج الله تعالى ليَقْنَنَ لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٢٨٧

ثم حَذَّرَ القَوَى أَنْ تُطْفِئَ قُوَّتَهُ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى ظَلَمِ الضَّعِيفِ ،
وَذَكَرَهُ أَنَّ قُوَّتَهُ لَيْسَتْ ذَاتِيَّةً فِيهِ ، بَلْ هِيَ عَرَضٌ سَيُزُولُ ،
وَسَوْفَ تَتَبَدَّلُ قُوَّتُهُ فِي يَوْمٍ مَا إِلَى ضَعْفٍ يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الْعَوْنِ
وَالْمُسَاعَدَةِ وَالْحِمَايَةِ .

وَكَانَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لَنَا : أَنَا أَحْمَى الضَّعِيفَ مِنْ قُوَّتِكَ
الْآنَ ، لِأَحْمَى ضَعْفِكَ مِنْ قُوَّةِ غَيْرِكَ غَدًا ..

أَلَيْسَ فِي هَذَا كُلُّهُ مَا هُوَ أَقْوَمُ ؟

وَنَقِفْ عَلَى جَانِبٍ آخَرَ مِنْ جَوَانِبِ هَذِهِ الْقَوَامَةِ لِمَنْهَاجِ اللَّهِ فِي مَجَالِ
الْإِنْفَاقِ ، وَتَصَرُّفِ الْمَرْءِ فِي مَالِهِ ، وَالْمُتَأَمَّلُ فِي هَذَا الْمَنْهَاجِ الْأَقْوَمِ
يَجِدُهُ يَخْتَارُ لَنَا طَرِيقًا وَسَطًا قَاصِدًا لَا تَبْذِيرَ فِيهِ وَلَا تَقْتِيرَ^(١) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَطْبَعُهُ يُحِبُّ أَنْ يُثْرَى حَيَاتُهُ ، وَأَنْ يَرْتَقِيَ
بِهَا ، وَيَتَمَتَّعَ بِتَرْفُهَا ، وَلَا يُنَاجِ لَهُ ذَلِكَ إِنْ كَانَ مُبْتَدِرًا لَا يُبْقَى مِنْ
دَخَلِهِ عَلَى شَيْءٍ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي الْإِنْفَاقِ حَتَّى يَجِدَ فِي
جَعْبَتِهِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُثْرَى حَيَاتُهُ وَيَرْتَقِيَ بِهَا وَيُوفَّرَ لِأَسْرَتِهِ كِمَالِيَّاتِ
الْحَيَاةِ ، فَضْلًا عَنْ ضَرُورِيَّاتِهَا .

جَاءَ هَذَا الْمَنْهَاجُ الْأَقْوَمُ فِي قَوْلِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا
أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان]

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء]

(١) فتر على عياله : ضيق عليهم في النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان في الرزق .
[لسان العرب - مادة : فتر] .

فلإنسان فى حياته طموجات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثرت فيه المغريات ، فإن وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألا يُبدد كل طاقته ، وينفق جميع دخله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البخل والإمساك ؛ لأن البخل مذموم ، والبخل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البخل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببخله فى تقاوم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يشقى به مجتمعه .

إذن : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير فى أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذى ارتضاه لنا المنهج الإلهى .

وكذلك فى مجال المأكـل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذى يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتخمة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢٦١) [الأعراف]

فقد علمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قدر طاقة الوقود الذى يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكى أصحاب الإسراف فى المأكـل والمشرب .

والمتأمل فى حال هؤلاء الذين ياكلون كل ما لذ وطاب ، ولا يحرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كبرهم وتقدم السن بهم يحرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

سورة الاسراء

8289

الملذات ، فتدري في بيوت الاعيان الخادم ياكل اطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، في حين ياكل سيده انواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفْتَ فيها في بداية الأمر ، فلا بُدَّ أَنْ تُحَرِّمَ منها الآن .

وَصَدَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ : « كَلُّوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا ،
وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ. »^(١)

وأيضاً من أسباب السلامة التي رسمها لنا المنهج القرآني ، ألا يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شيء ولو كان الخبز الحاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذي يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرنا هذا المنهج لموجدته في أي جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

في العقائد ، في العبادات ، في الأخلاق الاجتماعية العامة ، في العادات
والمعاملات ، إنه منهج ينظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَا
فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣٨) [الأنعام]

هذا المنهج الإلهي هو أقوم المتامج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق ، ويعلم ما يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢ ، ١٨٢) ، وابن ماجه في سننه (٢٦٠٥) والنسائي في سننه (٧٩/٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صنّعه ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملت الآلة حسب قانون صانعها أدت مهمتها بدقة ، وسكمت من الاعطال ، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانتة ، فيقول له : **اقعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٦٤)** [الملك]

فأفّة الناس في الدنيا أنهم وهم صنّعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، وياخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهي قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما ، إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل . ثم يقول تعالى : **﴿وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩)** [الإسراء]

فالمتفد لهذا المنهج الإلهي يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيماني ، وهذه نعمة في الدنيا ، وإن كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبَشِّرُنَا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمَي الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الأمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : **﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)** [البقرة]

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فَوَصَّفَ الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم . كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وَصَفَ له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرَضَ الله علينا أكبر من أي عمل دنيوي ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعِين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبَس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرَضَ الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩١ ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٢ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿ ٨٢٩٢ ﴾

كما أن البائع يحب دائماً البيع ، ويحرص عليه ، بخلاف المشتري الذي ربما يشتري وهو كاره ، فتجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشتَر اليوم سيشتري غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع ، فترك غيره من الاعمال أَوْلَى .

فإذا ما قُضِيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض ، فأخرجنا للقاءه سبحانه في بيته من عمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحياة (كبير) . ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذي سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتقبل على عملك بهمة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٩٠﴾

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٩٠﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۝٩٠﴾ [الإسراء]

إذن : فالآية داخلة في البشارة السابقة ، ولكن كيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبَشِّرُ المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخير يأتي في المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٤) [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهمًا : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ (١) الْكَرِيمُ

﴿ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك
الفشل ، او تقول : بشر فلانًا بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، والكافر بالعذاب ، كلاهما
بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسره وتُسعده ، وتجعله
يستشرف ما ينتظره من نعيم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسره المؤمن ؛ لانه لم يقع فى مصيدة
الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتخيفه ، وهذا رحمة به واحسان
إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا
الْأَوْثَرُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) [الرحمن]

فهذه كلها نعم من نعم الله تعالى علينا ، فتناسب أن تُذيل بقوله

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩) [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعَدُّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب - مادة :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٢٩٥

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدَ^(١) مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) ﴾

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأيُّ نعمة في أن يُرسل الله عليهما شواطِد من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل في هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نعم الله ، ألا وهي زَجْرُ العاصي عن المعصية ، ومَسْرَةُ اللطائف .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون : إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر . فالأمر : طلبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكل طلب من الله لخلقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إن كان الطلب من مُساوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإن كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلب العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق في الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظِّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لي ، فيقول : اغفر ، فعلٌ دالٌّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز في حقِّ المولى تبارك وتعالى أن نقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

(١) الشواطِد : القطعة من الذهب ليس فيها بخان . [القاموس المفيد ١/ ٣٦٦] .

فأول ما يفهم من الدعاء أنه دلٌ على صفة العجز والضعف في العبد ، وأنه قد اندكت فيه ثورة الغرور ، فعلم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجه إليه بالدعاء .

(بالشر) بالمكروه ، والإنسان لا يدعو على نفسه ، أو على ولده ، أو على ماله بالشر إلا في حالة الحنق والغضب وضيق الاخلاق ، الذي يخرج الإنسان عن طبيعته ، ويفقده التمييز ، فيتسرع في الدعاء بالشر ، ويتمنى أن ينفذ الله له ما دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعباده ألا يستجيب لهم هذا الدعاء الذي إن دل فإنما يدل على حنق وغباء في العبد .

وكثيراً ما نسمع أمّاً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لها ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمة الله بنا أن يفوت لنا هذا الحنق ، ولا ينفذ لنا ما تعجلناه من دعاء بالشر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِّلَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ (١١) ﴿ [يونس]

أي : لو استجاب الله لهم في دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسرّ وتسعد بأن ربك سبحانه وتعالى فوت لك دعوة بالشر فلم يستجب لها ، وإن لعدم استجابته سبحانه حكمة بالغة .

فاعلم أن الله حكمة أيضاً حينما لا يستجيب لك في دعوة الخير ، فلا تقل : دعوت فلم يستجب لي ، واعلم أن الله حكمة في أن يمنعك

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيس الأمرين بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر . ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فله حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، فقالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۖ﴾ (٢٢) ﴿

[الأنفال]

وقالوا : ﴿أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا رَزَعَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) ۖ﴾ (٢٣) ﴿

[الإسراء]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقَضَى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن الله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحَقَقَى ، وما هم الكفار بأقرب حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْدِنَا إِلَيْهِ ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرع ، كما قال تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧) ﴿

[الأنبياء]

(١) الكسفة : القطعة . وكسَفَ السحاب وكسَفَ : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسَف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفي المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وجه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أن تُجاب إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دَعَاَهُ بِالْخَيْرِ ۖ ۝ (١١) ﴾ [الأنعام]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلاً ۝ (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تقاوى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

(١) محونا : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقفاة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبي ٢٩٥٦/٥] .

لأن الحكمة من الليل تكمن في ظلمته ، والحكمة من النهار تكمن في نوره ، فالظلمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفي الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم » ^(١) .

في حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة - التي تراها الآن - مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهي ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعى ، فعن ارتاح في الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ ﴾ (٧٣) [القصص]

لماذا ؟ ﴿ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ۚ ﴾ (٧٢) [القصص] أى : فى الليل .

﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ (٧٣) [القصص] أى : فى النهار .

إنن : الليل مهمة ، والنهار مهمة ، وإياك أن تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

(١) أخرج البخارى في صحيحه (٢٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إذا استجنى الليل - أو كان جنح الليل - فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأطلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطعم مصباحك . واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴾ (٢٣) [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحَةً ورُخْصَةً ، ولكن في اضيق نطاق ، فمن لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لطفه تعالى ورحمته بخلقه .

هذا الردع إما ردع ذاتي اختياري ، وإما ردع قهري ، الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإن زادت الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئتة لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السلم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي .

فكان الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حدَّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القسرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكان الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : أرحم نفسك ، فإنك لم تعد صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلم الإنسان لاختياره ، بل يُلقى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منا إذا ما تعرض لمناسبة اضطرت له لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بد له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أن ينام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ لياخذ الجسم حقه من الراحة التى حُرِم منها .

وقوله تعالى : ﴿ آيَاتِنَا .. ﴾ (١٧) [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشئ العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويظهر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلق على ثلاثة أشياء :

- تُطلق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٢٧) [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) [الشورى]

وهذه الآيات تلفتتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : ترى بها الأشياء ! لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغي أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبَصَّرًا فيها ، وليسيت هى مبصرة .

وهذه كما فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ قَلَمًا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۖ ﴾ (١٣) [النمل]

فتنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيرت الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى د ابن الهيثم ، الذى نَوَّرَ الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظلمة إذا كنت فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشيء المرئى ! ولذلك ترى الأشياء إن كانت فى الضوء ، ولا تراها إن كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشيء المرئى هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويسامدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شيء يلفت النظر أى : يرسل إليك ما يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ ﴾ (١٧) [الإسراء] على مستوى عال من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ﴾ (٥٣)

وقوله تعالى : ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾ (٧٢) [الإسراء]

وهذه هي العلة الاولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ! لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٧٣) [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ ..﴾ (٧٣) [القصص] أى : فى الليل ، ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٧٢) [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما - إذن - متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحَلًّا للحركة وابتغاء فضل الله : لأن الحركة أمر مَادِيّ وتفاعل مَادِيّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله . كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلة .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء : لأن الظلمة تغطى الأشياء وتعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمتفاعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطملك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبين الإنسان المادة التي يتفاعل معها . لذلك ، قال الحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ﴾ (١) [الأنعام]

لأن النور محل للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا في ظلمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴾ (٢) [الإسراء]
وهذه هي العلة الأخرى لليل والنهار ، حيث يمرورهما يتم حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشيء إن لم تكن له كميات متكررة فهو واحد .
وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴾ (٣) [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا في الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح ، وفي العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملت عظمة الخالق سبحانه لوجدت القمر في الليل ، والشمس في النهار ، ولكل منهما مهمة في حساب الأيام والشهور والسنين . فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذي أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهي بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ ﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق لا يختل ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ١٢ ﴾ [الاسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بيننا وبين شيئين ، وتقول : فصلت شيئا عن شيء ، فالحق سبحانه فصل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة .

ومثال ذلك في الوضوء مثلا يقول سبحانه : ﴿ بِأَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ٦ ﴾ [المائدة]

فاطلق غَسَلَ الوجه : لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدد الأيدي إلى المرافق ، لأن الأيدي يختلف في تصديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حدها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريد على شكل مخصوص .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ٦ ﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسح لا الغسل ، والرجلان كاليد لا بد أن تُحدّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا^(١) طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ١٣ ﴾ [النساء]

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعي : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض . ولا يبالى أكان في الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، ترابا كان أو غيره . [لسان العرب - مادة : صعيد] .

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظن البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن تُنظف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، ولا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذي جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يَصْفَرُ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِلَ عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأن يستعد للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أن يُبْحِثَ عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنَّ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح »^(١) ويتفألون

(١) قال الحسن : أى شقاوته وسعاده ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبي ٣٩٥٧/٥] .

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من طير أو طائر أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك ، [لسان العرب - مادة : سنخ] .

به ، وإنَّ مَرَّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .
إذن : كانوا يتساءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن ^(١) ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأنَّ الفأل الطيب يُنشِط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل في الكون .

والحق سبحانه هنا يوضح : لا تقولوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أى : عملك في عنقك يلزمك ولا يتفك عنك أبداً ، ولا يُسال عنه غيره ، كما أنه لا يُسال عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾ (١٥)

فلا تلقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذى لا ذنب له .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣)

وهو كتاب أعماله الذى سجلته عليه الحفظة الكاتبون ، والذى قال الله عنه : ﴿ وَيَقُولُونَ بَسْوَئَلَتْنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا هُوَ فُغْدَرُ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩)

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً ، أى : مفتوحاً مُعداً

للقراءة .

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الفأل الصالح ، والفأل الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٣ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصَوِّرُ لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدي ربه عز وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه^(١) ، ويُقر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجال فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجال فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَجئودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ٢١ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه في خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدي ، ويده يُنفق ويقتل عثرة المحتاج ، ويرجله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الضمر والفساد .

وجوارحه في كل هذا مُسَخَّرَةٌ طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لإمراداتك ، ففعلها لك ليس دليلاً على

(١) قال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قراطيسه ، أنت كنت المملى على حفظك ، ما زيد فيه ولا نقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبي ٢٩٥٨/٥]

الرضى عنك ؛ لانه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطأ ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك فى الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارمة وهي لاعة له ، وهي مُبغضة له ولِفعله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلت من إرادته ، وخرجت من سجن سيطرته ، شهدت عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾ [الإسراء]

أى : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَلَا نَزَرَ ۚ وَازْرُرْ ۖ وَزُرْ ۖ وَزُرْ ۖ وَزُرْ ۖ وَزُرْ ۖ وَزُرْ ۖ
حَقَّ نَبْعَتْ رَسُولًا ١٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ .. ﴾ [١٥] [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنى عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، وقبل أن يخلقه أعد له مقومات الحياة

كلها من أرض وسما ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخلق ، إذن :
فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضره
سبحانه في شيء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم ، لكي
تستمر حركة حياتهم ، وتتسائد ولا تتعاند : لذلك جعل لنا الخالق
سبحانه منهجاً تسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ،
من الخالق الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ،
فلو كان منهجٌ بشرٍ لبشر لكان لك أن تتأبى عليه ، أما منهج الله فلا
ينبغي الخروج عليه .

لذلك نسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع
الذي يقطع الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر
بذلك ، فلا اعتراض عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا
ولم تقعد .

ومن كماله سبحانه وغناؤه عن الخلق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم
من أحكام أو تجزئ أو تفسير : ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ،
ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كُلفت
واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى
فيها ولم يوفق نجداً غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمل الخالق سبحانه عن عباده ، ويعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فكل شيء ميلاد ، ولا داعي لأنْ نسبق الأحداث ، ولنتنظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلمنا الإسلام قبل أن نُعد بعمل شيء لا بدُّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُقِّتْ فيها ونعمت ، وإنْ عجزتْ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضُّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكان الحق سبحانه يقول لك : تمهل فكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيت حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا خير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والناسُ يلحونَ الطَّبيبَ وإنَّما خطأَ الطَّبيبَ إصَابَةُ الأقدارِ

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خِلاك الحميدة ،
فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خِلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْمَ العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص
نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة »^(١) .

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقن كل
صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صنعة صنّعه ، فالإنسان فى
حركة حياته يُتقن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة
ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ،
وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَنَ وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب
والمعلم والمهندس والحداد والتجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسَخَّرَ الله له مَنْ يتقن له حاجته ،
ولو رَغِمَا عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك
فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ،
فسوف يُيسِّرُ الله لهم سبيل إنقاذ حاجتك ، من حيث لا يريدون
ولا يشعرون .

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ - موارد الطالبان) . والحاكم فى مستدرکه (١٠٢/١) وقال : هذا
إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشهيخين وليس له علة . وأقره الذهبي .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٤١٧

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ ، ولا يُؤاخذُ أحدٌ بجريرة غيره ،
وكلمة : ﴿ تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

من الوزر : وهو الحمل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى
يحمل الاعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فَعَدَلَ اللهُ يَقْتَضِي أَنْ يُحَاسِبَ الْإِنْسَانَ بِعَمَلِهِ ، وَأَنْ يُسَالَّ عَنْ
نَفْسِهِ ، فَلَا يَرْمِي أَحَدٌ ذَنْبَهُ عَلَى أَحَدٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴾ (٣٢) [لقمان]

وحول هذه القضية تحدث كثير من المستشرقين الذين يبحثون
فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّقُ بينها وبين قوله : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ
أَثْقَالِهِمْ .. ﴾ (١٢) [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ (٢٥) [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هين لو
فهموا الفرق بين الوزر فى الآية الأولى ، والوزر فى الآيتين
الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتى خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى
نفسه ، فيجب أن يتحمل وزر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمل وزره الخاص به ، وتحمل وزر من أضلهم .

ويوضح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قيل أن تعاقبني عليها لا بد أن تعلمني أن هذه مخالفة أو جريمة (وهي العمل الذي يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمة إلا بنص ينص عليها ويقتنها ، ويحدد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها في الجرائد الرسمية لكي يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إن خالفوا أو تعرضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى في القانون الوضعي نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان في أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أن تعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترض عليك من منطلق هذه الآية .

أما أن يُجرّم هذا العمل ، ويُعلن عنه في الصحف الرسمية ، فلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

حجة لمن جهله بعد ذلك ! لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يعفى من العقوبة .

فكان قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الأنعام] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يعلم الناس منهج الحق سبحانه ، ويحدد لهم ما جرّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [٢٤] [مناظر]

ويقول : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ^(١) مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . ﴾ [١٩] [المائدة]

إن : قد انقطعت حجّتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على من آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذي لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكانهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيماني هو الفطرة ، هذه الفطرة هي المسئولة عن الإيمان بقرة قاهرة وراء الوجود ، وإن لم يأت رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أَنْتَ قَدْ انْقَطَعَتْ بِكَ السُّبُلُ فِي صَحْرَاءٍ وَاسِعَةٍ شَاسِعَةٍ لَا تَجِدُ

(١) الفترة : هي المدة من الزمن التي تفصل بين تبين . [القاموس القويم ٧١/٢] .

فبها أثراً لحياة ، وغليك الثومُ فنمت ، وعندما استيقظت فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

يا الله ألا تفكر في أمرها قبل أن تمتد يدك إليها ؟ ألا تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عمَّن أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بد أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً مُبدعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليد المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقومات والإمكانات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك : خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلفت يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن مواعدها ، ألا تسترعى هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أن ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عرضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربي القح الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بعر البعير وآثار الأقدام استدل بالآثر على صاحبه ، فقال في بساطة العربي : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرايت الجوع أو لمستهُ أو شممتهُ ؟ إنها الفطرة والغريزة التي جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه في حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسَبِّحُ بحمد ربه ، فذرات الكون وذرات التكوين في المؤمن وفي الكافر تُسَبِّحُ بحمد ربها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسَبِّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فتري المؤمن مُنسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذراته وأعضائه في ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذراته وأعضاؤه راضية عنه تُحبهِ وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته في طاعة الله ، فتري المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعة من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضائه في انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧)

[الذاريات]

وكان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه^(١) ، لأنه في انسجام تام

(١) من أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه . أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٢١/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » .

مع إرادته ﷻ . وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد شرس سيء الخلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقتها .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها منقادة له لما طأوعته ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أن تفك من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتتلق بلسان مبين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكان أعضائه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بد أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ۞ (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود - عليه السلام - فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۚ ۞ (٧٩) ﴾ [الانباء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تسبح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود - عليه السلام - أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتغام بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيى مَعَهُ وَالطَّيْرُ .. (١٠)﴾ [سبا]

أى : رَجَعى معه ورددى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهب الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جتسها^(١) ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي^(٢) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَى .. (١١)﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحيثما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتّاب السيرة مثلاً يقولون : سُبّح الحصى فى يد النبى ﷺ تقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبّح فى يده ﷺ كما يُسبّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على رادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَمَنْ لَا يُخْشَوُهُ (١٥)﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : نفسه وحكته وأفعاله ، أو الهسه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (١١)﴾ [النمل] أى : الهمنى شكرك وادفعنى إليه وحببه إلى .

والحق سبحانه يريد أن يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهي
كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شيء دونك حياة أيضاً ،
لكن ليست كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨) [القصص]

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قلّ فهو هالك ، والهلاك ضد
الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ
عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٤٢) [الأنفال] فدلّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴾ (١٥) [الاسراء]

فإن امتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذي
يُعلمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن
الله ، وَيُنَبِّئُ الْفَاطِرَةَ الْغَافِلَةَ عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٦)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يعطينا مثالا لعاقبة الخروج عن
منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يرسل رسولا ليُبلِّغ منهجه إلى
خَلْقِهِ ، فلا عُدْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ،
الذي يستحق منا الطاعة والإنقياد . وكيف يثقل الإنسان في نعمة
ربه ثم يعصاه ؟ إنه ردُّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذي

يسوقه إليك ليل نهار ، بل في كل نفس من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عذر لمن خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتي يسمع كلمتي » .

كما أن هذا المتعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك في وقت مناسب ، في وقت استوت فيه ملائكتك وقدراتك ، وأصبحت بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع في نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأولى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتنفذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدك من عدم .

والمعامل في قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يكلف بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ (١٣٢) [طه]

وقد شرح لنا النبي ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لَعَشْرٍ »^(١) .

وهذا التكليف وإن كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الأمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول في هذه السن من القريب المباشر المحسن أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسنة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أدعى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد في هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المتعم الحقيقي ، وهو الله تعالى .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٩٥) ، وأحمد في مسنده (١٨٧/٢) يلفظ : « مروا أبناءكم ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَنْهِيَآ رِزْقَهَا رَغَدًا ^(١) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بد أن يأتى اليوم الذى يأخذهم فيه أخذ عزيز مقتدر ، والأمر لكأنك أسوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١١٦) ﴾ [الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نص القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، ففعلوا نرا أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .. (٩١) ﴾ [النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

فأمر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفينا بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعصوا وفسقوا ؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

(١) رَغَدَ المِشْ : اتسع وطاب . يقول تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ نَفْسًا (٢٥) ﴾ [البقرة] .
أى : أكلا طيباً موسماً بكم فيه [القاموس القويم ٢٦٩/١] .

والامر : طلب من الاعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخلق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً .. ﴾ (١٦) [الإسراء]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا : لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ .. ﴾ (١٦) [الإسراء]

أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا .. ﴾ (٣٣) [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٦) [الإسراء]

أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عين ، وليست هذه هى الأولى ، بل إذا استقرأت التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يبق منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ

عِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧)

فأين عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فالآية قضية قولية ، لها من الواقع ما يُصدقها .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۖ ﴾ (١٧)

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح ؛ لأن الناس كانوا قريبي عَهْدٍ بِخَلْقِ اللَّهِ لآدَمَ - عليه السلام - كما أنه كان يُكْفَنُهُم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة ، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود ، فنزل بهم العذاب . الذي لم يسبق له مثيل .

قال تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَرْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

[الفجر]

ولنا وقفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر ، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) ﴾

[الفجر]

و ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى : ألم تعلم ؛ لأن النبي لم ير ما فعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآني عن : تعلم إلى تَرَ ؟

(١) الحجر : العقل ، لأنه يمنع صاحبه ويحجزه عما لا يليق به . قال تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) ﴾ [الفجر] ، أى : لصاحب عقل . [القاموس القويم ١/ ١٤٤] .

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها
قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (١) [الفيل]

حيث ولد رسول الله في عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التي
لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظم من حضارة الفراعنة التي لغت
انظار العالم كله ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿ أَلَيْسَ
لَهُمْ يُخْلَقُ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (٨) [الفجر]

أى : لا مثيل لها في كل حضارات العالم ، في حين قال عن
حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ (١٠) [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ﴾ (١٧) [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو في الاصطلاح الزمنى مائة عام ،
ويُطلق على القوم المقترنين معاً في الحياة ، ولو على مبدأ من
المبادئ ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ،
قرن هود ، قرن فرعون . أى : الفترة التي عاشها .

وقوله : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾ (١٧) [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنى عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء : ﴿ يَتْلُمُ خَائِفَةً ^(١) الْأَعْيُنَ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ^(٢) ﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمن يخبره : لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟ نقول : لأن السؤال يرد لإحدى قائلتين :

الاولى : كأن يسأل الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه ، فالهدف أن يعلم ما جهل .

والاخرى : كأن يسأل الاستاذ تلميذه فى الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه - والله المثل الأعلى - يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ^(١٤) ﴾ [الاسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. ^(١٧) ﴾ [الاسراء]

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ يَتْلُمُ خَائِفَةً الْأَعْيُنَ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ^(٢) ﴾ [غافر] قال : الرجل يكون فى القوم ، فتتر بهم المرأة فيريهم أنه يقض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه إذا أنه ينظر إلى عورتها [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٢٨٢/٧] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها
قد انفلتت لك ، وأعطتك الإنتاج الوفير .

والمعامل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدنيا يجدها نتيجة
لتفاعل الناس مع مقومات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتفاعل معهم
مقومات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقى الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من
مقومات الحياة ، والذي يعطيه دون أن يتفاعل معه ، استفادة جديدة ،
ومن ذلك ما توصل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية
استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس في الكون ، الذي يُحسن استعمالها تُعطيه
النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثري الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا
ما أسمىناه سابقاً عطاء الربوبية الذي يستوى فيه المؤمن والكافر ،
والطائع والعاصي .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ . (١٨) ﴾

[الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورقيقها وتقدمها .

﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ . . (١٨) ﴾

[الإسراء]

اجبتناه لما يريد من متاع الدنيا .

ولا يد لنا أن ننتيه إلى أن عطاء الربوبية الذي جعله الله للمؤمن

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٤٢٥

والكافر . قد يغفل عنه المؤمن ويترك مَقُومَاتِ الحياة واسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقى بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهى وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومَقُومَاتِها المادية التى لا قِوامَ للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أولى بمَقُومَاتِ الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بآله .

إذن : فمن الدين ألاّ تمكّن أعداء الله من السيطرة على مَقُومَاتِ حياتك ، وألاّ تجعلهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .. ﴾ (١٨)

[الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطلقاً ، بل للمشئة تدخل فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿ مَا نَشَاءُ .. ﴾ للمعجل و ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ للمعجل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقَى الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليست فى باله ، وليست فى حُسْبانه ؛ لذلك

لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفراً لا نصيب له فيها : لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدم ، وهذا قدم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقى والتقدم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ثُمَّ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُرْقَاءً حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجد شيئاً ، كذلك إن عمل الكافر خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجد له شيئاً من عمله : لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تأتي المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكن في حسبانته حينما قدم الخير في الدنيا .

وفي آية أخرى يصفه القرآن بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

فكرة يُشَبَّه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يُشَبَّه بالرماد : لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخصب والنماء ، وهو مقوم من مقومات الحياة .

ووصفه تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ^(١) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة المجرى المكد الفخم الذي لا ينبت شيئاً . [لسان العرب - مادة : صفا] .

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

والحق تبارك وتعالى في هذه الآية يُجَسِّمُ لنا خَيِّبَةَ أَمَلِ الْكَافِرِ فِي
الْآخِرَةِ فِي صُورَةٍ مُحَسَّسَةٍ ظَاهِرَةٍ ، فَنُصَلِّلُ عَمَلِ الْكَافِرِ كَحَجَرٍ أَمْلَسَ
أَصَابِهِ الْمَطَرُ ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُ مِنْهُ ؟ وَمَاذَا وَرَاءَهُ مِنَ الْخَيْرِ ؟

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مُدْخُورًا﴾ ﴿١٨﴾

أَي : أَعَدَدْنَاهَا لَهُ ، وَخَلَقْنَاهَا مِنْ أَجْلِهِ يَقَاسِي حَرَارَتَهَا
﴿مَذْمُومًا﴾ أَي : يَذْمُهُ النَّاسُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يُذَمُّ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ شَيْئًا
مَا كَانَ يَصْنَعُ لَهُ أَنْ يَرْتَكِبَهُ .

و ﴿مُدْخُورًا﴾ ﴿١٨﴾ [الْإِسْرَاءُ] مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَعْطَيْنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ صُورَةً لِمَنْ أَرَادَ الْعَاجِلَةَ وَغَفَلَ عَنِ
الْآخِرَةِ ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ ، يَعْطِينَا صُورَةً مُقَابِلَةً ، صُورَةً
لِمَنْ كَانَ أَعْقَلَ وَأَكْبَسَ ، فَفَضَّلَ الْآخِرَةَ .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٩﴾

الْمُتِمَّامِلُ فِي أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُهُ عَادَةً يُعْطَى الصُّورَةُ
وَمُقَابِلُهَا ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يَزِيدُ وَنُضُوحًا بِمُقَابِلِهِ ، وَالضُّدُّ يَظْهَرُ حُسْنُهُ
الضُّدُّ ، وَنَرَى هَذِهِ الْمُقَابِلَاتِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى

كما في : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ (١٤) ﴾ [الأنعام]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ .. ۝ (١٩) ﴾ [الإسراء] في مقابل : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعَاجِلَةَ .. ۝ (١٨) ﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. ۝ (١٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. ۝ (١٩) ﴾ [الإسراء]

لأن الإيمان شرط في قبول العمل ، وكلُّ سعى للإنسان في حركة الحياة لا بد فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكي يقبل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممن عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدموا هذه الإنجازات لم يكن في بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فاقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبي ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص^(١) قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة »^(٢) .

(١) القطا : طائر سُمي بذلك لثقل مشيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفَرَّخ فيه من الأرض ، والفحص : شدة الطلب خلال كل شيء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها في التراب تتخذ لنفسها حفرة تبيض أو تجثم فيها [لسان العرب - مادة : فحص : قطا] .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٢٨) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيري في الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذي تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعد أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنْ استعان بك في نقيصة فقد سقطت من نظره ، وإن أعنته على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَائِهِ

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ أى : كلا الفريقين السابقين : مَنْ أراد العاجلة ، وَمَنْ أراد الآخرة : ﴿ نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَائِهِ رَبِّكَ ﴾ .. ﴿ ٢٠ ﴾ [الإسراء]
أى : أن الله تعالى يمد الجميع بمَقُومَاتِ الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات في الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها في المعصية . كما لو أعطيت لرجلين مالا ، فالأول تصدق بهاله ، والآخر شرب بهاله خمرًا .

إنن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، أما عطاء الألوهية المتمثل في منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فى جهة ، ومُفَضَّلٌ عليه فى جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخًا مُعَادَةً ، بل يُريدنا أناسًا متكاملين فى حركة الحياة ، ولو أن الواحد مِنَّا أصبح مَجْمَعًا للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفَضَّلًا فى خَصْلَةٍ ، وجعل غيرك مُفَضَّلًا فى خصال كثيرة ، فانت محتاج لغيرك فيما فُضِّلَ فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلَتْ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل فى المجتمع ، وتسَلَّمُ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فإن زِدْتُ عني فى المال فربما أزيد عنك فى الصحة ، وهكذا تكون المحصلة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿ إِن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣) [المعبرات]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزم أدب الإسلام فى حفظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفَضَّلًا فلا تحتقر غيرك ، واعلم أن لهم أيضا ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذى قد تضطره الظروف وتُحَوِّجُه لسببائك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفَضَّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أن تتصورَ الحال مثلاً إذا أُضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مخموراً فإن له مهمة يفضل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطة للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه . ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ^(١) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا^(٢) وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسَخَّر لخدمة الآخرين فيما قُضِل فيه ، وفيما نَبِغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

إذن : فى التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة :

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عيى اللسان ، وهو ميسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليل اللسان وهو مقتور عليه . [الدر المنثور ٧/ ٣٧٥] .

(٢) سخره يسخره : أذله وذهبته وأخضعه . [القاموس القويم ١/ ٣٠٦] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس مثلاً من هو ابن الله ، وليس مثلاً من بينه وبين الله نسباً أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أولى من أحد .

فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندك غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ في مجال من المجالات ، فغيره نابغ في مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين ننظر إليهم نظرة احتقار ، ونرى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء)

فإن كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملت حالك في الدنيا ، وقارنته بالآخرة لوجدت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا موقوت ، وسينتهي إلى الموت ؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإن بقيت من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما فضلت به من نعيم الدنيا عرضة للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فالغنى قد يصير فقيراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قدر إمكانياتك وتفاعلك مع الاسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقنة وغير موثوق بها .

وهبُ أنك تنعمت في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنْقَضُ أمران : إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أن يفوتك هو بما تتعرض له من اغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتد لا ينتهى ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهى نعمة لا حدود لها ؛ لأنها على قدر إمكانيات العنعم عز وجل ، فى دار خلود لا يعترىها الفناء ، وهى مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكير والتأمل :

﴿ انظُرْ ﴾ أى الصفقتين الرابعة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجه للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأنزلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقى والرفاهية .

وفعلًا كان هذا الفندق أية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيت رفاقى وكانوا من طيبة القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه رب البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أن تثير فينا الشوق لنعيم دائم في الجنة ؛ لا أن يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإن كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقَى وعمارة في الدنيا من صنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إن كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألا نغفلَ الفرقَ بين نعيم الدنيا الذي أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذي أعدّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس في رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاي مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إن تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أن يقدموا لك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذي أعدّه الخالق سبحانه لعباده الصالحين^(١) .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسألنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلا أن تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلّك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (٢٢)

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا إذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ [السجدة] .

سورة الأَنْزِلَةِ

٨٤٤٧

لأنه سبحانه أعطاك في الدنيا ، وأمدك بالأسباب ، وبمقومات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عدم ، حتى وإن كنت كافراً ، ثم أعبدك في الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذي لا يقنى ولا يزول .

وهذه هي الحثثيات التي ينبغي عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجه إليه ، وتلتصم به وتكون في معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إن فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمة والخذلان في الدنيا والآخرة .

وسوف تُفاجأ في القيامة بربك الذي دعاك للإيمان به فكفرت .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. ﴾ (٣٩)

[النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يدك .

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقَعُ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (٢٢)

[الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح خيراً قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهالك القوة ، وكسائه سقط إلى الأرض ، بعد أن أصبحت رجلاه غير قادرتين على حمله ، ولم تعد به قوة للحركة .

ونلاحظ في تفسير القرآن عن هذا الذي خارت قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وضع القعود خاصة ، ولم يقل مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففي النوم يفقد الإنسان الرمي فلا يشعر بالعذاب ، بل قال ﴿ فَتَقَعُ ﴾ هكذا شاخص يقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التي تُحس وتالم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية : لأن التخدير يُفقد الوعي فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ لَعَنَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦٥)

[النساء]

وقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ^(١) مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. ﴾ (٦٥) [النور]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفي الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو في عذاب مستمر .

وفي مجال الذم قال الشاعر :

دَحِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعْثِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وقوله : ﴿ مَذْمُومًا .. ﴾ (٦٦) [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿ مُخْذُولًا ﴾ (٦٦) [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُصرة ،

فالأبعد في موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٦٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٦٦)

[المصافات]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه :

(١) القواعد من النساء : من اللواتي انقطع عنهن الحيض ويحسن من الولد ، ولم يبق لهن تشوف إلى الزوج . نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضحاك وقتادة .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِنَّمَا
يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾

بعد أن وجهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : ﴿لَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۝٢٢﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أن يبين لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا
بالعمل ، فلا يكفي أن نعرف الله ونتوجه إليه ، بل لا بد أن تنتظر فيما
قرضه عليك ، وفيما كلفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب
الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى :

﴿وَالْعَصْرَ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِيٰ خُسْرًا ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا
الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن
يدعوك ولن يسألموك ، ولا بد أن تسلح نفسك بالحق والقوة
والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القولي فقط ، أن كفار مكة
لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألة الإيمان بالله
واحد وتنتهي القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

(١) قضى : أمر والزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم
بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبي ٣٩٦٥/٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووزاره مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بعمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بآله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذي جاء ليبلغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويبلغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَنِيبٍ ﴾ [الشورى]

وما هي أول الأحكام في منهج الله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٢٢) [الإسراء]

وقد أثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) : لأن الرب هو الذى خلقك ورباك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ ادعى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. ﴾ (٢٣) [الإسراء]

الخطاب هنا موجه إلى النبي محمد ﷺ : لأنه هو الذى بلغ العروة العليا فى التربية والادب ، وهى تربية حقّة : لأن الله تعالى هو الذى رباه ، وأدبه أحسن تاديب .

وفى الحديث الشريف : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »^(١)

(١) قال عبد الرحمن بن علي الشافعي الشيباني فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الستة » من الحديث « (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه المعسكى فى الأمثال عن علي بن رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح . »

قضى : معناها : حكم : لأن القاضي هو الذى يحكم . ومعناها
ايضاً : أمر . وهى هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألا تعبدوا إلا
إياه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تأتى قضى بمعنى : خلق . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۚ ۝١٦ ﴾ [فصلت]

وتأتى بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما فى قوله تعالى :
﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ^(١) زَوَّجْنَاكَهَا ۚ ۝٣٧ ﴾ [الأحزاب]

وقد تدل على انتهاء العدة كما فى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ۚ ۝٤٨ ﴾ [القصاص]

وتأتى بمعنى : أراد كما فى : ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ۚ ۝٦٨ ﴾ [غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُّتعدّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء
اللازم المؤكّد الذى لا نقص فيه .

وقوله : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ۝٢٢ ﴾ [الإسراء]

العبادة : هى إطاعة أمر فى أمره ونهيهِ ، فتتنصاع له تنفيذاً
للأمر ، واجتناباً للنهى ، فإن ترك لك شيئاً لا أمراً فيه ولا نهياً فاعلم
أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أى :
حلق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَاكَهَا ۚ ۝٣٧ ﴾ [الأحزاب] . أى : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارة من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجروها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبُّ يَبْرُلُ الثُّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

فيذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهى ، فبأى شيء أمرتكم الأصنام ؟ وعن أى شيء نهتكم ؟! إذن : كلامكم كذب فى كذب .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٢٢) [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلنائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا حفتوح لم يُغلق ، كما لو قلت : ضربت فلانا وفلانا وفلانا .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلانا فقد أغلقت باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة على سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثانى بعد عبادته : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٢٣) [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين فى

شُرُكُ الْإِسْرَاءِ

٨٤٥٢

آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ الْأَلْبَابُ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿وَوَعَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [المنكحوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن تقرب الأولى بالثانية ، أم تقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غَيَّبَ ، والإيمان به يحتاج إلى أعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسِّي ، فهما سرُّ وجوده المباشر ، وهما رِيَّاه ووفِّرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحَسَّةٌ ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمَرَ الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُرَبِّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل رباك الوالدان بما أوجدها هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إنَّ : لابد أن يلتزم حقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفس : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

يعنى نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلي . وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مظنة الإساءة . وهذا غير وارد في حقهما ، وغير متصور منهما ، وأنت إذا نفيت شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد دَمَمْتَهُ ، كان تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا في حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلت : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظن فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نفى العيب عمن لا يستحق العيب عيب . إذن : لم يذكر الإساءة هنا : لأنها لا تُرد على البال ، ولا تُتصور من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنس أن فضل الله عليك أعظم : لأن والديك قد بكداك وبُسْلَمَانِكَ إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ اِحْسَانًا ۖ ۝٢٣ ﴾ [الأنعام]

كانه قال : احسنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿ اِنَّمَا يَلْفَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ اَحَدُهُمَا اَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا اَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا ۚ ۝٢٤ ﴾ [الأنعام]

(١) نهى والنهى : زجر . والانهى : الزجر ، واستلجالة بكلام تزجره به . [لسان العرب - مادة : نهى] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتي الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

ومرة يُعلل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ ۝١٤ ﴾ [لقمان]

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلة في برِّ الوالدين ، والحيثيات التي استوجبت هذا البرِّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ ۝١٤ ﴾ [لقمان]

فأين دور الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات برِّ الوالدين يجد حيثية مُجَمَّلة ذكرت دور الأب والأم معاً في قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ۝٢٤ ﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للام الدور الأكبر ؛ لذلك حينما تفاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما ، قالت الام : لقد حمَله خِفَاً وحملته ثَقَلًا ، ووضعته شهوةً ووضعته كُرْهًا .

لذلك ذكر القرآن السبب في الخاصة بالأم : لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج^(١) ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٦٧/٥) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والقربة تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . »

يشعر بها ، فكانه سبحانه وتعالى أراد أن يُذَكِّرنا بفضل الأم الذي لم ندركه ولم نُحَسِّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذي يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتي أبوك ، فدور الأب - إذن - معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتُ بالوالدين في حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟ .

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقوتهما ليسا مظنة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجر منهما ، فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد في هذه الحال يتقربون للأباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أن كان مُعْطِياً أصبح أخذاً ، وبعد أن كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبي ﷺ في حديث الأَمِينات والمرام ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً ، فقال :

جاءني جبريل فقال : رغم أنف منْ ذُكِرَتْ عنده ولم يُصَلِّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف منْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف منْ أدرك والديه -

سورة الاسراء

٨٤٥٧

أو أحدهما - فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين ،^(١)

فخص الحق سبحانه حال الكبر ، لانه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خير الزواج مبكره ، فلما سُئل قال : لانه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك فى طفولة شيخوختك ، وشبهه الشيخوخة بالطفولة لان كليهما فى حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً﴾ [الروم] فَمَنْ تزوج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كبره .

والم تأمل فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَلَفَأُنْ عِنْدَكَ الْكِبَرُ..﴾ [الاسراء] لم تأت صفة الكبر على إطلاقها ، بل قيدها بقوله : ﴿عِنْدَكَ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يعد لهما غيرك فلتكن على مستوى المسئولية ، ولا تتنصل منها ؛ لانك أولى الناس بها .

ويعتمد البر بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكننا من الوفاء به ، وكذلك أن نصل الرحم

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢٤٦/٢) من حديث ابن مريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « رَغِمَ أَنْفٌ ، رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ ، أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَهُ الْكِبَرُ لَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذى فى سننه (٣٥٤٥) وقال : حديث حسن غريب .

التي لا تُوصَلُ إلا بهما من قرابة الأب والأم ، وَتُصَلُّ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما وَتُؤَدُّهم .

وقد كان ﷺ يؤدُّ صاحبات السيدة خديجة - رضى الله عنها - وكان يستقبلهن ويكرمهن^(١) .

وانظر إلى سُمُو هذا الخلق الإسلامي ، حينما يُعدُّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فيُقدِّجاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله في أمها التي اتَّنها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِي أُمَّكَ »^(٢) .

بل وأكثر من ذلك ، إنَّ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ (١٥) [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرِّ الوالدين تُوضِّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى في حال كفرهما ولئلا يهتما^(٣) في الكفر .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فعمرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد ، لمفرت فقلت : وما تذكر من عجز من عجائز قريش حمراء الشدين ، فلكت في الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجته مسلم في صحيحه (٢٤٣٧) وفي حديث آخر (٢٤٢٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت على أمي وهي راضية ، فأفصل أمي ؟ قال : نعم . صلي أُمَّكَ . أخرجته مسلم في صحيحه (١٠٠٣) والبخاري في صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللد : العداوة الشديدة ، والشديد الغصومة - [لسان العرب - مادة : لد] .

وَيُرَوَّى أَنَّ خَلِيلَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - جَاءَهُ ضَيْفٌ بَلِيلٌ ،
وَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ فِي ضَيْفَاتِهِ ، فَسَالَهُ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَنْ دِينِهِ
فَقَالَ : مَجُوسِي فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ يَذْهَبُ . فَسَرَّعَانَ مَا أَوْحَى الْحَقُّ
سَبْحَاتِهِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ مُعَاتِبًا إِيَّاهُ فِي أَمْرِ هَذَا الضَّيْفِ : يَا إِبْرَاهِيمُ لَقَدْ
وَسَّعْتَهُ فِي مَلَكِي أَعْوَامًا عَدِيدَةً ، أَطْعَمَهُ وَأَسْقَيْهِ وَأَكْسَوَهُ وَهُوَ كَافِرٌ
بِي ، وَأَنْتَ تُعْرَضُ عَنْهُ وَتُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ دِينَهُ مِنْ أَجْلِ لَيْلَةٍ يَبِيتُهَا
عِنْدَكَ . فَاسْرِعِ الْخَلِيلُ خَلْفَ الضَّيْفِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ ، وَحَكَى لَهُ
مَا حَدَثَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : نَعَمْ الرَّبُّ رَبُّ بِعَاتِبِ أَحِبَّابِهِ فِي أَعْدَائِهِ ،
وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ رَسُولُ اللَّهِ .

وقد رأى المستشرقون لضيق أفقهم وقلة فقههم لاسلوب القرآن
الكريم ، رأوا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ۖ ۝ (١٥) ﴾

وبين قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ ۖ ۝ (١٢) ﴾

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، في
حين ينهى عن مودة مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟

ولو فهم هؤلاء مُعْطِيَاتِ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ
لَعَلَّمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ غَيْرُ الْوَدِّ ؛ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ يَصْنَعُهُ الْإِنْسَانُ مَعَ مَنْ
يُحِبُّ ، وَمَعَ مَنْ يَكْرَهُ ، مَعَ الْمُؤْمِنِ وَمَعَ الْكَافِرِ ، تُطْعِمُهُ إِذَا جَاعَ ،
وَتَسْقِيهِ إِذَا عَطَشَ ، وَتَسْتَرْهُ إِنْ كَانَ عَرِيَانًا ، أَمَّا الْمُودَةُ فَلَا تَكُونُ إِلَّا
لِمَنْ تُحِبُّ ؛ لِأَنَّهَا عَمَلُ قَلْبِي .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٢ ﴾ [الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهي يُراعى الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والغطنة والأدب والرفق في التعامل مع الوالدين في مثل هذه السن .

الوالد بعد أن كان يعطيك ويتفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أن كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيد البيت أو طريح الفراش ، إذن : هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرهفة في هذه الحال .

ونأمل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ .. ۝٢٢ ﴾ [الإسراء]

وهي لفظة بسيطة أقل ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرِيَّة تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْرِي ، وليس الأمر الاختياري .

و ﴿ أَفْ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : اتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالك مشاعرك ، وتتحكَّم في عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهانى عن هذه فقد نهانى عن غيرها من باب أولى ، وما دامت هي أقل لفظة يمكن أن تُقال ، إذن : نهانى عن القول وعن الفعل أيضاً .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٤٦١

ثم أكد هذا التوجيه بقوله : ﴿وَلَا تَهْرَبُوا ..﴾ (٢٢) [الإسراء]

والنهر هو الزُّجْر بقسوة ، وهو انفعال كَال للتضجُّر وأشد منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة ، فلو تصورنا الابن يعطى والده كوباً من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريماً ما يتأفف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد: من عبارات التائب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والدك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقُّل .

ثم بعد هذا النهي المؤكد يأتي أمر جديد ليؤكد النهي السابق : ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) [الإسراء]

وفي هذا المقام نُرَوِّى قصة الشاب الذى أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلحق الطعام الذى وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتني ، فحول الإساءة إلى جميل يُحمد عليه .

والآخر الذى ذهب يتحرَّغ تحت أقدام أمه ، فقالت له : كفى يا بني ، فقال : إِنْ كُنْتُ تُحْيِيْنِي حَقًّا فَلَا تَمْنَعِيْنِي مِنْ عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ .

والقول الكريم هنا نوع من التصرف واللباقة في معاملة الوالدين ، خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعد صاحبها ، أو الممرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أولى الناس بإعالة الوالدين في

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان ما لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهب أن الوالد المريض أو الذي بلغ من الكبر عتياً يريد أن يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويقعده ويربّحه ، وينبض هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوْنٌ عليك يا والدي ، وأعطني فرصة أردّ لك بعض جميلك عليّ ، فلکم فعلتُ معي أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحِبّاً لوالده ، رفيقاً به ، حائياً عليه لا يتبرّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذي ينتقيه الابناء في المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك في بيتك وقد يحدث منه أن يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فنقول له في هذا الموقف : فداك يا والدي ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر في شراء واحدة أحدث منها ، أو غيره من القول الكريم الذي يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتي المرض مع كبر السن ، فتري الوالد طريح الفراش أو مشلولاً - عافانا الله وإياكم - لذلك فهو في أمس الحاجة لمن يُخَفِّف عنه ويؤاسيه ، ويفتح له باب الأمل في الشفاء ويذكره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كنّ على ذِكر لفضل الوالدين عليك ، ولا تنسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والقيث محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قدر حاجة المربى يكون حنان المربى .

إذن : نستطيع أن نأخذ من هذا إشارة دقيقة يجب ألا نغفل عنها ، وهى : إن كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حال كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضيهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤)

﴿ وَأَخْفِضْ ﴾ : الخفض ضد الرُفْع .

﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويرُفَرَف به ، إن أراد أن يطير ، ويخفضه إن أراد أن يحنو على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحَسَّنة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نفتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كناية عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليَطِير بهما مُتَعَالِيًا على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرافة والرحمة في الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّقهم^(١) الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرّون على مضغ الطعام وتكسيّره ، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أن يزدردوا الطعام . فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يتناولتهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلعه ، وإن تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ .. ﴾ (٢٤)

[الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذلّ قد يأتي بمعنى القهر والغلبة . وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿ يَنْأِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرِّئَةٍ مِنْكُمْ عَنْ ذِيئِهِ فَمَسَوْا فَمَسَوْا يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٥٤)

[المائدة]

فلو كانت الذلّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين . ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفي المقابل ﴿ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴾ (٥٤)

[المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٩)

[الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق .

(١) زقّه : اطعمه بفيه (بفيه) . [لسان العرب - مادة : زلق] .

مِنْهُ الْإِسْلَامُ

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق في المؤمن مرونة تمكنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التي يمر بها ، فإن كان على الكافر كان عزيزاً ، وإن كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

وجراته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصديق - رضى الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكان الموقف هو الذى صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. ﴾ (٢٤) [الإسراء]

إذن : الذلة هنا ذلة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤) [الإسراء]

لأن رحمتك بهما لا تبقى بما قدموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنرا إليك بداية وأنت أحسننت إليهما رداً ؛ لذلك أدخ الله أن يرحمهما ، وأن يتكفل سيحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. ﴾ (٢٤) [الإسراء]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : أرحمهما رحمة مثل رحمتهما بى حين ربّيانى صغيراً . أو تفيد التعليل : أى أرحمهما لأنهما ربّيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْهُ كَمَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (١٩٨) [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُرَبٍّ للإنسان فى هذا الحكم ، وإن لم يكن من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأى ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فإن ربك

غير والدك فلهما ما للوالدين من البرِّ والإحسان وحُسْنُ المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن ربى غير ولده ، ولا سيما إن كان المربى يتيمًا ، أو فى حكم اليتيم .

وفى ﴿ رَبَّانِي صَغِيرًا ٢١ ﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه فى تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ^(١) غَفُورًا ٢٥ ﴾

وقد سبق أن تكلمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطوق مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطوق لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المتناقض فغير منطوق مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق ؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر فى مكة التى صارت الإسلام وعانده ، وضيق عليه ، بل ظهر فى

(١) الأوابون : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . [تفسير القرطبي ٢٩٧٥/٥] .

المدينة التي احتضنت الدين ، وانساحت به في شتى بقاع الأرض ،
وقد يتساءل البعض : كيف ذلك ؟

نقول : النفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنَافِقُ إلا
القوى ، والإسلام في مكة كان ضعيفاً ، فكان الكفار يُجَابِهونه
ولا ينافقونه ، فلما تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقويت شوكلته ،
وبدأ ضعاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقد ذمّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم :
﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا^(١) عَلَى النِّفَاقِ .. ﴾ (١٠١) [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بعباءة لا مزيد عليه ، فقال تعالى
في حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا^(٢) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .. ﴾ (٩) [الحشر]

وكأنه جعل الإيمان محلاً للنازلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْتُوا
وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(٣) .. ﴾ (٩) [الحشر]

فإن قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. ﴾ (١٠١) [التوبة]

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون . وقال ابن جرير : ماثوا عليه ،
عبد الله بن أبي ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن نيس . [تفسير الدر المنثور للسيوطي
٢٧٢/١] .

(٢) أي : سكنوا دار الهجرة وهي المدينة أولاً ، وهم الانصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه
منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشيء . [لسان العرب - مادة : خصص] .

فالنفاق في المدينة ظاهرة صحيحة للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً في المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، لأنه مُنْدَسٌ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعب تمييزه ، على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبرِّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أن يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون في الإيمان بالله ، يكون كذلك في برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرُّ أبويه نفاقاً وسُمْعةً ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حرصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرُّ أبويه ، وهو يدعو الله في نفسه أن يريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ أي : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندي سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقع فيما لا تُحمد عقباه .

وقوله : ﴿ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء]

أي : إن توفر فيكم شرطُ الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإن كان غير ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تسنمروا في عدم الصلاح ، بل
عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَرْبَابِينَ غَفُورًا ٢٥ ﴾ [الإسراء]

والاوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .
وقد سبق أن أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمة
من الخالق بالخلق : لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه
أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ،
ويشقى بها طوال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى
به المجتمع .

لذلك شرع الخالق سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمنه ،
وليُكْرِى جوانب الخير فيه .

ثم يُوسِّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان »
إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أن حُثَّه على والديه لفت نظره إلى
ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا يَبْذَرْتَ بَذْرًا ٢٦ ﴾

الحق سبحانه بعد أن حُثَّ الإنسان على والديه صعد المسألة فحثَّه
على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ .. ﴾ [٢٦] [الإسراء]

﴿ حَقُّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حَقًّا للآقارب إن كانوا في حاجة ،
وإلا فلو كانوا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

سورة الاحقاف

٨٤٧١

يُهَادِي أَقْرِبَاءَهُ وَيَهَادُونَهُ . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يُشِيعَ فِي
الْمَجْتَمَعِ رُوحَ التَّكَافُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ .

لِذَلِكَ كَانَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الْأَنْدَلُسِ إِذَا مَنَعَ الرَّجُلُ زَكَاةً تَقَرُّبُ مِنْ
النُّضَابِ أَمْرَ بَقْطَعِ يَدِهِ ، كَأَنَّهُ سَرَقَهُ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْمَاهُ (حَقًّا)
فَمَنْ مَنَعَ صَاحِبَ الْحَقِّ مِنْ حَقِّهِ ، فَكَأَنَّهُ سَرَقَهُ مِنْهُ .

وَقَدْ سَلَكَ فُقَهَاءُ الْأَنْدَلُسِ هَذَا الْمَسْلَكَ ، لِأَنَّهُمْ فِي بِلَادِ قُرْبٍ
وَعُزَى ، فَتَشَدَّدُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ : لِأَنَّهُ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا^(١) .

لِذَلِكَ ، لَمَّا جَاءَ أَحَدُ خُلَفَائِهِمْ إِلَى الْمَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَقَالَ : لَقَدْ
حَلَفْتُ بِمِثْنٍ ، وَأَرَى أَنَّ أَكْثَرَ عَنْهُ فَأَفْتَاهُ بِأَنْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَقَالَ
أَحَدُهُمْ : لَقَدْ ضَيَّقْتُ وَأَسْعَأْتُ فَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لِلْكَفَّارَةِ أَيْضًا إِطْعَامَ عَشْرَةِ
مَسَاكِينَ أَوْ كَسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الْمَنْذَرُ قَائِلًا : أَوْ مِثْلُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُزَجَّرُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ أَوْ كَسْوَتِهِمْ ؟ إِنَّهُ يَفْعَلُ
ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ لَأَلْفٍ وَأَكْثَرَ ، وَإِنَّمَا يَزْجِرُهُ الصَّوْمُ ، وَهَكَذَا أَخَذُوا الْحُكْمَ
بِالرُّوحِ لَا بِالنَّصِّ : لِيَتَنَاسَبَ مَعَ مَقْدَرَةِ الْخَلِيفَةِ ، وَيُؤَكَّرَ فِي رَدِّهِ
وَزَجْرِهِ .

وَكَلِمَةُ (حَقٌّ) وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَعْنَيْنِ :

الْأَوَّلُ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ [النَّجَارِ]

وَالْحَقُّ الْمَعْلُومُ هُوَ الزَّكَاةُ .

(١) جَاءَ فِي كِتَابِ الْمُغْنَى لِأَبْنِ قُدَّامَةَ (٤٣٥/٢) فِي حُكْمِ مَنَاعِ الزَّكَاةِ : « إِنْ مَنَعَهَا مَعْتَقِدًا
وَجُوبَهَا وَقَدَّرَ الْإِمَامُ عَلَى اخْتِصَارِهَا مِنْهُ أَعْدَاهَا وَمَعَزَرَهُ وَلَمْ يَأْخُذْ بِزِيَادَةِ عَلَيْهَا فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ
الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَبِيفَةٌ وَمَسَالِكُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُمْ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قَلَّ مَالُهُ وَكَفَمَتْ حَتَّى
لَا يَأْخُذُ الْإِمَامُ زَكَاةً فَتُظْهِرُ عَلَيْهِ ، بِأَخْذِهَا وَشَطْرَ مَالِهِ » .

أما الحق الآخر فحق غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوع له بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفِرِّوْنَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عما فرضه الله علينا . ويجب على من يؤتي هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنَمًا لا مَقْرَمًا : لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضِعْفًا لك في المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غداً ، إن دارت عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجاهه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ في المجتمع ، وكذلك إن تركت أولادك في عوز وحاجة ، فالمجتمع مُتَكَفِّلٌ بهم .

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِن خَلْقِهِمُ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصُّون بها الفقراء الأباغء عنهم ،

وَيُعْطُونَ الْأَقْرَابَ مِنْ مَالِهِمْ الْخَاصَّ مُسَاعِدَةً وَإِحْسَانًا .

و (الْمُسْكِينِ) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّا السُّفِيَّةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ۖ ﴾ (٧٩) [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض فى تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطئ .

و ﴿ وَأَبْنُ السَّبِيلِ ۖ ﴾ (٢٦) [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإن كان منقطعاً فى الطريق وطرات عليه من الظروف ما أحوجهُ للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب بَسَارٍ وَغْنَى ، كَأَن يُضَيِّع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يُوَصِّلُهُ إلى بلده .

وأبن السبيل إذا طلب المساعدة لا تساله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله فى وضع مذلة أو حرج .

﴿ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٢٦) [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٤١) [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطى المحصول المزجج منه ، أما إن بذر البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام تجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهي كثيرة في مكان ، وقليلة في مكان آخر ، وهذا ما نُسَمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب ؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فيتعاق نموها .

لذلك ، فالحق سبحانه أثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال في غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلفاً اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء في غير ما يلزم ، في حين يمسك في الشيء الضروري .

إذن : التبذير : صَرَفُ المال في غير حِلِّه ، أو في غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهي عن التبذير هنا قد يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء ، يعني حينما تعطى حقَّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطى أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكركم فتزيد في عطاياك ، ثم بعد ذلك ويعد أن تخلصَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولمتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذَرُ في الأمور الأخرى ، فالنهي هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التي يُنفَقُ فيها المال في غير ضرورة^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيَاطِينُ لِرَبِّهِمْ كُفُورًا ﴾ (٢٧)

كلمة (اخ) تُجمع على إخوة و إخوان .

وإخوة : تدلّ على أخوة النسب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ
إِخْوَةَ يُوسُفَ .. ﴾ (٥٨) ﴿ [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما في قوله
تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ (١٠) ﴿ [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَأْخُذُ هَرُونَ .. ﴾ (٢٨) ﴿ [مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى - عليهما السلام - وبينهما زمن
طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أي
أخوة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً
كان أو شراً ، فقد تدلّ على الاجتماع في الخير ، كما في قوله

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٧٦/٥) : « من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر
الحاجات ، وعرضه بذلك للنفاق فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل
أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر ، ويحجب عليه في نفقته
الدَّهْرَم في الحرام ، ولا يحجب عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاق » .

تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع في الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الأنعام]

فكان المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة ، وودّ واحد ، وانتظمتها صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إِخْوَة) تدل على أخوة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أخوة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخوين من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوان : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدى إلا أفخر الثياب والبنها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مدلل مكة ، ثم بعد أن آمن تغير حاله وأثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم ^(١) ، وفي غزوة أحد رآه رسول الله ﷺ يرتدى جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيك » ^(٢) .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٧/١) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يشع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه . لقد رأيت بين أبيين يخنأته بإطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿٨٤٧٧﴾

فماذا حدث بين الاخوين المؤمن والكافر ؟ وأى الصلوات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لما دارت المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أسرهُ أحد المسلمين اسمه « أبو اليَسَر »^(١) فالتفت إليه . وقال : يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك ، فأَمَهُ غنية ، وسوف تغديه بمال كثير .

فنظر إليه « أبو عزيز »^(٢) وقال : يا مصعب ، اهزم وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخى دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ (١٥)

قوله : ﴿ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ .. ﴾ (٢٧) [الإسراء]

أى : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين فى صفة واحدة هى التبذير والإسراف ، فلئن كان المبدّر قد أسرف فى الإنفاق ووضع المال فى غير حله وفى غير ضرورة ، فإن الشيطان أسرف فى المعصية ، فلم يكتف بأن يكون عاصياً فى ذاته ، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزينها ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٢٧) [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كفر وعمل على تكفير غيره .

(١) اسمه : كعب بن عمرو الأنصارى السلمى ، شهد العقبة وبدراً ، وهو الذى أسر العباس ، قال العدائلى : كان قصيراً دحداً (سمياً) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٢١٨/٧) ترجمة رقم (١٢٤٢) فى الكنى] .

(٢) اسمه : زرارة بن عمرو ، له صحبة وسمع من النبى ﷺ ، اتفق أهل المغازى على أنه أسرى يوم بدر ، [الإصابة ١٣٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا

فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (٢٨)

ولنا أن نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن
الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل . والإعراض عن هؤلاء
لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله . بدليل قوله :
﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ..﴾ (٢٨) [الإسراء]

فإنه تعالى في ذهنك ، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله
ورزقه وسعته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا
إذن الغرض من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسالك حاجة .
وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أن تواجهه بالمتع ، وتستحي
منه ، فما يكون منك إلا أن تتوجه إلى ربك عز وجل وتطلب منه
ما يسد حاجتك وحاجة سائلك . وأن يجعل لك من هذا الموقف
مخرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنَّ عنهم خجلاً وحياءً أن تواجههم . وليس

(١) سبب نزول الآية : قال زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن
يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة الملق في فسله . فكان يعرض عنهم رغبة في الاجر في
منعهم ثللا يعينهم على فسادهم . ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٣٩٧٦) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٤٧﴾

عندك ما يسد حاجتهم ، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أن يرحمك
رحمة تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ﴾ (٢٨)

[الإسراء]

كما قال في موضع آخر في مثل هذا الموقف : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ
وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. ﴾ (٢٦٣)

[البقرة]

فحتى في حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ،
ولا يجرح مشاعر السائل ، وأن يردّه بلين ورفق ، وأن يظهر له
الحياء والضجل ، والأ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه
بأن جعله مستولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة في مثل هذا الموقف لا تكفي
فيها أن تقول : ما عندي ، فقد يتهمك السائل بالتعالي عليه ، أو بعدم
الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانية
والأريحية للنفس البشرية التي تسعو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيماني في قوله تعالى عن أصحاب الأعداء
في الجهاد : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (٩٦) [التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة^(١) الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

(١) قال محمد بن كعب القرظي : كانوا : سالم بن عوف ، حرمي بن عمرو ، عبد الرحمن بن
كعب أبو ليلى ، فضل الله من بني المطى ، عمرو بن عتبة ، عبد الله بن عمرو المزني .
جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليعدهم بالعدة والعتاد ليخرجوا في سبيل الله فقال لهم : ﴿ لَا أَجِدُ
مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴾ (٩٦) [التوبة] . فأنزل الله عذرهم في كتابه فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا
عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩٦) [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرفه ، فإذا برَسُولُ اللَّهِ ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَكَّلُوا وَأَعِينُهُمْ يَقْضَىٰ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴾ (٩٢) [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمى بأصحابه ، فإذا لم يقدرُوا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدرُوا على هذه أيضاً فسلا أقل من الانفعال العاطفي المعبر عن حقيقة الإيمان الذي يفيض دمع الحزن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢٩)

تحدث الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة عن المبدرين ، وحذرتنا من هذه الصفة ، وفي هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة .

فقرله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (٢٩) [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم في المنح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندي ، وله على أيادٍ لا تُعد ، أى : أن نعمه على كثيرة : لأنها عادة تؤدي باليد ، فقال : لا تجعل يدك التي بها العطاء (مغلولة) أى : مربوطة

سُورَةُ الْاِشْرَاقِ

﴿٨٤﴾ ٨٤٨١

إلى عنقك ، وحين تُقْنِدَ اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ۖ﴾ (٦٩) [الإسراء]

فالنهي هنا عن كل البَسْط ، إذن : فَيُبَاح بعض البَسْط ، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بَذَرَ ومعنى بَذَّرَ الذي سبق الحديث عنه .

فبَذَّرَ : أخذ حفنة من الحب ، وبَسَطَ بها يده مرة واحدة ، فأحدثت كومة من النبات الذي يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهى عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة في عملية البَذْرِ فيأخذ حفنة الحب ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذي يسمح بتقلت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَّرَ] .

وهذا هو حد الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقد أتى هذا المعنى أيضاً في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧) ﴿

[الفرقان]

أى : اعتدال وتوسط .

إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتتفوق كل ما لديك ، ولكن بعض البَسْط الذى يُبْقَى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أن ترتقى بحياتك .

وقد سبق أن أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق ،
وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة ، ويُسهِم في إنمائها
ورُقْيَها ، على خلاف القُبْض والإمساك ، فإنه يُعرقِل حركة الحياة ،
ويُنتِج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ،
ويعوق حركتها .

إذن : لا بُدَّ من الإنفاق لكي تساهم في سير عجلة الحياة ، ولا بُدَّ
أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبْقَى على شيء من دُخْلِكَ ، تستطيع أن
ترتقي به ، وترفع من مستواك المادى في دنيا الناس .

فالمبذر والمُسْرِف تجده في مكانه ، لا يتقدم في الحياة خطوة
واحدة ، كيف وهو لا يُبْقَى على شيء ؟ وبهذا الترجيح الإلهي الحكيم
نضمن سلامة الحركة في الحياة ، ونُوَفِّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء
الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿ فَتَقَعُدَ مَلُومًا
مُخْشَوْرًا ﴾ (٢٩) ﴿ [الإسراء]

وسبق أن أوضحنا أن وضعَ القعود يدل على عدم القدرة على
القيام ومواجهة الحياة ، وهو وضع يناسب من أسرف حتى لم يعد
لديه شيء .

وكلمة ﴿ فَتَقَعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة : لأن حركة الحياة
تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَعْرِى
الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ . ﴾ (٩٥) ﴿ [النساء]

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٤٨٣

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : اتى بفعل يَلَامُ عليه ، وَيُؤَنَّبُ من أجله ، وأول مَنْ يَلُومُ المفسرف أولاده وأهلك ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما ملُوم لتصرفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صرّت فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بغير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المفسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإن قبضت كل القبض فانت ملُوم ، وإن بسطت كل البسط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تقوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عقباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً جاسماً وسطاً ينظم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابسط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سير عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تبقى من دخلك على شيء لتحقيق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفذ ، وهو القائل : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو اعطى سبحانه جميع خلقه كل ما يريدون ما نقص ذلك من ملكه سبحانه ، كما قال في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو ان اولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وانسكم وجنكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كل مسألته فاعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي الا كهفز ابرة احدهم اذا غمسه في البحر ، ذلك اني جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذاي كلام ، انما امرى لشيء اذا اردته ان اقول له كن فيكون » ^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اِنَّهٗ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ ٢٠ ﴾

الله الذي لا تنفذ خزائنه يعطي خلقه بقدر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، ولا يقبضه عنهم كل القبض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة : لانه سبحانه لو بسط الرزق ووسعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

انما حركة الحياة تتطلب أن يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي زر رضي الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥ ، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٤٨﴾

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمَعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخلق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة في مجال ، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبر به على الناس يُحَوِّجُه الله لأقل المهن التي يستتكف أن يصنعها ، ولا بُدَّ له منها لكي يزاوِل حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أن يتفضل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فلذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فواء ذلك حكمة الله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسم له في الحالتين ، وأن يسير في حركة حياته سيراً يناسب ما قدره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ . (٧) ﴾ [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّقَ عليه الرزق فلينفق على قدره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة في الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ؛ لأن الذي يتعبد الناس في الحياة ويشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّقَ عليه في الرزق يريد أن

يَعِيشُ عَيْشَةَ الْمَوْسِعِ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ عَلَيْهِ .

فلو تصورنا مثلاً زميلين في عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :
الاول : غنى وفى سعة من العيش قد يأخذ من أبيه فرق راتبه .
والآخر : فقير ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما ، فعلى الفقير ألا ينظر إلى وضعه
الوظيفي ، بل إلى وضعه ومستواه المادى ، فيشتري بما يتناسب
معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله : لأن لكل منهما قدرة وإمكانية
يجب ألا يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرف الإيمانى المعتز :
لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمَهُ له ويعيش فى نطاقه
غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدرى فيك
فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويوسع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهِدٌ لنا فى الحياة ، والامثلة عليه واضحة ، فكم من
أناس كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمَهُ الله ارتقت
حياتهم وتبدل حالهم إلى سعة وترَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر : لأنه سبحانه يريد
أن يضع الإنسان نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الارض ، ولا ينسى
هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخبرة كل الخبرة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله فى الارض ،
ويسير فى حركة الحياة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

سُورَةُ الْاِنشِرَاقِ

﴿٨٤٨٧﴾

لمن استخلفك ، مَعْدُودٌ مَعْنُ اَمَدُكَ ، فَمَا يَاكَ اَنْ تَفِيْتَرَ ، وَاِيَاكَ اَنْ تَعِيْشَ
فِي مَسْتَوًى فَوْقَ الْمَسْتَوًى الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَكَ .

فَإِنْ اَعْتَبِرْتَ نَفْسَكَ اَصِيْلًا ضَلَّ الْكُوْنُ كُلَّهُ : لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ
الدُّنْيَا اَغْيَارًا وَجَعَلَهَا دُوْلًا ، فَالَّذِي وُسَّعَ عَلَيْهِ الْيَوْمُ قَدْ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ
غَدًا ، وَالَّذِي ضَيَّقَ عَلَيْهِ الْيَوْمُ قَدْ يُوَسِّعُ عَلَيْهِ غَدًا .

وَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِهِ لِيَدْرَكَ فِي الْإِنْسَانِ غُرُورُ
الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ اللهِ .

فَلَوْ مَتَّعَ اللهُ الْإِنْسَانَ بِالْغِنَى دَائِمًا لَمَا اسْتَمْتَعَ الْكُوْنُ بِلَذَّةٍ : يَا رَبِّ
ارْزُقْنِي ، وَلَوْ مَتَّعَهُ بِالصَّحَّةِ دَائِمًا لَمَا اسْتَمْتَعَ الْكُوْنُ بِلَذَّةٍ : يَا رَبِّ
اشْفِنِي . لِذَلِكَ يَظَلُّ الْإِنْسَانُ مُوَصَّوْلًا بِالْمَنْعَمِ سَبْحَاتِهِ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ
دَاعِيًا إِيَّاهُ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّغِي (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق]

فَالْحَاجَةُ هِيَ الَّتِي تَرْبِطُ الْإِنْسَانَ بِرَبِّهِ ، وَتُوصِلُهُ بِهِ سَبْحَاتِهِ .

فَالْبَسْطُ وَالتَّضْيِيقُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَهُ حِكْمَةٌ ، فَلَا يَبْسُطُ لَهُمُ الرِّزْقَ
كُلَّ الْبَسْطِ ، فَيُعْطِيهِمْ كُلُّ مَا يَرِيدُونَ ، وَلَا يَقْبِضُ عَنْهُمْ كُلَّ الْقَبْضِ
فَيَحْرِمُهُمْ وَيُرِيهِمْ مَا يَكْرَهُونَ ، بَلْ يُعْطَى بِحِسَابٍ وَبِقَدَرٍ : لِنَسْتَقِيمَ
حَرَكَةِ الْحَيَاةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ .. (٢٧)﴾ [الشورى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)﴾ [الإسراء]

لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَاتُهُ لَوْ لَمْ يُوزَّعِ الرِّزْقُ هَذَا التَّوْزِيعَ الْحَكِيمَ لَاخْتَلَّ
مِيزَانُ الْعَالَمِ ، فَمَنْ بَسَطَ لَهُ يَسْتَغْنَى عَنْ غَيْرِهِ فَيَمَّا بَسَطَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ

ضَيَّقَ عَلَيْهِ يَتَمَرَّدُ عَلَى الْكَوْنِ وَيَحْقِدُ عَلَى النَّاسِ ، وَيَحْسُدُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ .
إِنَّمَا إِذَا عَلِمَ الْجَمِيعُ أَنَّ هَذَا بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فَسَوْفَ يَظَلُّ الْكَوْنُ
الْمَخْلُوقُ مُوَصُولًا بِالْمُكُونِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ .

وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. ﴾ (٣١) [الإسراء]

مُلِمَحٌ لَطِيفٌ : أَيُّ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ
يَسَّطَ لَكَ حَتَّى صُرْتَ تَعْطَى عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ ، وَقَبِضَ عَنْكَ
حَتَّى تَرْتَبُطَ الْحَجَرُ عَلَى بَطْنِكَ مِنَ الْجُوعِ ^(١) .

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ﷺ فَلَا يَسْتَنْكَفُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الرِّزْقَ ، وَمَنْ مَنَّا رَتَّبَ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ ؟!

وَبَعْدَ أَنْ حَدَّثَنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْحَيَاةِ وَهُوَ
الْعَمَلُ ، وَرَسَمَ لَنَا الْمَنْهَجَ الَّذِي تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ بِهِ وَيَسِيرُ الْإِنْسَانُ بِهِ
سَيْرًا يُحَقِّقُ لَهُ الْعَيْشَ الْكَرِيمَ وَالْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ ، وَيُضْمِنُ لَهُ الْارْتِقَاءَاتِ
وَالطَّمُوحَاتِ الَّتِي يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا .

أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُحَدِّثَنَا عَنِ الصِّيَاةِ فِي أَصْلِهَا ، فَأَمَرَ بِاسْتِبْقَاءِ
النَّسْلِ ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِهِ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَنَّ نَرْزُقْهُمْ وَإِيَّاكُمْ ^(٢)

إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً ﴾ (٣١)

(١) وَقَدْ كَانَ هَذَا دَابَّ بَعْضِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مِثْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ (الْبُخَارِيُّ ٦٤٥٢) ،

وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ (أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٤٤/٢) .

(٢) الْإِمْلَاقُ : الْفَقْرُ . وَالْإِمْلَاقُ : كَثْرَةُ انْفِاقِ الْمَالِ وَتَبْذِيرُهُ حَتَّى يَبُورَ حَاجَةٌ . وَالْمَعْلَقُ : الَّذِي لَا شَرَّ لَهُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - فَائِدَةٌ : مَلَقَ] .

وواضح الصلة بين هذه الآية وسابقتها : لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أن تُدخلوا مسألة الرزق في حسابكم : لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفل برزق الجميع ، فإياك أن تستعدي اختصاصك ، وتدخل أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ﴾ (٢١) [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فرق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنقض البنية : لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنساناً إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهى حياته ، لكن تنتهى بنقض البنية التى بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارتقت الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقض بنيته بعد ذلك . وتتلّف أعضاؤه ، فالموت يتم فى سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلعبة الكهرباء التي لا تُتَصَّىء ، إلا إذا توافرت لها مواصفات خاصة : من مُولِّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصِّل ولعبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللعبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضت شيئاً أساسياً في عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّبَ واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضت عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح في جسده بدونها .

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت - ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد - لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبي ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو مُلْكٌ لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلام الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟

إذن : المنهى عنه في الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بنية إنسان آخر وهدم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلَادُكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنبياء]

الأولاد تُطلق على الذكر والأنثى ، ولكن المشهور في استقصاء

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

﴿٨٤٩﴾

التاريخ أنهم كانوا يثدّون البنات خاصة دون الذكور ، وفي القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير]

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عونًا وعُدَّةً في مُعْتَرَك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يرون فيهم العزوة والامتداد ، في حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة في ظل الفقر والعوز والصاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غنى إلى شيء من المكروه في عرضها ، وبهذا الفهم يزول المعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

أى : خوفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من ملق وتملق ، وكلها تعود إلى الانتقار : لأن الإنسان لا يتملق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملقه لياخذ منه حاجته^(١) .

وقوله : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

وفي هذه الآية مكمح لطيف يجب التنبه إليه وفهمه لنتمكن من الرد على أعداء القرآن الذين يتهمون بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

(١) من معاني الملق : الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي ، ورجل ملق : يعطى بلسانه ما ليس في قلبه ، وفي الحديث : • ليس من خلق المؤمن الملق • . [لسان العرب - مادة : ملق] . وقد أورده المعنى الهندى في كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعزاه لابن عدى في الكامل والبيهقى في الشعب عن معاذ وانظر الفردوس بمأثور الخطاب للنيلى (٥٦٥٨) .

أى : خَوْفًا من الفقر ، فالفقر - إذن - لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُحْتَمَل الحدوث فى مستقبل الأيام ، فالرزق موجود وميسور ، فالذى يقتل أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ .. ﴾ (٣٦) [الإسراء]

أولاً : لأن المولود يُؤَلَد ويُولَد معه رزقه ، فلا تتشغلوا بهذه المسألة ؛ لأنها ليست من اختصاصكم .

ثم : ﴿ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣٦) [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقَدَّم على رِزْقكم انتم ، ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه : لا تقتلوا أولادكم خَوْفًا من الفقر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتم بتوضيح هذه المسألة ؛ لأن أعداء الدين الذين يُنْقِبُونَ فى القرآن عن مأخذ يروُنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التى معنا وبين آية أخرى تقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِسْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١) [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملكة العربية فى فهمه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج فى فهمه وتدبره إلى ذوق وحس لغوى .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالا سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً ولا تكراراً ، فليست الأولى أبلغَ من الثانية ، ولا الثانية أبلغَ من الأولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإن تشابهتا فى

النظرة العَجَلَى لكنَّ بينهما فَرْقٌ فى المعنى كبير ، فَأَيَّةُ الْاِسْرَاءِ تقول :
﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١)

[الاسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .

اما فى آية الانعام : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١)

[الانعام]

فلا بُدَّ ان نلاحظ ان للآية صدرًا وَعَجَزًا ، ولا يصح ان تفهم
أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ ان تجمع فى فهم الآية بين صدرها
وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجَزَى الْآيَتَيْنِ ، وأغفلوا
صَدْرِيَهُمَا ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما
ذهبوا إليه ، ولكنَّ صَدْرَى الْآيَتَيْنِ مختلفان :

الاولى : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. ﴾ (٣١)

[الاسراء]

والاخرى : ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ .. ﴾ (١٥١)

[الانعام]

والفرق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود ؛ لان
الخشية من الشيء دليل انه لم يحدث ، ولكنه مُتَوَقَّع فى المستقبل ،
وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

اما التعبير الثانى : ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ .. ﴾ (١٥١)

[الانعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو
لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أن يُقَدَّمَ الْآبَاءُ فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْرُ مختلفاً ، فلا بُدَّ ان يختلف الْعَجَزُ ، فأَيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبِلَ بالجمع تقتضي القسمة أحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتُبَكُمْ . والمقصود أن يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإن قال قائل : إن الآية تنهى أن يقتل الأب ولده خوفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أن يقتل الأب ولد غيره مجاملة له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنى الآية ألا يقتل كل الآباء كل الاولاد ، فينسحب المعنى على اولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قلنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم : لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ قُلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً (٣١)﴾ [الإسراء]

خِطَاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذُوا حَذْرَكُمْ ، وَخُذُوا حَذْرَكُمْ .

وكلمة : ﴿خِطَاً .. (٣١)﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفت الصواب ، ولكنك تجاوزته .

فالمعلم حينما يُصَوِّبُ للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصَوِّبُ له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلم تلميذه القاعدة التي يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ .

وهنا لا مانع أن نُصَوِّبَ له خَطَأَهُ ونُرشده ؛ لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إن كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام ، فالمعلم يبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التي تُحسب على التلميذ ، وتنتهي المسألة بالنجاح لمن أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلزمة ، عليه أن يسير عليها .

وكلمة (خَطُئاً أو خطأ) مأخوذة من خطأ خطوة^(١) ، وتعني الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استقرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزته وانتقلت عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أي : الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ..﴾ (١٦٨) [البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله .

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطأ فهو فعل معتل الآخر بالف حقلبة

عن وار . ولذلك يأتي المضارع من الأول (يخطئ) - أما الثاني فيأتي (يخطو) .

(٢) قال الأزهري في المعقل في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ..﴾ (١٦٨) [البقرة] :

قرأ بعضهم خطوات الشيطان من الخطيئة : المأثم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من

قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب - مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرمه ليكون خليفة له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدثه من قتل الأولاد ، وهم بذور الحياة في المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أولادكم) المراد بها البنون دون البنات ، وسَلَّمنا معه جدلاً أنك تُعيت البنات ، وتُبقى على الذكور ، فما الحال إذا كَبُر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟ وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟

إذن : هذا فِهم لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خَطَاً كَبِيراً ﴾ (٣١) [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعددة :

أولها : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض منك ، وقتله يُجردك من كل معاني الأبوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

سورة الانعام

﴿٨٤٩﴾

خلافة الإنسان لله في أرضه ، بأن نهى كل والد أن يقتل ولده ، ونهى كل الآباء أن يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً

وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله في الأرض ، أراد سبحانه أن يحمي هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منا حينما يرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً ، ويؤثره على نفسه ، ويخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده ، ويسعى جاهداً ليوفر له رفاهية العيش ، ويؤمن له المستقبل المرغى ، وصدق الشاعر حين قال :

إنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عيني عن الغمض

لكن هذا النظام التكافلي الذي جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دبّ الشك إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه ، فتنحول حياته إلى جحيم لا يطاق ، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طعن في ذاته هو .

لذلك يحذرننا الحق - تبارك وتعالى - من هذه الجريمة النكراء :

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ،
فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل
راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَىٰ .. ﴾ (٣٢)

والمعامل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يكلمنا
عن الاوامر يذيل الامر بقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا .. ﴾
(٢٢٩)

والحديث هنا عن احكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه
حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكانه سبحانه أوصلنا إلى
هذا الحد ، والممنوع أن نتعدها .

وأما في النواهي ، فيذيلها بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا .. ﴾
(١٨٧)

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكان الحق
سبحانه يريد ألا نصل إلى الحد المعنى عنه ، وأن يكون بيننا وبينه
مسافة ، فقال ﴿ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ لننظر على بُعد من النواهي ، وهذا
احتياط واجب حتى لا تقترب من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبي ﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع
فيه » (١)

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى
يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » متفق عليه .
أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) . ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث التميمي
ابن بشير .

سورة الأشرار

٨٤٩٩

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أن يقترب من المحذور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفرق بين الفعل وقربان الفعل ، فالمحرم المحذور هنا هو الفعل نفسه ، فلماذا إذن حرم الله الاقتراب ايضاً ، وحذر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أن يرحم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإن حُمت حولها توشك أن تقع فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلم لك .

وحيثما تكلم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيت به وردة جميلة ، فلحظة أن نظرت إليها هذا يُسمى « الإدراك » ؛ لأنك أدركت وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حبها فهذا يسمى « الوجدان » أي : الانفعال الداخلي لما رأيت ، فإذا حددت يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أي : عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكم الشرع ؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة ، مسألة الغريزة الجنسية . فلا يمكن فيها فصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهي

مراحل ملتحة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفصل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإِنَّ هذه الرؤية سرعان ما تولد إعجاباً وسيلاً ، ثم عِشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أَنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذى نخافه ، وهنا إما أَنْ ينزِعَ ويُلْبِى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أَنْ يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقِهِ ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يُحَرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدى إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَهْجُؤْا^(١) مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ (٢٠) [النور]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أَنْ تَقْضَ بصرَكَ عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيفش الإنسان نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سئل ادعى البراءة وحسن الخية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم فى هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

(١) غَضَ بَصَرَهُ : خَفَضَهُ ولم يرفعه ولم يحدِّقَ فيما أمامه ، أو كَفَّ بَصَرَهُ ولم ينظره . [القاموس القويم ٥٦/٢] .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿٨٥﴾

وَأَعْلَمَ بِحَالِهِ ، وَمَا أَمْرُهُ بِغَضْرٍ بَصَرُهُ إِلَّا لَمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ مَفَاسِدٍ وَمُضَارٍ ، إِمَّا تَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ ، أَوْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ .

لِذَلِكَ قَالَ ﷺ : « النَّظَرَةُ بِسَهْمٍ مَسْمُومٍ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيْمَانًا بِجِدِّ حَلَاوَتِهِ فِي قَلْبِهِ » ^(١) .

وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ مَرَادَهُ سَبِيحَاتِهِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَى ..

[الْإِسْرَاءُ]

﴿٣٢﴾

وَلَمْ يَقُلْ : لَا تَزْنُوا . لِأَنَّ لِهَذِهِ الْجَرِيْعَةَ مَقْدِمَاتٌ تُوْدِي إِلَىهَا ، فَاحْذَرِ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ حَاطَ حَوْلَ الْحَمَى يَوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، وَدَعَاكَ مَعْنً يُنَادُونَ بِالِاخْتِلَاطِ وَالِإِبَاحِيَةِ ؛ لِأَنَّ الْبَاطِلَ مَهْمَا عَلَا وَمَهْمَا كَثُرَ اتِّبَاعُهُ قَلَنْ يَكُونُ حَقًّا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .

وَاحْذَرِ مَا يَشِيْعُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ هِيَ بِنْتُ عَمِّهِ ، وَهُوَ ابْنُ خَالَتِهَا ، وَهُمَا تَرْبِيًّا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْمَقُولَاتِ السَّاطِلَةِ الَّتِي لَا تُغَيِّرُ مِنْ وَجْهِ الْحَرَامِ شَيْئًا ، فَطَالَمَا أَنَّ الْفِتَاةَ تَحُلُّ لَكَ فَلَا يَجُوزُ لَكَ الْخُلُوعُ بِهَا .

وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ : « لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا » ^(٢) .

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٣١٤/٤) مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يَخْرُجْ . قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي تَلْخِيصِهِ : « إِسْحَاقُ وَاهٍ » . وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي الرَّوَاسِطِ خُفِّفَهُ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (١١٤/١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالِ الْحَاكِمُ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (١١٧١) وَأَخْرَجَهُ مُوَصَّوْلًا مَرْفُوعًا (٢١٦٥) . وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ .

إذن : ما حُرِّمَ الإسلامُ النظرَ لمجردِ النظرِ ، وما حُرِّمَ الخلوةُ في ذاتها ولكن حُرِّمَها : لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَى .. ﴾ (٣٢) [الإسراء] أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩٠) [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيهما أبلغ وأشدَّ في التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهَى عن الشُّرْبِ فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعني : البعد عنها كلياً ، وعدم الالتقاء بها في أى مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب - إذن - أشدَّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا .. ﴾ (١٧) [الزمر]

فهل نقول في هذه : إن الاجتناب أقل من التحريم ؟ وهل عبادة الطَّاغُوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴾ (٣٢) [الإسراء]

الفاحشة : هي الشيء الذي اشتدَّ قبحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة : لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والانثى ، وقَدَّرَ أن يكون منهما التناسل والتكاثر قَدَّرَ لهما أصولاً يلتقيان عليهما ، ومظلة لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيا مَنْ يأتيا : ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمي طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القران الذي يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهَبْ أَنْ لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شك أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضتَ لهذا الشاب ، وأقمتَ الدنيا ولم تُقعدُها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترحاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذي حدث ؟ وما الذي تغيَّر ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : • جدع الحلال أنف الغيرة • .

فالذي يغارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة : زوجتك . ويقول الزوج : وانا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب برِّداً وسلاماً ، وتُحدث فيها انبساطاً وانسراحاً : لان لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتى للإنسان . ولها أثر في انسجام ذراته . وفى كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التى يلتقى عليها الزوجان ، أنها تُحدث سيالاً بينهما ، هو سيال الاستقبال الحسن ، وعدم الضجر ، وعدم الغيرة والشراسة . فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عدة المتوفى عنها زوجها ، وفى هذا الاختلاف حكمة : لان الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يؤثر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحيضة واحدة . إنما الأمر أبعد من ذلك . فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق : لان سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودت المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقت المرأة فلا يحلُّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التى حددها الشرع بثلاثة أشهر^(١) . وهى العدة التى يهدأ فيها سيال الحلال فى نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزواج آخر .

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة . وهى المدة التى يصح للزوج المطلق أن يراجع زوجته خلالها . وهى أيضاً العدة التى إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر . قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَفَعْنَ بِالْأَنفُسِ ثَلَاثَ أَشْهُرٍ ۚ ﴾ [البقرة] . أى : ثلاث حيضات .

أما في حالة المتوفى عنها زوجها فحدثها أربعة أشهر وعشرة^(١) ،
والحكمة من الفارق بين السعدتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين
الزوجين كُرْهٌ ، هذا الكُرْهُ بينهما يساعد على موت السيال ؛ لأنها
بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفى عنها زوجها فقد
فارقها دون كُرْهٍ ، فرغبتها فيه أشد ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول
للتخلص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعى طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف
الميل والرغبة في زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميل وهذه الرغبة
تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة . وتستعد نفسياً
للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجه مسألة لا يحدث الانسجام
فيها بالتكوين العقلي ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفي الغريزي
الذي يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذي يُولد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث
التوافق ، ويحدث الحب والعشق الذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله .
وهذا - كما قلنا - أثر من آثار كلمة الله التي اجتمعا عليها وتحت
ظلها .

وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسى ، ويسكن كل منهما
للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتكلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع .

(١) أما عدة الأرملة التي مات زوجها ، فيقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْفَعُونَ صَوْتَكُمْ وَيَبْذُرُونَ أَرْوَاجًا يَبْرِئُكُمْ
بِأَنفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَالُوا فِي أُنْفُسِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ .. ﴾ (٢٢٥)

وصدق رسول الله ﷺ حين قال في وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »^(١)

وهذه الكلمة من الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه ، ولك أن تتصور الحال إن تم هذا اللقاء فيما حرم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تناقض الذرات وعدم انسجام ونكد ومرارة لا تنتهي ، ما بقيت فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمأه القرآن فاحشة ، والدليل على فحشه أن الموصوم به يحب ألا يعرف ، وإن تظل جرائمه خلصة من المجتمع ، وأن الذي يقتوف هذه الفاحشة يكره أن تفعل في مجارمه ، ويكفيها فحشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتمكي ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله أئذن لي في الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حسب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى فى جواب رسول الله ﷺ ، وقد سئل كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لاحدهم : « الصلاة لوقتها »^(٢) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله عن حديث طويل وفيه : « فأتوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) من عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

سورة الانشراح

٨٥٠٧

وقال لآخر : « أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بَوْجَه طَلْق »^(١)

وقال لآخر : « أَنْ تَبْرُ أَخَاكَ » .

وهكذا تعددت الإجابات ، لأن النبي ﷺ لا يصف مريضاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطى لكل سائل الجرعة التي تُصلح خللاً في إيمانه ، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التجاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذي جاءه يقول : يا رسول الله إننى أصلى وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أننى لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب في وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإن تكبرت عليه استعصم واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه ؛ لأن ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً في نفسه ، وانظر كيف عالجه النبي ﷺ :

(١) عن أبي زر رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ : « لا تصقون من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٥) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أتحب هذا لامك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغير وجهه وقال : لا يا رسول الله جعلتُ فداك . فقال : « أتحب لاختك ؟ أتحب لزوجتك ؟ أتحب لبناتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جعلتُ فداك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم ولا لآخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : « اللهم ثق صدره ، وحسن فرجه »^(١) .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكره عندي من الزنا ، والله ما هممتُ بشيء من ذلك إلا وذكرتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرًا لا يستسيغه المريض غلّفوه بمادة سكرية حتى يمرّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التي يمرّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله في خلق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلقات دقيقة يختص كل منها بتذوق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحريف ، وهكذا ، مع أنها مترابطة وملتصقة ببعضها ببعض .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٥ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/١٩٠ ،

٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر

ذنبه ، وظهر قلبه ، وحسن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسى المر ، كذلك يحدث فى العلاجات الادبية المعنوية ، فيُغلف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعبروا له خفة البيان :

وقالوا : الحقائق مُرة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعى حال المنصوح ، وأن يرفق به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما ألف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوى الذى يجب أن نسير عليه فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ ﴾ [النحل ١٢٥] .

ومن ادب النصيحة ايضاً الذى تعلّمناه من النبي ﷺ أن تكون سرّاً ، فليس من مصلحة أحد أن تُذاع الاسرار ؛ لان لها أثراً سلبياً فى حياة المجتمع كله وفى المنصوح نفسه ، فإن سترت عليه فى نصيحتك له كان ادعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نصَح أَخَاهُ سِرّاً فَقَدْ سَتَرَهُ وَزَانَهُ ، وَمَنْ نصَحَهُ جَهْراً فَقَدْ فضحه وشكَّاهُ^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الاسراء ٢١]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُستخلفون فى الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعى فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضلَّ الإنسان وانحرف عمّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أن يُسعدنا .

واعتقد أن ما تشاعده الآن فى بيئات الانحلال والانحراف ،

(١) الشين : السبب . والمشايين : المعاييب والمطايح . [لسان العرب - مادة : شين] .

وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفريع والرعب يجعلنا نؤمن بأن
الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضى على سلامة
المجتمع وأمنه وسعادته .

ويكفى أنك إذا خرجت من بيتك في مهمة تستلزم العبث تأخذ
جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذي
يطاردك في كل مكان ، في الحجرة التي تدخلها ، وفي السرير الذي
تنام عليه ، وفي دورة المياه التي تستعملها ، الجميع في رُعب وفي
هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم ، وأصبح لا يسلم منه
حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجة لخروج الإنسان عن منهج الله
خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابط لها ، فأحدث الله لهم من
الأمراض والبلايا بقدر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتوا
بالحسنى فليأتوا راغمين مُفْرَعِينَ .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفة وطهارة ، لا عن إيمان
بشرع الله ، ولكن عن خَوْفٍ وهَلَجٍ من أمراض شتى لا ترحم ،
ولا تُفَرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وما هي الأحداث والوقائع تثبت
صِدْقَ هذه الآية ، وتثبت أن أي خروج من الخلق عن منهج الخالق لن
يكون وراءه إلا نكد الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة .

والآن وقد ضُمَّت سلامة الاعراض ، وضُمَّت طهارة النسل ،
وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأمن فيه الإنسان على هذا

الجانب ، فلا بدّ إذن أن نحافظ فيه على الارواح ، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء]

كان القياس أن يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التي حرّم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قتل النفس الواحدة مسئولية الجميع ، لا أن يسأل القاتل عن النفس التي قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] أى : جعلها محرمة لا يجوز التعدى عليها ؛ لأنها ببيان الله وخلقته وصناعته ، وبيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : ﴿ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] أى : حرّم الله قتلها .

﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] وهذا استثناء من الحكم السابق الذى قال : لا تقتلوا النفس التى حرّم الله ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

- القصاص من القاتل .

- الردة عن الإسلام .

- زِنَا الْمُحْصَنِ أَوْ الْمُحْصَنَةِ^(١) .

وهذه أسباب ثلاثة تُرْجَب قَتْلُ الْإِنْسَانِ ، والقَتْلُ هنا يكون بالحق
أى : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَجَّةً كبيرة حول هذه الحدود وغيرها ،
واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى
وانسانية الإنسان وأدميته ، وتتعارض مع الحرية الدينية التى يقول
بها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (١٥٦) [البقرة]
ففى القصاص قالوا : لقد خَسِرَ المجتمع واحداً بالقتل ، فكيف
تُزِيد من خسارته بقتل الآخر ؟

نقول : لا بُدَّ أن نستقبل أحكام الله بفهمٍ وَاَحٍ ونظرة متاملة ،
فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألا يقع
القتل ، وألاً تحدث هذه الجريمة من البداية .

فحين يُخْبِرُكَ الْحَقُّ سِيحَانَهُ أَنَّكَ إِن قَتَلْتَ فَسَوْفَ تُقْتَلُ ، فهو
يحمى حياتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ،
حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها مَنْ قَتَلَ ،
لأنه ربما خدش عِزُّهُ أَوْ كَرَامَتُهُ ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شك أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول له : إِن قَتَلْتَ
سَتُقْتَلَ ، فنحن نمنعه أن يُقَدِّم على هذه الجريمة ، ونُلَوِّح له بأقصى
ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ .

(١) أحسن الرجل وأحصنت المرأة : تزوجا ، وكان الزواج حصن يحمى المتزوج من الوقوع
فى الشهوات فهو مُحْصَنٌ . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٩)

[البقرة]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظن البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحقن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظة استقبال لأحكام الله : لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حمى غيرى من قتلٍ له حماني أيضاً من قتلٍ غيرى لي ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وكذلك في السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك ، والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد : لأنها تُقيد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيد من أجله حرية المجتمع كله .

وفي الزكاة ، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أن تُخرج قدراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تقل : هذا مالي جمعتُه بجهدِي وعرقِي . ونقول لك : نعم هو مالك ، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُولٌ وأغيار ، والغنى اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويكيل لك بنفس الكيل الذي كُنتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وعى في استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ،

وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ منها فهي أحكام عادلة .

وحكم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أن يقدم على القتل . فإن غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بد أن يقتصر منه ؛ فإن أخذتنا الشهامة وتشددنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكن معلوماً لدينا أن من يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكل من اختلف مع إنسان سارع إلى قتله ؛ لأنه لا يوجد رادع يردعه عن القتل .

إذن : لكي نمنع القتل لابد أن ننفذ حكم الله ونقيم شرعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلت لتكون كلاماً يتلى فقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً ينظم حياتنا ، ويحمي سلامة مجتمعنا .

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مرأى ومسَّمع المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل هي تطبق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) [النور]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حدِّ الرِّدَّة ، ورأوا فيه وحشية وكِبْناً للحرية الدينية التي كفلها الإسلام في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حدَّ الرِّدَّة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يصعب على غير المسلمين الدخول في الإسلام ، وأن يضيق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل في الإسلام إلا من أخلص

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٥١٥

له . واطمأن قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً انه إن تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحَسَّبُ للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً . وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقَدِّم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولاً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أن تظل على دينك كما تحب ، فإن أردت الإسلام فتفكر جيداً وتدبر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس في دين الله مجالٌ للتجربة ، إن أعجبك تظل في ساحته ، وإن لم يروقْ لك تخرج منه ، فإن علمت هذه الشروط فليس لك أن تعترض على حد الردة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعز وأكرم من أن يستجدي أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا حكم نفى ، المفروض ألا يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُومًا ﴾ أى : قُتِلَ دون سبب من الاسباب الثلاثة السابقة أى : دون حق ، فعلى فرض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِرُؤُوسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ..

(٣٢) ﴾ [الإسراء]

وليه : أى وليّ المقتول ، وهو مَنْ يتولى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم .. الخ فهو الذى يتولى أمر المطالبة بدمه .

﴿سُلْطَانًا .. (٣٢)﴾ [الإسراء] أى : شرعنا له ، وأعطيناه الحق والقوة فى أن يقتل القاتل ، والسلطان يكون فى خدمة التنفيذ ، ويُمكنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه فى تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه فى ذات النفس ، لكن إنْ ضَعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتى دور السلطان ودور المجتمع الإيماني الذى يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لولى الدم ، فإن لم يكن له ولى فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعب الدنيا - حينما ينتقل حق القصاص إلى الحاكم العام - طول الإجراءات التى تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذكي نار الحقد والغِلِّ والثَّرة فى نفس ولى الدم .

فسولى الدم وحده الذى يُعانى طول فترة التقاضى مع أناس لا يعينهم أن تطول هذه الفترة أو تقصر : لأن طول فترة التقاضى تأتى فى صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام - بل والسنين - تبرد شراسة الجريمة فى نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيأت النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسى بشاعتها ، وبدل أن يقف المجتمع ويفكر فى القاتل وفى القصاص منه ، تتحول الانتظار والعواطف إلى النفس الجديدة التى ستُقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا فى إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أن يُقام القصاص قبل أن تبرد شراسة الجريمة فى النفوس ، وتبهت وتفقد حرارتها .

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله في يد وليّ الدم ، أراد في الوقت نفسه ألا يحرم المجتمع من طموحات العفو الذي يُنهي أصول الخلاف ، فيقول تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففي جَوِّ القتل وثورة الدماء التي تغلّى بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولولئى الدم بعد أن أعطيناه حَقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية^(١) وتنتهى المسألة ، وله أن يعفو عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فأعطاء الحق مَتَعٍ عن المقتول له ذَلَّةُ التسلُّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حَقَّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علم القاتل أن حياته أصبحت هبة من وليّ الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، وتنتهى تسلسل الثارات الذى لا ينتهى .

وقد اشتهر في صعيد مصر - وكان مثالا للأخذ بالثأر - أن القاتل يأخذ كفه في يده ، ويذهب به إلى وليّ الدم ويُسلم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولى الدم جزية التصرف فيه . فما يكون من وليّ الدم أمام هذا الاستسلام إلا أن يعفو ويصفح ، وبذلك تُقْتَلَع الضغائن من جذورها .

(١) الدية : هي المال الذى يجب بسبب الجناية . وتؤدّى إلى المجنى عليه أو وليه . والدية تكون مغلطة ومخلقة ، فالمغلطة تجب في قتل الخطأ ، والمغلطة تجب في شبه المعد . [فقه السنة ٢/ ٢٧ - ٥٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۚ ﴾ [الإسراء]

أى : طالما أن الله أعطاك حقَّ القصاص فليكنَّ القصاص بقدره دون زيادة أو تعدُّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف فى القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذى شأن فى قومه ، فلا يرضى ولىّ الدم بقتله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذى مكانة وذى شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف فى القتل ، وهو إسرافٌ فى ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف فى الكَمِّ ، فإن قُتل واحد فلا يكتفى ولىّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغلُّ وثورة الدم إلى أن يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأن يُمثل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألا يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبى ﷺ أن يفعلها فى قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك ^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ [الإسراء]

أى : لا يجوز له أن يُسرف فى القتل ؛ لأننا لم نتخلَّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقَّ القصاص ومكثاه منه ، إذن : فهو منصور

(١) حين قُتل حمزة ومثل به فى أحد قال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنعشن بهم مثله لم يمتثلها أحد من العرب بأحد قط ، فانزل الله ﴿ وَإِنْ حَاقَّتْكُمْ لَعْنُهُمْ فَبِئْسَ مَا عَوِّقْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صِرَاطَ لَهْوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل] .

ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حدِّ النُّصْرَةِ لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. ٣٤ ﴾ [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدي عليه ؛ لأن اليتيم مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أن تجترى عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغ الرجال وهو سنُّ الرُّشد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتالم ساعة أن يرى غيره من الأولاد له أب يحتر عليه ، وسوف يحقد على القدر الذي حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أن يستل من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يوصي المجتمع به ليشعر أنه وإن فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفي حنوتهم وعطفهم عوض له عن وفاة والده .

(١) حتى يبلغ أشده : أي يبلغ السن التي تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٣٤٢/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة . قال أبو إسحاق : نست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أبرك قبل ثمانى عشرة سنة وقد أونس منه الرشد فطلب دفع ماله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب - مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسان أن اليتيم مُكْرَمٌ في مجتمع إيماني يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزعُه أحداث الحياة في نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّرَ له أن يُيْتَمَ أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيماني .

إذن : إنْ وجد اليتيم في المجتمع عوضاً عن أبيه عَطْفًا وحنانًا ورعاية يرضى بما قُدِّرَ له ، ولا يتأبى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّرَ عليها اليتيم في أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

أى : لا تنتهز يَتَم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع في ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : ﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ .. (٢٤)﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ...﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتى هي أحسن .

و ﴿أَحْسَنُ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة في الإحسان ، فكان لدينا صفتين معدوحتين : حسنة وأحسن ، وكان المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدى عليه . لكن الأحسن : أن تُنمى له هذا المال وتُثمره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهلاً للتصرف فيه .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٥٢١

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. (٥)﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ! لأن الرزق منها يُنقصها ، لكن معنى :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. (٥)﴾ [النساء] أى : من ريعها وربحها ، وليس من

رأس المال .

والأ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ،

وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف

ينتهى هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرشد فلا يجد من ماله شيئاً

يُعتمد به .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول : حَقُّقُوا الْحَسَنَ أَوَّلًا

بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قَدِّمُوا الْأَحْسَنَ بِتَمِيمَتِهِ لَهُ وَزِيَادَتِهِ

زيادة تتسع لنفقات حياته ، والأ فسوف يشب الصغير ، وليس أمامه

من ماله شيء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يحرم اليتيم من خبرة أصحاب

الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء

مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَالٌ يَعْمَلُ فِيهِ ، فليعمل في مال اليتيم ويديره له

وَيُتِمِّهِ ، وليأكل منه بالمعروف ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ

لَا يَحِلُّ لَهُ ، يقول تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا

فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ .. (٦)﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديه الصلاحية

فلا تُعطل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا توفر نفقة

صاحب الخبرة الذي لا يجد مالا ، ونفقة اليتيم الذي لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل في المجتمع الإيماني .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. ﴾ (٣٤) [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هذه الصفة كافية لكي تُعطى لليتيم ماله وقد بلغ سنُّ الرُّشد والتكليف ؟

في الحقيقة أن هذه الصفة غير كافية لنُسلَّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنِّه سَفِيهاً لا يُحسِن التصرف ، فلا يجوز أن نترك له المال ليُبذِّده ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴾ (٦) [النساء]

وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَا تَزِرُ الشُّفَاءَ أَمْوَالُكُمْ .. ﴾ (٥) [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفية ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليه الذي يحافظ عليه وَيُنْمِيهِ له .

إذن : فالرُّشد وهو سلامة العقل وحسن التصرف ، شرط أساسي في تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشد أهلاً للتصرف في ماله .

وكلمة : ﴿ أَشُدَّهُ .. ﴾ (٣٤) [الإسراء] أى : يبلغ شِدَّة تكوينه ، ويبلغ الأشد أى : تستوى ملكاته استواءً لا زيادة عليه ، فاعضاء الإنسان تنمو وتتربى مع نموه على مرَّ الزمن ، إلى أن يصل سنُّ الرُّشد ويصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هي سنُّ الأشد أى : الاستواء .

(١) آتس النشء : أدركه وأحسَّ ببصره أو بعلمه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً .

[القاموس اللوهم ٢٧/١] .

لذلك أجلّ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنّ البلوغ : لأنه لو كلفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٢٤) [الإسراء]

﴿ العهد ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أبرم هو العقد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُختاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان : لأن الله لا يريد منا قوالب تخضع ، ولكن يريد منا قلوباً تخضع ، ولو أراد الله منا قوالب تخضع ما استطاع واحد منا أن يشدّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إن أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أن تدخل الدين ، ولكن إذا دخلت فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهد : لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدته على المقابلة فقد أصبحت ملزماً بالوفاء :
لأن المقابل لك قد رتب نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإن
أخلفت معه العهد فكانك أطلقت لنفسه حرية الحركة ، وتبدت حركة
الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبي ﷺ من
صفات المنافقين^(١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (٤٤) [الإسراء]

قد يكون المعنى : أى مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده
أوفى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أى : مسئول ممن تعاهد عليه أن ينفذه ،
وكانه عدى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حر وأنت حر ، والعهد
هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول فى مواضع تقول
للوهلة الأولى أنه فى غير موضعه ، ولكن إذا دقت النظر تجده فى
موضعه بليغاً غايةً البلاغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (٤٥) [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب فى الحقيقة ساتر وليس
مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أن يجعل الحجاب صفيقاً ، كأنه

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً
خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ،
وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاسم فجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٨) ،
وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٥٩) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٥٢

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما في قوله تعالى : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧ ﴾ [النساء] أى : أن الظل نفسه مُظْلَلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُراعَ فيه العهود ، ولم تُحترم العواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفَكِّكاً فَقَدَت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فَقَدَت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فأعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهلاً لرقى أو تقدُّم .

ولاهمية العهد فى الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسَجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وَجَد ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاء وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن تضرب له هذا المثل :

هَبْ أَنْتَ أَخَذْتَ دَيْنًا مِنْ صَدِيقٍ لَكَ ، وَكَتَبْتَ لَهُ مُسْتَدًا بِهَذَا الدِّينِ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، ثُمَّ قَابَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ تيسَّرَ لَكَ السَّدَادُ وَوَقَّيْتَ لَهُ بِدَيْنِهِ . لَكِنَّهُ اعْتَذَرَ لِعَدَمِ وَجُودِ الْمُسْتَدِّ مَعَهُ الْآنَ ، فَقُلْتَ لَهُ : لَا عَلَيْكَ أَرْسَلُهُ لى متى شئتَ ، فَلَوْ تَصَوَّرْنَا أَنَّهُ أَرَادَ الْغَدَ بِكَ وَأَنْكَرَ سَدَادَ الدِّينِ ، فَالْقَضَاءُ يَقُولُ : لَهُ الْحَقُّ فِي اخْتِذِ دَيْنِهِ ، أَمَا دِيَانَةُ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ .

إذن : العهد الذى نعهده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ^(١)
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^(٢)﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هي التي تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه في الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التي تريد أن تعيش على اكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان في مجتمع عامل نشيط ، وأنه إن تعادى في خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويرقى المجتمع ويسعد أفرادُه .

صحيح في المجتمع الإيمانى إثثار ، لكنه الإيثثار الإيجابى النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغصب فلا مجال لها في هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التي تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الأدمية أولى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

(١) القسطاس : الميزان والفعل ، [القاموس القويم ١١٦/٢] والقسطاس المستقيم : العدل الموازين وأقومها . [لسان العرب - مادة : قسطس] .

(٢) أى : أحسن عاقبة ومالاً ومرجماً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ٤٤/١] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حق مكفول في الدولة وفي أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذي يكمله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغنى الذي يسهم في سدّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إن أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التي عملت بها واجتهدت وجمعت هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هي هبة من الله يمكن أن تنزع منك في أى وقت ، وتبدل قوتك ضعفاً وغناك حاجة ، فإن حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونؤمن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابياً ، يعمل ويكسح ويسهم في رقي الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والضمول ؛ لأن المجتمع الإيماني لا يسوّي بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهب أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوي ؛ الأول عاش في ماله باقتصاد وأمانة وسعى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مسرفاً منحرفاً بدّد كل ما يملك وقعد متحسراً على ما مضى ، فلا يجوز أن نسوّي بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطي الآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذت ما ليس لها حكمها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغنى طالما أن غناه ثمرة عمله وكنته ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير في ماله سيراً معتدلاً ويؤدي ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومواهب ، وبكل ما لديه من طموحات الحياة ؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعُهُ يجتهد ، وإن كان اجتهد في الظاهر لنفسه فإنه في الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير في المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لتفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبني مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً في بطون الفقراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أن ندعَ الغنى يجتهد ويسعى ؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيِهِ واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإن كان سَعْيُهُ في الحق فيها وتعمت ، وإن كان في غير الحق فلتضرب على يده .

واليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الإسراء]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً ، والتي تُقَدَّر بالمليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقَاسُ بها الأشياء كُلُّها على حَسْبِهِ ، فالكتاب مثلاً يُقَاسُ بالسنتيمتر ، والحجرة تُقَاسُ بالمتر ، أما الطريق فيُقَاسُ بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتقدير الطولي يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذي نقيسه . هذا في الطوليات ، أما في المساحات فسيأتي

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٥٢٩

الطول والعرض ، وفي الأحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفي
الكتل يأتى الميزان .

إذن : فالحياة محكومة فى تقديرات الأشياء بالكيل الذى يُبَيِّن
الأحجام ، وبالميزان الذين يُبَيِّن الكتللة ؛ لأن الكيل لا دخل له فى
الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر
بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول
تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [الإسراء] يعنى : أعطوا
المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيَلِ الْمُطْغَفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا
اكتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾
[المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ،
أى : أخذوا منهم . أخذوا حَقَّهُمْ وأفياً ، وهذا لا لَوْمَ عليه ، وإنما
اللوم على : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

أى : إذا كَالُوا للناس أو وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أى :
ينقصون . هذا هو موضع الذمِّ ومجال اللوم فى الآية ؛ لأن الإنسان
لا يُلام على أنه استوفى حَقَّهُ ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين
الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يجب أن يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون فى الكيل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي يتفصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسك في الوزن ، وطفف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء] أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جور فيه .

والمقابل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقّه ، هكذا : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ .. ﴾ (٣٥) [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دقته ، وجعله بالقسطاس ، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدقة في الميزان بالذات ؟

لو نظرت إلى عملية الكيل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلما يستطيع الإنسان الغش فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلم تلاعبه ؛ لأن الكيل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة ييخسون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد ؛ لأن الميزان كما تعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكفة القوة في ناحية ، وكفة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأي نقص في الذراعين يفسد الميزان ، وأي تلاعب في كفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن الاعيب البائعين في أسواقنا لظل بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه

مجال واسع للغش والخداع وأكل أموال الناس .

وسبق أن أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه ، ويتناسب مع قيمته ونفاسته ، فالذى يزن الجير مثلاً غير الذى يزن اللوز ، غير الذى يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معانى (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون ، فالذى يبيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة فى الميزان ؛ فإنها تساوى الكثير من المال .

لذلك فإن أهل الخبرة فى هذه المسألة يقولون : احذر أن يدخل البائع رأسه قريباً من الميزان ؛ لأنه قد ينفخ فى كفة الميزان ، ولا شك أنك ستخسر كثيراً من جرأ هذه النقطة !!

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذت أيديهم على الغش والخداع فى البيع والشراء : أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها ، وفى الوقت نفسه تشتري أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إن غششت الناس فى سلعة واحدة فسوف تُغش فى مئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة فى صالحك .

ولا تنس أن فوقك قيوماً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلط عليك مَنْ يسفك بنفسك كأسك إلى أن تتبين لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة ؛ لأنك إن عميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التى اختلستها من أقوات الناس من حيث أنت ، كما قال النبى ﷺ : « من

أَصَابَ مَالًا مِنْ مِهَاشٍ^(١) أَذْهَبَهُ اللَّهُ فِي نَهَابٍ^(٢) .

وكذلك في المقابل : مَنْ صَدَقَ النَّاسَ ، وَوَفَّى لَهُمْ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ^(٣) وَتَعَامَلَاتِهِ يَسِّرْ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُؤْفَى لَهُ وَيَصْدُقْ مَعَهُ .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) ﴾ [الإسراء]

(ذَٰلِكَ) أى : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلًا) أى : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذى يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بفشقه يزد في ماله ويجلب الخير لنفسه . تقول له : أنت وأهم ، فليس في الغش والبخس خير والزيادة عن طريقه هي عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى سَيُجْزِيءُ النَّاسَ عَلَيْكَ فَيَفْشُوكَ ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقسطاس المستقيم لا هو خَيْرٌ ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذى يُوفَّى الكيل والميزان ، فإن الله تعالى يُيسِّرُ لَهُ مَنْ يُوفَّى لَهُ الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) ﴾ [الإسراء] أى : أحسن عاقبة .

(١) المِهَاشُ : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصَابُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ وَلَا يُدْرَى مَا وَجْهُهُ كَالْمَكْسَبِ وَالسَّرِقَةِ وَنَحْوِ ذَٰلِكَ . [لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النَّهَابُ : المِهَالِكُ ، أى : أَذْهَبَهُ اللَّهُ فِي مِهَالِكٍ وَأَمْرٌ مُتَبَدِّلٌ [اللسان - مادة : نهير] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢ / ٢١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال النقى السبكى : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظّم حركة الحياة ، والإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ووهبه الحياة وأمدّه بالطاقات وبمقومات الحياة وضرورياتها .

وبعد أن تكفل له بالضروريات ، دَلَّه على الترقُّى في الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فَيُرقِّى ويُثري حياته ومجتمعه .

وحركة الترقُّى والإثراء هذه لا تتم إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركت في الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوة .

فمثلاً ، الطالب الذي يرغب في دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضوء قضية اقتنع بها .

إنن : لا بد أن تُبنى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرك في أي حركة واثقاً من أن حركته ستؤدي إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردت مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

(١) أي : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تشرسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

أسوان ، فلن تتحرك إلا إذا تأكدت أن هذا الطريق هو الموصّل إلى غايته . وكذلك حركة الحياة لا يمكن أن تتم إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المسئلة التي يُحكّم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أن تُدلل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فإنّ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والامية ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الامية أطوع في التعلم من الجاهل ؛ لأن الامية بمجرد أن تُعلّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أن تُقسّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الاهواء .

وقضايا تتفق فيها الاهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الاهواء : هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنّ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الاهواء فلا بدّ أن تختلف ، فكلّ له هواء الخاص ، فلن أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وَصَدَقَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِينَ قَالَ : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ ۖ ﴾ (٧١)

[الغزمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين ؟ المخرج أن يخرج كل واحد منا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التي اختلفت فيها أهواؤنا إلى مَنْ لَا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذي لَا هوى له ، ونحن جميعاً خلقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكُل خاضع لهذا الشرع مُتَّبِع له ؛ لأنه شرع الخالق سبحانه لَا شرع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللي الشرع يقطع صباعه ميخُرش دم » ، فانا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لي ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنْصَاعَ لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرعها لكم ، لكي ترتاحوا من تسلط بعضهم على بعض .

أما القضايا التي تتفق فيها الأهواء فهي القضايا المادية القائمة على المادة الصماء التي لَا تُجَامِلُ أحداً على حساب أحد ، وَلَا مانع أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قهراً ورغماً عنكم ، فالمعمل الذي تدخله لتجرب التجارب التي توصلك لقضية ما مادية أو كيميائية معمل محايد لَا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسي وأمريكي ؛ لأن هذه أشياء مادية لَا خلافَ طليها ، أما الذي جعل المعسكر الشرقي يختلف والمعسكر الغربي هي القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعي ، وهذا رأسمالي .

لذلك ، فالنبي ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يُؤْبِرُونَ النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره ^(١) ، فاطاعوه ولم يؤْبِرُوا النخل في هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يشمر ، وأثبتت التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتى هذا مَعْنً ؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، الذى يحرص على أن تاتى كل قضاياها صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ^(٢) .

ليضع بذلك أسوة لعلماء الدين ألا يضعوا أنوفهم في قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ .. ﴾ ^(٣) [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ^(٤) .

فإن أردت أن تتحرك في الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ ^(٥) [الأنعام] لكى تسير في حركة الحياة على هُدًى وبصيرة .

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب - مادة : أبر] .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخلوا به . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . وفي حديث أنس (٢٢٦٢) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو . وأورده ابن رجب العسقلاني في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضمه .

﴿ لَا تَقْفُ ﴾ أى : لا تتعجب ولا تتدخل فيما لا علم لك به ، كمن يدعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قَالَ لَا أَدْرِي فَقَدْ أَقْبَى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتب على إجابته ما لا تُحمد عقباة ، والذي يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقْفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ۖ ۞ (٢٧) ﴾ [الحديد] أى : أتبعناهم ، ويقفو أثره أى : يسير خلفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أن يتزوج قال له ^(١) : لا تتخذها حنّانة ، ولا مئانة ، ولا عُشبة الدار ، ولا كبة القفا .

فالحنّانة التى لها ولد من غيرك يُذكرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمئانة التى لديها مال تُمنّ به عليك ، وعُشبة الدار هى المرأة الحسنة فى المنبت السوء والمستنقع القذر ، وكبة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعييه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علّمان :

- علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويوحّدها إلى هوى واحد هو الهوى الإيمانى .

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاه الخالق سبحانه ، وليس لنا دخل فيه : لان الصانع اذرى بصنعتة ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها : لانه يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .. (٧) [الحشر]

- فليس لنا أن نتدخل فيه ، أو نزيد عليه ؛ لانه منهي عن الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهي لا يقبل الزيادة أو للتعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الامر أو بإتيان النهى . اما الامور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فانت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمعامل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالامور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعتة أن نُحكّمه فى أمور ديننا ، ونُخرج أنفسنا مما اختص به سبحانه ؟

- اما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبي الذى لا يخضع للأهراء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسايق ،

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة في التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإن كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يُقَنِّنْهَا لَنَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا أَعْمَلْنَا فِيهَا عَقُولَنَا بِمَا يَنْفَعُنَا وَيُشْرِي حَيَاتِنَا ؛ لَذَلِكَ تَكَلَّمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ وَسَائِلِ إِدْرَاكِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع ما لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقيني فلا بُدَّ أَنْ يَسْأَلَ الْمَرْءُ عَنْ وَسَائِلِ الْعِلْمِ هَذِهِ ، لِأَنَّهُ لَوْلَا وَسَائِلُ الْإِدْرَاكِ هَذِهِ مَا عِلِمَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا ، وَهَذَا وَاضِحٌ فِي قَوْلِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [النحل]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هي العلم .

وهذه الحواس تُزَوِّدُ عملها في الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه ، وبعد أن يخرج إلى الحياة ، والبعض يظن أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويعي من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُولَدُ

فالسَّمْعُ أوَّلُ الحواسِ ، وهو أهمُّها في إدراك المعلومات ، حتى الذي يأخذ معلوماته بالقراءة سَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ ، فَتَعَلَّمَ أَوَّلًا بِالسَّمْعِ أَلْفَ بَاءٍ . فَالسَّمْعُ أَوَّلًا فِي التَّعَلُّمِ ، ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ الْبَصَرِ .

وَالَّذِي يَتَّبِعُ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ سَيَجِدُهَا جَاءَتْ بِإِفْرَادِ السَّمْعِ وَجَمْعِ الْبَصَرِ ، مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (١) ﴿

[السجدة]

إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْهَا جَاءَتْ : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٢٦) ﴿

[الإسراء]

لِمَاذَا ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ إِفْرَادِهَا هُنَا بِالذَّاتِ ؟

وَقَبْلَ أَنْ نُوَضِّحَ الْحِكْمَةَ هُنَا يَجِبُ أَنْ نَعِيَ أَنَّ الْمَتَكَلِّمَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا دَامَ الْمَتَكَلِّمُ هُوَ اللَّهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَجِدَ كُلَّ كَلِمَةٍ دَقِيقَةً فِي مَوْضِعِهَا ، بَلِغَةً فِي سِيَاقِهَا .

فَالسَّمْعُ جَاءَ بِصِيفَةِ الْإِفْرَادِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّدُ فِيهِ الْمَسْمُوعُ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّامِعِ ، فإِذَا حَدَثَ الْآنَ صَوْتٌ تَسْمَعُهُ جَمِيعًا ، فَهُوَ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الْأَذَانِ .

أَمَّا الْبَصَرُ فَهُوَ خِلَافَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ أَمَامَنَا الْآنَ مَرَاتِيَّ مُتَعَدِّدَةٌ وَمَنَاطِرُ مُخْتَلِفَةٌ ، فَانْتَ تَرَى شَيْئًا ، وَأَنَا أَرَى شَيْئًا آخَرَ ، فَوَحْدَةُ السَّمْعِ لَا تَنْطَلِقُ عَلَى الْبَصَرِ ؛ لِذَلِكَ أَفْرَدَ السَّمْعَ وَجَاءَ الْبَصَرُ بِصِيفَةِ الْجَمْعِ .

أَمَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. ﴾ (٢٦) ﴿ [الإسراء] فَقَدْ

ورد البصر هنا مفرداً : لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سمعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحسب ، فناسب ذلك أن يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان - إذن - مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقى ، تلقى القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكان الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمى إلا خيراً ، ولا تطلق إلا طيباً ، ويا مربي النشء لا تسمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويثريها .

ويقول للعين : لا تری إلا الحلال الذي لا يهيج غرائذك إلى الشهوات ، ويا مربي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبئ عليها حركة حياته .

وما دُمت مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومجاسباً عنها ، فإياك أن تقول : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أن تقول : رأيت وأنت لم قر ، إياك أن تتعرض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنى على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنى على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..

(٣٦) [الاسراء] لماذا ؟ لآنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل

إدراكه لديك : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الاسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ

وَلَكِن تَبْلُغُ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) ﴾

ما زالت الآيات تسير فى خط واحد ، وترسم لنا طريق التوازن

الاجتماعى فى مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر فى

حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمعتب لهذه الآيات يجد بها منهجا قويا لبناء مجتمع متماسك

ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ..

(٢٢) ﴾ [الاسراء]

وهذه قضية القمة التى لا تنتظم الامور إلا فى ظلها ، ثم قسم المجتمع

إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التى أنث مسهمتها فى الحياة ، وحان

وقت إكرامها ورد الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببرهما .

ثم توجه إلى الطبقة الصغيرة التى تحتاج إلى رعاية وعناية ،

فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خوفا الفقر والعوز ، وخص

بالوصية اليتيم : لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية

والحنو والحنان .

سورة الاسراء

٨٥٤٥

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسط ، ونهى عن طرقيته : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخص الزنا الذي يُلوث الاعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسفك الدماء .

ثم تحدث عما يحفظ للإنسان ماله ، ويحمي تعبهِ ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حث الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبنى حياته على نظريات خاطئة .

الم تر أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلاقية في الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع له توازناً اجتماعياً .

وأول شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا من بينه وبين الله قرابة أو نسب ، فالجميع عند الله عبيد كاسنان المشط^(١) ، لا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإن تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غني ، وهذا فقير .

(١) أخرج ابن عدي في الكامل (٢/٢٤٨) عن حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كاسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعبادة » والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمه ، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له ، وفيه أبو داود النخعي : قال ابن عدي : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزاه العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٥١) للدليعي عن أنس ، وعن سول بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويدعون غيرها من النواحي الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية ، ولرسلت هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، وإن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۖ ۝ (١٣) ﴾ [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أن يرفع رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ ۝ (٣٧) ﴾ [الإسراء]

أي : فخرًا واختيالًا ، أو بطرًا وتعالىًا ؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتيًا فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل كل ما يمكن أن يفخر به الإنسان هبة له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عدم هي هبة يمكن أن تسترد في يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبرت بمالك ، ثم رآك الناس فقيرًا ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلًا ؟

إن : فالتواضع والادب أليق بك ، والتكبر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٥٤٧

وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرَى مَسَاوَاةَ الْخَلْقِ أَمَامَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْعِبَادَاتِ ، ففِيهَا اسْتِطْرَاقُ الْغُبُودِيَّةِ فِي النَّاسِ ، فَهَيْنَمَا يُنَادَى لِلصَّلَاةِ مِثْلًا تَرَى الْجَمِيعَ سَوَاسِيَّةً : الْغَنَى وَالْفَقِيرَ ، وَالرَّئِيسَ وَالْمَرْئُوسَ ، الْوَزِيرَ مِثْلًا وَالْخَفِيرَ ، الْكُلَّ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا ، الْكُلَّ خَاضِعًا لِلَّهِ مُتَذَلِّلًا لِلَّهِ فَقِيرًا لِلَّهِ ، الْكُلَّ عَبِيدًا لِلَّهِ بَعْدَ أَنْ خَلَعُوا أَقْدَارَهُمْ ، عِنْدَمَا خَلَعُوا نِعَالَهُمْ ، فِي سَاحَةِ الرَّحْمَنِ يَتَسَاوَى الْجَمِيعُ . وَتَتَجَلَّى لَنَا هَذِهِ الْمَسَاوَاةُ بِصُورَةٍ أَوْضَحَ فِي مَنَاسِكَ الْحَجِّ .

وَالْأَهَمُّ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّئِيسَ أَوْ الْكَبِيرَ لَا يَأْنِفُ ، وَلَا يَرَى غَضَاضَةً فِي أَنْ يَرَاهُ مَرْئُوسَهُ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ وَفِي هَذَا الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ الْخُضُوعَ هُنَا وَالتَّذَلُّلَ لِلَّهِ ، وَهَذَا عَيْنُ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٣٧) ﴿

[الْإِسْرَاءُ]

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ نَلْحِظُ إِشَارَةً تَوْبِيخَ وَتَقْرِيعَ ، كَأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمَتَكَبِّرِينَ ، وَلَاصِحَابِ الْكِبْرِيَاءِ الْكَاذِبِ : كَيْفَ تَتَكَبَّرُونَ وَتَتَسَيَّرُونَ فَخْرًا وَخُيَلَاءَ بِشَيْءٍ مَوْهُوبٍ لَكُمْ غَيْرِ ذَاتِي فَيْكُمْ ؟

فَإَنْتُمْ بِهَذَا التَّكْبِيرِ وَالتَّعَالَى لَنْ تَخْرِقُوا الْأَرْضَ ، بَلْ سَتُظَلُّ هَلْبَةً تَتَحَدَاكُمْ ، وَهِيَ أَدْنَى أَجْنَاسِ الْوُجُودِ وَتُدَاسُّ بِالْأَقْدَامِ ، وَكَذَلِكَ الْجِبَالُ وَهِيَ أَيْضًا جَمَادٍ سَتُظَلُّ أَعْلَى مِنْكُمْ قَامَةً وَلَنْ تَطَاوُلُوهَا . وَالْحَقُّ

سبحانه وتعالى يُوبِخ عبده المؤمن المكرم لِيُبْقِيَ له على التكريم في :
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ (٣٧)﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِخ أهل التكبر الكاذب أتى
بأدنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهي جماد ؛ لكنه قد يسمو
على الإنسان ويفضل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد
الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان
والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا
جميع الأجناس مُسَخَّرَةٌ في خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها
الإنسان ؟ وَمَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أن يكون لك دَوْرٌ في الكون ووظيفة في الحياة ، وإلا كانت
الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة في الوجود .

وفي فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذي هو أدنى الأجناس
نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفي
ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ،
وعليه يتزاحم الناس ويتشرفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطرارق العبودية في الكون ، فالإنسان
المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحُرَّم قطعُه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك
الحيوان يحُرَّم صَيْدُه ، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي
أخدمها وأقدُّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح

الأصل ، ولكي لا يغتر الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تسري في الكون كله .

فمايك أيها الإنسان أن تخذش هذا الاستطراق العبودي في الكون بمرح أو خيلاء أو تعال .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢٨)

أي : كل ما تقدم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٢٢) [الإسراء]

وهذه الأمور التي تقدمت ، والتي تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيء وفيها الحسن ، والسيء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالف منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهي التي تقدمت يقولون : إنها الوصايا العشر التي نزلت على موسى - عليه السلام - والمقصودة في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ^(١) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَرْعَظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴾ (١٤٥) [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

(١) الأنواع : جمع لَوْح ، وهو الذي يكتب فيه ، قال الزجاج : قيل في التفسير أنها كانت لوحين ، ويجوز في اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب - مادة : لوح] . قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٤٦) : قيل : كانت الألواح من جواهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواظ وأحكام مفصلة مبينة للحلال والحرام .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (٣٩)

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما تقدم من الوصايا .

﴿ الْحِكْمَةُ ﴾ هى : وَضْعُ الشَّيْءِ فى مَوْضِعِهِ المؤدَّى للغاية منه ،
لِتَظَلَّ الحِكْمَةُ سائِدة فى المجتمع تحفظه من الخلل والحمق والسُّفْهَ
والفساد .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٣٩) [الإسراء]

لسائل أن يسأل : لماذا كرر هذا النهى ، وقد سبق أن ذكر فى
استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذى يُنظِّم حياة
المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريك له ، ثم عدل نظام
المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرأسى قواعد الطُّهر والعِفَّة ليحفظ
سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكل للكل .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أن يستقيم المجتمع ، ويسعد
أفراده بفضل هذا المنهج الإلهي .

إذن : فإياك أن تجعل معه إلهاً آخر ، وكرر الحق سبحانه هذا
النهى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٣٩) [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحْسِنُونَ الظنَّ بعقول بعض
المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيروا على منهاجهم ، ويُفْضِلُونَهَا

بالآخرة ، وإلا فلو أَخْرَبْنَا الْعَذَابَ عَنْ هؤلاء إِلَى الْآخِرَةِ لَافْسَدُوا عَلَى النَّاسِ حَيَاتِهِمْ ، وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ يُعْرِيدُونَ وَيُفْسِدُونَ .

ولذلك لَا يَمُوتُ ظَلُومٌ فِي الْكَوْنِ حَتَّى يَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَيَذِيقَهُ عَذَابَ الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَرَاهُ الْمَظْلُومُ لِيَعْلَمَ أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ ، فِي حِينِ أَنْ الْمَظْلُومَ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ يَنْصُرُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنْ نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ ، حَتَّى إِنْ الظَّالِمَ لَوْ عِلِمَ بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمَظْلُومِ لَضَنَّ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَقَكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَالنَّجَارَاتِ الَّذِينَ أَخَذْنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ۖ إِنَّكُمْ لَنُفْكَرُونَهَا قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزيز ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله . فَوَيْحُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى : كَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلخَالِقِ سُبْحَانَ الْبَنَاتِ وَلَكُمْ الْبَنِينَ ، إِنَّهَا قِسْمَةٌ جَائِزَةٌ ، كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۝٢٦ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ۝٢٧ ضَيْرِي ۝٢٨﴾ [النجم]

أى : قِسْمَةٌ جَائِزَةٌ ظَالِمَةٌ .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ ۝٤٠﴾ [الإسراء] أى : اصطفاكم واختار لكم الْبَنِينَ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ ؟

(١) ضَارَهُ يَضِيرُهُ : جَارَ عَلَيْهِ . وَضَارَهُ حَقٌّ : نَقَصَهُ حَقُّهُ . وَقِسْمَةٌ ضَيْرِي : جَائِزَةٌ ظَالِمَةٌ . [القاموس القويم ٣٩٧/١] .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿ ٨٥٥ ﴾

ويقول في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۖ ﴾ (١٥) [الزخرف]
 لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠) [الاسراء]
 فوصف قولهم بأنه عظيم في القبح والافتراء على الله ، كما قال في
 آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴾ (٨٨) [مريم]
 [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا
 وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ (٤١) ﴾

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى : حَوَّلْنَا الشيء من حال إلى حال ، ومنها قوله
 تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ۖ ۝ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

يعنى : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكسكا^(١) علية
 هادئة ، ومرة تجدها رُخَاءً أى : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً
 مدمراً . والرياح قد تكون لواقع تأتى بالخير والنماء ، وقد تكون
 عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ۖ ۝ (٤١) ﴾ [الاسراء]

أى : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن ، وعالجها في
 كثير من المسائل ! لأنه أمر مهم عالج القرآن علاجات متعددة في مقامات
 مختلفة من سُورِهِ ، فتكرر ذكر هذه المسألة . والتكرار قد يكون في

(١) الإد والإنة : المعجب والأمر الفظيع العظيم والداعية . [لسان العرب - مادة : أد] .

(٢) السكسكة : الضمف . [لسان العرب - مادة : سكك] والمقصود أنها ربيع ضعيفة ذات
 نسيم طيل .

ذات الشيء . وقد يكون بالالف بالشيء . كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٣)

[الرحمن]

وقوله : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (١٤)

[الإسراء]

أى : بدلَ أَنْ يَذْكُرُوا ويعودوا إلى جَاذَةِ الصَّوَابِ ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التي كانت لهم قبل الإسلام ، ولكي توضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين في العالم نجد أن القانون الوضعي الذي وضعه البشر لم يأت أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونه باسم الدين ، ويلزمون الناس به . ولكن لوحظ عليهم أنهم يحكمون في قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون في نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمى بالسلطة الزمنية .

وهذه السلطة الزمنية هي التي منعت يهود المدينة من الإيمان بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن بعثته ، وكانوا حينئذ يرون عبادة الأصنام في مكة يقولون لهم : سيأتي زمان يُبعث فيه نبي في هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه في حق يهود المدينة : ﴿ وَلَمَّا

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٥٥٥

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

[البقرة]

لقد تنكر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صدقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرّمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضى على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التي كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا بُشْعَؤُا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٧﴾

أى : لو كان مع الله آلهة أخرى لطلبت هذه الآلهة طريقاً إلى ذى العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية فى قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾ ﴿٨٨﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أن تكون غير ذلك . فإن كانت صادقة فقد انتهت المسألة ، وإن كانت غير صادقة ، وهناك إله ثان ، فإين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإن كان موجوداً ، ولا يدري - أو كان يدري بهذه القضية - ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففى كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سكمت له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِي الْعَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لِمَنْ استتب له الأمر بعد عِزِّكَ وقتال ، فيُصنع له كرسي أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذِي الْعَرْشِ ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويطلبوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّعَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٩٦)

[المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خلقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ لَنْ يَسْتَكْبِرَ^(١) الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴾ (١٧٢)

[النساء]

ويقول : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. ﴾ (٥٧)

[الاسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقلتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلُّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم - إذن - أولى .

(١) أي : لن يمنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/ ٨٨٧] .

وينزه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٢)

وقوله : ﴿سُبْحَنَهُ﴾ يعنى تنزيها مطلقا له تعالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فله تعالى ذات ليست كذاذك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحسب الموجد لها .

فمثلا : لو بنى كل من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتا ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بد من وجود هذا التفاوت بين إله ومآلوه ، وبين رب ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كل الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٢) [الإسراء] أى : تعالى الله وتنزه عما يقول هؤلاء علوا كبيرا ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيرا) ولم يقل : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى موضعه المناسب ؛ لأن كبيرا تعنى : أن كل ما سواه صغير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبير أى : مُشَارِك له فى الكبر .

لذلك نقول فى نداء الصلاة : الله أكبر وهى صفة له سبحانه ، وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعى على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^(١) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا غَفُورًا ۝٤٤﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله : لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلا أن تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فانت لا تؤكل أحداً يعمل إلا إذا أيقنت أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بالله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألومين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مطلق الصفات ، فالله غنى وأنت غنى ، لكن غنى الله ذاتي وغناك موهوب ، يمكن أن يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد مَنْ خلقه مَنْ يُنْزَهُ ، والحق سبحانه مُنْزَهُ بذاته والصفة كائنة له قبل أن

(١) قوله تعالى ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ .. ۝٤٤﴾ [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٢٩٩٤/٥) :

« يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعد ذلك الأشیاء كلها في قوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ۝٤٤﴾ [الإسراء] . »

يخلق الخلق : لانه خالق قبل ان يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، اهو شاعر لانه قال قصيدة ؟ ام شاعر بذاته قبل ان يقول شعراً ؟

الواقع ان الشعر موهبة ، وملكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل ان يقول .

كذلك فصفاة الكمال فى الله تعالى موجودة قبل ان يوجد الخلق .

لذلك فإن المنتبج لهذه العادة فى القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحَانَ) فى اول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى .. ﴾ [الإسراء]

ومعناها ان التنزيه ثابت لله تعالى قبل ان يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿ سَبِّحْ لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ .. ﴾ [الحديد]

بصيغة الماضى ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والارض ، وهى خلق سابق للإنسان .

ثم يأتى بلفظ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ .. ﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع : ليدل على ان تسبيح الله ليس فى الماضى ، بل ومستمر فى المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل ان يخلق مَنْ يُنْزَهُه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته فى السموات والارض ، فلا تَكُنْ ايها الإنسان نشازاً فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

أى : ما من شيء ، كل ما يُقال له شيء . والشئ : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنَزَّهٌ وَمُتَعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط : لأنهم لم يسمِعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلُّ بِلُغَتِهِ^(١) .

فقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقى ذاتى ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿كُلُّ قَلْبٍ عَلِيمٌ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ .. (٤١)﴾ [النور]

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٣٩٩٦/٥) : . الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأتى تخصيص داود (يحمده قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٥)﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء . فالقول به أولى . والله أعلم . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شيء في الوجود علم كيف يُصَلَّى لله ، وكيف يُسَبَّح لله ، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عالم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وما هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القولي لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزي - مع أنه يتكلم بالفاظ العربى - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بد من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان في حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهى المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيت بطفل إنجليزي مثلاً ، ووضعتَه في بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمٌّ...﴾

(١٨) ﴿البقرة﴾

فهم بكم لا يتكلمون ؛ لأنهم صم لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدث به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن : بالسماع انتقلت اللغة ، كُلُّ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ ، وَمِنْ الْبَيْتَةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا ، فَإِذَا مَا سَلَسَلَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ سَتَنْصِلُ إِلَى آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهَذَا يَأْتِي السُّؤَالُ : وَمِمَّنْ سَمِعَ آدَمَ اللُّغَةَ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا ؟ وَقَدْ حُلَّ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۖ ۝ (٣١) ﴾ [البقرة]

وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيُّ بِنَفْسِ لُغَتِكَ وَلَا تَفْهَمُ عَنْهُ مَا يَقُولُ ، وَاللُّغَةُ هِيَ اللُّغَةُ ، كَمَا حَدَّثَ مَعَ أَبِي عِلْقَمَةَ النُّحْوِيُّ ، وَكَانَ يَتَقَرَّرُ فِي كَلَامِهِ وَيَأْتِي بِالْفَاضِلِ شَاذَةً غَيْرَ مَشْتَهَرَةٍ ، وَقَدْ أَتَعَبَ بِذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ ، وَخَاصَّةً غَلَامَهُ الَّذِي ضَاقَ بِهِ ذُرْعًا لِكثْرَةِ مَا سَمِعَ مِنْهُ مِنْ هَذَا التَّقَرُّرِ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ فِي ذَاتِ لَيْلَةٍ قَالَ أَبُو عِلْقَمَةَ لَغَلَامِهِ : (أَصَقَّعْتُ^(١) الْعَتَارِيفُ) ؟ فَرَبُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا : (زُقَيْيْلُكُمْ) . وَكَانَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَفْهَمُ فِيهَا أَبُو عِلْقَمَةَ عَنْ كَلِمَةٍ ، فَقَالَ : يَا بَنِي وَمَا (زُقَيْيْلُكُمْ) ؟ قَالَ : وَمَا (صَقَّعْتُ الْعَتَارِيفُ) ؟ قَالَ : أَرَدْتُ : أَصَابَحْتُ الدِّيكَ ؟ فَقَالَ الْغَلَامُ : وَإِنَّا أَرَدْتُ لَمْ تَصِحَّ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ أَلَمْ يَكْفِنَا مَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ وَجُودِ لُغَةٍ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَفْهَمُهَا ؛ لِأَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ النُّطْقُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ اللُّغَةُ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ .

فهناك - مثلاً - لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

(١) صَقَّعَ الدِّيكُ : صَوْتُهُ ، وَقَدْ صَقَّعَ الدِّيكُ : صَاحَ . وَالْعَتَارِفَانِ : الدِّيكُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : صَقَّعَ ، عَتَرَفَ] فَمَعْنَى : أَصَقَّعْتُ الْعَتَارِيفُ : أَيْ : أَصَابَحْتُ الدِّيكَ .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هي استعداد لاصطلاح يفهم ويتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لوّن من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عالم لغة يتفاهم بها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴾ (٧٩) [الأنبياء]

فالجبال تُسَبِّح مع داود ، وتُسَبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسَبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما في أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بدّ أن داود عليه السلام قد فهم عنها وفهمته عنه .

وكذلك النملة التي تكلمت أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسم ضاحكاً من قولها . وقد علّمه الله منطق الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسَبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مؤدية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قهراً عنه ، مع أن لديه ملكة الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مطلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو عَلم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أن يُسمّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٦٥) [مريم]

ومع ما عندهم من إلف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجروا أحد منهم أن يُسمّى ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرا على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذي لم يجروا حتى الكافر على التشبّه به ؛ ذلك لأنهم في كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إن أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجروا أحد منهم أن يُجرب في نفسه مثل هذه التسمية .

وفي مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لامثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم من ينحني خضوعاً لغيره ؛ كأنه رাকع أو ساجد ، ومنهم من يمدح جباراً بأنه لا مثيل له ، وتصل به المبالغة إلى جعله إلهاً في الأرض ، ومنهم من يسجد للشمس كما فعل أهل سبا ، وأخبر الهدد عنهم بقوله :

﴿ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . ﴾ (٢٤) [النمل]

السُّنَا نرى إنساناً يتقرب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرج زكاة ماله ؟ السُّنَا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سيده ، ويُوَقَّعُ في سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك
فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية في شيء متميز وارد عند الناس ،
والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرَّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له
سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرب لآخر
بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحَانِيَّة وهذا التنزيه في ذاته سبحانه ،
فلا يجرؤ أحد أن يتسمَّى باسمه .

وفي العبادة لا يُصَامُ لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنَا أن يقول
واحد للآخر : أنا سأَتَقَرَّبُ إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ،
إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعى صومك ،
فكانك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أن تتقرب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « كل عمل ابن
آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » ^(١) .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأي ركن من أركان الإسلام لغيري ،
إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أن يتطوَّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبْحَانِيَّة هي الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخلق ؛
لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تَأَبَّيْتُ على الإيمان بالله ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث قدسي عن رب العزة سبحانه .

وللعاصي : لقد تابيت على أوامر الله ، وما نمتم قد تابيتم على الله ،
والفتم هذا التآبي وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إن
أصابكم ، وعلى الموت إن طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟ إنها
قاهرة الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع احد أن
يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصي حينما يتصرف عن الجادة ، وتمتد يده إلى مال
غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدى على المال العام ، فإن الحق
سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبطل ما جمع من الحرام ، وربما
أخذت في طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :
« من جمع مالا من مهاوش أذهب الله في نهابر »^(١) .

فالتسييح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ،
إلا من أطلعه الله عليه ، فإذا من الله على أحد وعلمه لغة الطير
أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه
النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان - عليه السلام - شاكرًا هذه النعمة : ﴿ رَبِّ
أَوْزِعْنِي^(٢) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴾ [النمل]
فَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ [الإسراء]

(١) أورده العطلوني في كشف الخفاء (٢١٢/٢) وهواه للقضاة عن أبي سلمة الحمصي
مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحة له . قال النقي السبكي : لا يصح .
(٢) أي : ألهمني شكرك وأدفعني إليه وحببه إلي . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٥٦٧

يجب على العلماء أن ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة
أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله
لهم ذلك .

ثم يُذَكِّرُ الْحَقَّ سُبْحَانَ هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا ﴾ (١٤)

[الإسراء]

لأن الإنسان كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة
الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صنّعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن
تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حلِيمٌ لا يعاجل
الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأتاب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، قلولا أن يتدارك الله العباد بهذه
الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن
تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ
الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨)

[الحج]

ففيها هي جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله
لا يتخلف منها شيء ، فهي تسجد وتُسَبِّحُ بالإجماع ، ولم ينقسم
الامر إلا في الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو
الذي يشذُّ عن منظومة التسبيح في الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذي مَيَّزَهُ اللهُ بِالِاخْتِيَارِ ، وجعل له
الحرية في أن يفعل أو لا يفعل ، أما باقي المخلوقات فهي مُسَخَّرَةٌ
مقبهورة ، فإن قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبة لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبة لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترت الإيمان حباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فاثبت بذلك صفة المحبوبة .

وياك أن تظن أن مَنْ يَعصى الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما رُكِب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققت هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدت الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أن تُسلم الأمر لله ، وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) [الاحزاب]

وفي رَفُض هذه المخلوقات لتحمل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فرق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرا عليك وقت الأداء ما يحول بينك وبين أداء الأمانة .

فالمسألة لم تُفاجيء رسول الله : لانه عرفها حتى قبل أن يُبعث ،
فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى في الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة
فَرَعَا ذهبُ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو
الناموس الإلهي ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه
نبي هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتني أكون حياً حين يُخرجك
قومك ، فقال ﷺ : « أُمخرجي هم ؟ »^(١) .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودي ، وإن
يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حصَّن رسوله ﷺ ضد ما سينتج
من أحداث ! لكس يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التي
ربما ولدت الانهيار ، وأعطاه الطَّعم المناسب للداء قبل حدوثه : لتكون
لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت في نصر الله
له مهما أدلهمت الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس
لهم إلا الدنيا ، هي فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد
كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنَّ أَجَلَ المؤمن بعض
مُتَعِهِ وشهواته انتظاراً لما في الآخرة فلا مَ يَؤْجَل الكفار مُتَعَتِهِمْ ؟

إذن : الذي يجعل هؤلاء يتهافون على شهواتهم في الدنيا أنهم
غير مؤمنين بالآخرة .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٣٩/٢ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن
بشير . وأورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٣٨/١) وفيه أن ورقة قال : « والذي
نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبه
ولتكذبه وتخرجه وتقاتله ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرك الله نصرًا يعلمه » .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتتسجم مع الكون ،
فلا بد أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ،
لا بد أن يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها في ذات الرسول وفي
منهجه ، في ذاته بالإيذاء ، وفي دعوته ومنهجه بصرف الناس عنه ،
الم يقل الكفار لمن يرون عنده ميلا للإسلام : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا
الْقُرْآنِ وَالْغَوَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ (٢٦) [فصلت]

وقولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ .. ﴾ (٢٦) [فصلت] شهادة منهم
بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما
قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿ وَالْغَوَا بِهِ .. ﴾ (٢٦) [فصلت] أي : هرجوا وشوشوا
عليه حتى لا يصل إلى أذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق
رسول الله وصدق دعوته ، وقد دلت تصرفاتهم على ذلك ، فحينما
كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندن بآيات
القرآن كان صناديد الكفر في مكة يستعمدون سماع القرآن ، والتلذذ
بروعته وبلاغته^(١) .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٤٥) [الإسراء]

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (٢١٥/١) ، أن أبا سفيان وأبا جهل
والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في
بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق
فتلازموا ، وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرَوِّى^(١) أَنَّ ابا جهل ، وابا سفيان ، وابا لهب ، وام جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذاته ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصم آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغیظهم .

وكان الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أن بيئوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقول له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذى جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذى سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خوفاً ، بل خرج وهو يقول « شامت الوجوه »^(٢) وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين فى نصره وتأييده .

وقوله : ﴿ حِجَاباً مُّسْتَوِراً ۝٤٥ ﴾ [الإسراء]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإن كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإن كان للأذن فهو مانع للسمع .

(١) قال الزجاج فيما نقله عنه القرطبي فى تفسيره (٣٩٩٨/٥) : « نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم : ابن جهل ، وابو سفيان ، والنضر بن العارض ، وام جميل امرأة أبى لهب وحويطب . فغضب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يعمون به ولا يرونه . »

(٢) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (٢٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه . وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

شُكْرُ الْإِنْسَانِ

٨٥٧٢

وكلمة ﴿مُسْتَوْرًا﴾ اسم مفعول من الستّر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (سائراً) ، وهذا من قبيل المبالغة في الستّر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذي يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالك بما خلفه ؟

ولا شك أن الذهن سينشغل هنا بالحجاب المادي ، لكن هذا الحجاب الذي يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنوي ولا يراه أحد ، كما في قوله تعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ..﴾ (٢) [الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ..﴾ (٤١) [فاطر] فالامر قائم على قدرة الله دون وجود عمَد تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تجعل المعنى صالحاً لأن نقول بغير عمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تجعلها ، أو نقول : إن لها عمداً لكنا لا نراها ، فهي عمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عمَد المسطح أو الرخام أو الحديد .

وفي هذا ما يدكُ الغرور في الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له في إدراكه ، وأن حواس الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقُدرة الإلهية هي التي تُسِيرُ هذا الكون ، وتأمِر كل شيء بأن يُؤدّي مهمته في الحياة ، وإن شاء عطّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه في ملكه مرة واحدة ، بأن جعل فيه النواميس والقوانين ، وهي التي تحكم العالم وتُسِيرُه .

ففي قصة موسى - عليه السلام - أنه سار بجيشه ، يطارده فرعون وجنوده حتى وصل إلى شاطئ البحر فأصبح البحر من أمامه ، وفرعون من خلفه حتى قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١) [الشعراء]

فأين المفر ، وما هو البحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقي مع واقع الحدث البشري ، لكن الأمر يختلف عند موسى - عليه السلام - فقال بملء فيه : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) [الشعراء]

فهل قالها موسى برصيد بشري ؟ لا ، بل بما عنده من ثقة في ربه ، وهكذا انتقلت المسألة إلى ساحة الخالق سبحانه ، فقال لنبيه موسى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَمْرُوتَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣) [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطرقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحية الأخرى ، وتنشرح صدورهم بفرحة النجاة ، ويأخذ موسى - عليه السلام - عصاه ليضرب البحر ليعود إلى طبيعته ، وحتى

كان كافراً لا يزال يتقلب في عطاء الربوبية ، فلا يحرم منها كافر بكفره ولا عاص بمعصيته ، بل كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا تُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴾ (٢٠) [الإسراء]

وسبق أن فرّقنا بين عطاء الربوبية المتمثل في كل نعم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذي يقتضى عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمل في هذه النعم التي تُساق إليه دون سعى منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها ؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التي أجزاها الله تعالى من أجله ، وسخرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه في الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذي انقطعت به السبل في صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهى من الطعام والشراب ، ألا تتبصر في نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتد إليها يده ؟

وكذلك الكافر الذي يتقلب في نعم لا تُعد ولا تُحصى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعداً لاستقباله مُهيئاً لمعيشته ، فكان عليه أن يجري عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عمن كفر ، بل إن

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ ۝٤٦ ﴾ [الإسراء]

(وَقْرًا) أى : صَمَم ، والمراد انهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ،
لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن
خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون
فائدة فلا جدوى من سماعه وكان به صمماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَّغُوا فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ
نُفُورًا ۖ ۝٤٧ ﴾ [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيت لهم بما يُخوفهم
ويُزججهم ، وبالله لو أن قضية الإيمان ليست فطرية موجودة في
الذات وفي ذرات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فَمِمَّا
يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إن : ما هذا الخوف منهم إلا لانتقار الطبع ، وانتقار الفطرة التي
يعتريها غفلة ، فإذا ذُكر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُون مديرين
في خوفٍ ونفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۖ ۝٤٧ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أن ينتبهوا إليها ويراعوها ،
ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٥٧٩

﴿وَيَقُولُونَ لِمَا آمَنُوا بِهِ مَا يُغْنِيَانَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا
فَإِنْسُ الْمَصِيرِ (٨)﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا في أنفسهم ،
ولم يقولوا لاحد ، فمن أخبر مصداً بهذا القول الذى لم يخرج الى
عالم الواقع ، ومن أطلعه عليه ؟ ألا يدعروهم هذا الإعلام بما يدور فى
نفوسهم الى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يخفى عليه شيء ،
فهو أعلم بأحوالهم هذه : الأول : يستمعون إليك . والثاني : وإن هم
نجوى . والثالث : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم
يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حبّ للغة
وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس
ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح فى التحدى ، هكذا شأن الحق
سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر
والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ،
فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا اتجذبوا لسماع
القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مرهفة للأسلوب ومملكة
عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرّون عليها ،
ولديه منهج سيقوّض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإن كانوا

مُعْجِبِينَ بِالْقُرْآنِ [عَجَابًا بَيَانِيًا] بِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنْ مَلَكَاتٍ عَرَبِيَّةٍ .

فَيُرَوَّى أَنَّ كِبَارًا مِثْلَ : النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَأَبِي سَفْيَانَ ، وَأَبِي لَهَبٍ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ بَعْدَ أَنْ يَنَامَ النَّاسُ - مِمَّنْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُمْ : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ » - كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى الْبَيْتِ يَتَسَمَّعُونَ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَلَمَّا ذَا يَحْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ سَمَاعِ هَذَا الضَّرْبِ الْبَدِيعِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَقَدْ حَرَمُوا مُوَاجِهَتَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ مِنْهُ ، فَكَانُوا عِنْدَ انْتِصَافِهِمْ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا مُتَسَلِّلًا مُتَخَفِيًا ، فَكَانُوا مَرَّةً يَكْذِبُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ ، وَمَرَّةً يَعْتَرِفُونَ بِمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ حُبِّ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ ^(١) .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] أَيْ : بِالْحَالِ الَّذِي يَسْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ بِحَالٍ إِعْجَابٍ . ثُمَّ : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] مِنَ التَّنَاجَى وَهُوَ الْكَلَامُ سِرًّا ، أَوْ : أَنَّ نَجْوَى جَمْعُ نَجَى ، كَقَتِيلٍ وَقَتْلَى ، وَجَرِيحٍ وَجَرَحَى .

فَالْمَعْنَى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، وَإِذْ هُمْ مُتَنَاجِيُونَ أَوْ نَجْوَى ، فَكَانَ كُلُّ حَالِهِمْ تَنَاجٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] فِيهِ مِبَالِغَةٌ ، كَمَا تَقُولُ : رَجُلٌ عَادِلٌ ، وَرَجُلٌ عَدُلٌ . وَمِنْ تَنَاجِيهِمْ مَا قَالَ أَحَدُهُمْ بَعْدَ سَمَاعِهِ لَأَيَّاتِ الْقُرْآنِ : « وَانْثَرِ ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ^(٢) ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُثْمَرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمُغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ » ^(٣) .

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (٢١٥/١) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب - مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . رانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٠/١) .

ثم تأتي الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَجْعَلُونَ
إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٤٧) [الاسراء]

وهذا هو القول المعلن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر
مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر ، وأخرى قالوا : كاهن ،
وهذا كله إفلاس في الحجة ، ودليل على غباثتهم العقدي .

وكلمة (مَسْحُورًا) اسم مفعول من السحر ، وهي تخييل الفعل ،
وليس فعلاً ، وتخييل القول وليس قولاً ، فهي صَرْفٌ للنظر عن إدراك
الحقائق ، أما الحقائق فهي ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى - عليه السلام - من جنس السحر
وليست سحرًا ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحرًا ، فقد انقلبَت
العصا حيةً تبتلع حبال السحرة وعصيهم على وجه الحقيقة ، لكن لما
كانت المعجزة في مجال السحر ظنّها الناسُ سحرًا ؛ لأن القرآن قال
في سحرة فرعون : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ (١١٦) [الاعراف] وقال في
آية أخرى : ﴿ يُخَوِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٦٦) [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا
عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى - عليه
السلام - وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من
موسى ليس من سحرهم وتغليلهم أنه حينما قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١٧)

فأطال موسى - عليه السلام - الكلام ؛ لأنه أحب الأتس بالكلام

مع ربه تعالى فاجاب : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه] ثم احس موسى انه اطلال فقال بسوجزا : ﴿ وَلِيَّ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ۚ ۞ (١٩) ﴾ [طه]

فهذا هو مدى علمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿ قَالَ أَتَقْنَاهَا بِمُوسَى ۚ ۞ (٢٠) ﴾ فَاتَّقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْمَى ۚ ۞ (٢١) ﴾ [طه]

فهل خيّل لموسى انها حية وهي عصا ؟ أم انها انقلبت حية فعلا ؟ انها حية فعلا على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوَّجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حية حقيقية ، ثم علمانه ربه : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۚ ۞ (٢٣) ﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا انها ليست سحرا ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا برب موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا ۚ ۞ (٢٤) ﴾ . [الإسراء]

أى : سحره غيره . وهذا قول الظالمين الذين يُلْفَقُونَ لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضا : ساحر . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۚ ۞ (٢٥) ﴾ [يونس]

(١) مش الشجر يهشه : ضرب بهصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿ وَأَهْرُؤُهَا غَمًى ۚ ۞ (٢٦) ﴾ [طه] أى : اسقط بهصاى أوراق الشجر على غنمى لتأكلها . [القاموس اللويزم ٢٠٢/٢] .

فَمَرَّةً قُلْتُمْ : ساحر . ومرة قُلْتُمْ : مسحور . وهذا دليل التخبُّط
واللُّجج ، فإن كان ساحراً فعندكم من السحرة كثيرون ، فلماذا
لا يُواجهونه بسحر مثل سحره ؟ ولماذا لم يسحروكم أنتم كما سحر
غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسحر الساحر ؟

وإن كان مسحوراً سحره غيره ، فهل جرَّبْتُمْ عليه فى سحره
كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن :
فهذا اتهام باطل وقول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأيَّيتم عليه ،
ولم يُصيِّبكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ،
وبالله أمثلكم أيها العرب ، يا أرباب اللغة والفصاحة والبيان - يخفى عليه
أن يُفرِّق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ،
ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام
البشر ، فكلام البشر قسمان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من
دائرة التقسيم : لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

قلو قبرات مثلاً فى كتب الأدب تجد الكاتب يقول : هذا العبد
محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمة ثم تتجلى ، ولن يريينى من سيدى
إن أبطأ سيبه ، أو تاخر غير ضتين غناؤه ، فابطأ الدلاء قيضاً
أحفلها ، وأثقل السحاب مشياً أحفلها ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل
كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإن يكن الفعل الذى ساءَ واحداً فأنفعاله اللاتى سررنُ ألوفُ

فلا شك أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تميز
أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته
فتجدها تنساب انسياباً لا تلاحظ فيه أنك انتقلت من نثر إلى شعر ،
أو من شعر إلى نثر . واقرأ قول الله تعالى : ﴿ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) [الحجر]

أجر عليه ما يجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً
شعرياً : مستعمل فاعلات وكذلك : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ ﴾ (٥٠) [الحجر] تعطيك الشطر الثاني من البيت ، لكن هل لاحظت
ذلك في سياق الآيات ؟ وهل لاحظت أنك انتقلت من شعر إلى نثر ،
أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر
لا يخفى على العربي الذي تمرّس في اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع
تمييز الجيد من الرديء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٤٨)

أي : تعجب مما هم فيه من تخبط ولجج ، فمرة يقولون عن
القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ،
وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أن الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرْسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وَمُرْسَلٌ وهو النبي ﷺ وَمُرْسَلٌ بِهِ وهو القرآن الكريم . وقد تَخَبَّط الكفار في هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم في الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ﴿[الأخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَسْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) ﴿[الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ١٩ فبذل أن يقولوا : فاهدنا إليه قراهم يُفْضَلُونَ الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كبرهم وعنادهم وحقاقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفع منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، وَيُطَمِّثُنْ قَلْبَ رسوله ، ويتحصل عنه الإيذاء في قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ..﴾ (٣٣) ﴿[الأنعام]

أي : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَرَأَيْنَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٤) ﴿[الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهم مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجرؤن على ذلك ولا يهتمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون
بآياتي ، وكلُّ تصرفاتهم في مقام الألوهية ، وفي مقام النبوة ، وفي
مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قولٌ كاذب بعيد عن الواقع : لأن
ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُفسد في الإنسان آلة التفكير والاختيار
بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خلقى أى : خلقه الله تعالى
هكذا ، أو بسبب طارئ كان يُضرب الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختل
عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخر له التكليف إلى سن البلوغ
واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله : لأنه لو كلفه
قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع
ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سن التكليف ليعوده
الصلاة من الصغير ليكون على إلف بها حين يبلغ سن التكليف ،
وليف صيغة الأمر من الأمر .

والإنسان لا يشك في حب أبيه وحرصه على مصلحته ، فهو
الذى يُربيه ويؤقر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق
سبحانه يريد أن يُربى فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء
وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق : لأنها أصبحت عادة .

والذى أعطى للأب حق الأمر أعطاه حق العقاب على تركه ليكون
التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لتعوده بالأبوة

المحسنة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذي أنعم على
وعليك .

فالعقل - إذن - شرط أساسي في التكليف ، وهو العقل الناضج
الحر غير المكروه ، فإن حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ .. ﴾ (٤٨) ﴿ [الإسراء] أى :
قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد ردَّ
الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ
رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ
عَظِيمٍ (٤) ﴿ [القلم]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة
الخلق العظيم ، والمجنون لا خلق له ، ولا يحاسب على تصرفاته ،
فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق في وجه هذا ، ولا نملك إلا أن
نبتم في وجهه ونشفيق عليه .

ولقائل أن يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة
العقل ، وهو الإنسان الذي كرمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة
لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أن نقارن بين حال العقلاء
وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ،
فالعقل نحاسه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة
فى الكون ، ومن جاء وسلطان ألا يعقب على كلامك أحد ، وأن تفعل
ما تريد .

ألا ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل في الدنيا ولا في الآخرة ؟ أليست هذه كافية لتعويضه عن فقد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من مميزات في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٤٨) [الإسراء]

أى : لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل يكون صادقاً وصارفاً لمن يؤمن بك أن يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذّابوا . وقالوا : ساحر وكذّابوا . وقالوا : شاعر وكذّابوا . وقالوا : كاهن وكذّابوا . فَسُدَّتْ الطُّرُقُ فِي وُجُوهِهِمْ ، ولم يجدوا مَنفذاً لصدّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْفٍ يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (٢٢) [الأنفال]

ومنهم مَنْ قال : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [الزخرف]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوِّقُونَ به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْفِ الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقعة الإيمان ، أما كَيْدُهُمْ وتدابيرهم فيتجمّد أو يقلّ . كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا^(١) مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾ (٤١) [الرعد]

(١) قال ابن عباس في تأويل هذه الآية : « أولم يروا أننا نلتصق لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وفي رواية عنه : نقصان أهلها وبركتها » . [تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى فى قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا فى أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلَفِّتَ أنظارنا إلى قضية هامة فى الوجود ومنظمة فى كل الكائنات ، وهى أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقائلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقَلِّبُ التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فتعرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمفريات وأسباب الانحراف ، ويُصدِّرُ إلينا المبادئ الهدامة ويُشكِّكنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : ما يضركم أنتم إن فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعُوهُ يفعل ما يريد ، المهم ألا تقبلَ وألا نتفاعل مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبلنا نحن ولهثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لقلَّةِ الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالحرب يريد أن يثبت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلا أن تتأبى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنى الحضارات فى العالم كله : لأن الخالق سبحانه حيثما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مقومات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقومات ما يعطيك ويخدمك دون أن تتفاعل معه أو تطلب منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلا إذا تفاعلت معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسقي والبذر .

والمعامل في الكون يجد أن جميع ارتفاعات البشر من هذا النوع الثاني الذي لا يعطيك إلا إذا تفاعلت معه ، وقد ترتقى الطموحات البشرية إلى أن تجعل من النوع الأول الذي يعطيك دون أن تتفاعل معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُتَفَعِّلًا بعملك فيه ، كما يحدث الآن في استعمال الطاقة الشمسية في مجالات جديدة لم تكن من قبل . إذن : فهذه ارتفاعات لا يُحَرِّمُ منها مَنْ أَخَذَ بالأسباب وسعى إلى الرقي والتقدم .

إذن : إن جاء يُشَكِّكَ في دينك فدَعُهُ ، وما يقول فليس بعلوم ، إنما المعلوم . أنت إن قبلت منه : ولذلك يجب علينا وعلى كُلِّ قائم على تربية النشء أن نُحَصِّنَ أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتفريب ، ونُعَلِّمَهُم من أساسيات الدين ما يُمكنُهُم من الدفاع والرد بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سهلة في أيدي هؤلاء .

وهذه هي المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه في الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألا ترى الحق سبحانه في قرآنه الكريم يَعْرضُ لشبه الكافرين والملاحدة ويفصلها ويناقشها ، ثم يبين زيفها ، فيقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥ ﴾ [الكهف]

فالمسألة - إذن - تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لتقبل الشيء والانفعال به .

وقد لخص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] فيأتي الرد عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نَكَلِّكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيَّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِي رَعْرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (١٤) ﴾ [فصلت]

فالقُرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أن تلوم من يريد أن يلوى الناس إلى طريق الضلال ، بل دعه في ضلاله ، ورب في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذي جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُعنا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتميز الذي يجتهد ويجد ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غيبَ مَنْ يظن أن الدنيا هي نهاية المطاف ، وأنها الغاية التي ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك نرى مَنْ يموت في بطن أمه ، وَمَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هي الغاية لاستوى الجميع في المكث فيها ، باختلاف الأعمار في الدنيا دليلٌ على أنها ليست غاية .

وعجيب في أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أَلْخِذْ فِي شِبَابِهِ وَيُكْثِرُونَ عَلَيْهِ الْعَوِيلَ ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أي دنيا هذه التي تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أن تَكُونَهُ آثامها وتَلَطَّخَهُ ذُنُوبُهَا ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخْطِئُونَ فِي تَقْدِيرِ الْغَايَاتِ ؛ لأن كل حَدَثٍ يُحْدِثُهُ الْإِنْسَانُ لَهُ غَايَةٌ مِنْ هَذَا الْحَدَثِ ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقل إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات في الدنيا إلى أن يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهي أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أن يصل إلى هذه الغاية .

إذن : فلا بد للإنسان أن يتحعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فَمَنْ اكْتَفَى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة . فلكلّ مرتبته ومكانته ؛
لأنك تعيش في الدنيا بالأسباب وعلى قدر ما تعطى تأخذ .

إذن : فقائيتك في الدنيا أن تكون مسخّوماً ، مع أن خادمك قد
يتمرد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله ،
وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أن يخطر الشيء على
بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، وفي الآخرة
تعيش بمُسبّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريت مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة
لرحجت كفة الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هي عمرك فيها فقط ،
وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أن يُحدّد عمر الدنيا بعدة
ملايين من السنين ، فما دخلك أنت بكل هذه الملايين ؟

فالدنيا - إذن - هي عمرى فيها ، وهذا العمر مظلون غير مُتيقّن ،
وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهى
حتماً بالموت . أضف إلى ذلك أن نعيمك في الدنيا على قدر سَعْيِكَ
وأخذك بأسبابها .

أما الآخرة فهي باقية لا نهاية لها ، فلا يعثرها زوال ولا يُنهيها
الموت ، كما أن مدتها مُتيقّنة وليست مظلونة ، ونعيمك فيها ليس على
قدر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيهما أحسن ؟ وأيُّهما أولى بالسعى والعمل ؟ ويكفى أنك في
الدنيا مهما توفّر لك من النعيم ، وإن كنت في قمة النعيم بين أهلها
فإنه يُنقص عليك هذا النعيم أمران : فإنت تخاف أن تفوت هذا النعيم

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهي نعمة مَكْدَرَةٌ ، أما في الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فاي الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا

آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ٤٩

الاستفهام في الآية استفهام للتعجب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أن صاروا رُفَاتًا وعظامًا .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشيء ، وهو التراب أو الحطام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعَال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت : لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذي استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقل في الماضي ، وهكذا إلى أن نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بد أن يفكروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تركى الحق سبحانه وتعالى بيانها : لأن الناس سوف يتخبطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناغة إيمانية عقدية في كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويهرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قردًا ،

وهذه مقولة باطلة يسهل رُدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القردة
الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين
أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأت ، إنها مجرد شوشرة
وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا
إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم
انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أن يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى
لا نُصْغِيَ إلى أقوال المضللين الذين يخوضون في هذه الأمور على
غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزلل ؛ لأن مثل هذه القضايا
لا تخضع للتجارب العملية ، ولا تُؤخَذُ إلا عن الخالق سبحانه فهو
أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٥١) [الكهف] أى : لم يكن معى أحد حين خلقت السماء
والأرض ، وخلقت الإنسان ، ما شهدنى أحد ليُصِفَ لكم ما حدث
﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً ﴾ (٥١) [الكهف] أى : ما اتخذت من
هؤلاء المضللين مُسَاعِداً أو مُعَاوِناً ، وكان الحق سبحانه يقول لنا :
احكموا على كل من يخوض في قضية الخلق هذه بأنه مُضِلٌّ فلا
تستمعوا إليه .

ولكى تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِلُوا العقل أكثر
مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجدوى العقل حينما
ينضبط في الماديات العملية ، أما إن جنح بنا فلا نجنى من ورائه
إلا الحُمق والتخاريف التي لا تُجدى .

وكلمة « العقل » نفسها من العقل الذي يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف في التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التي هي وسيلة الرؤية ، والأذن التي هي وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً في الرؤية ، وللأذن حدوداً في السمع ، فللعقل حدود في التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أن تضبط العقل في المجال الذي تجود فيه فقط ، ولا تطلق له العنان في كل القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا في قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أي مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقيين على قضية إلا قضية واحدة ، وهي أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فمن الذي أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التي تبحثون عنها ، وترمَحُون بعقولكم خلفها ، في حين كان من الواجب عليكم أن تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذي يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - والله المثل الأعلى - وقلنا : هَبْ أننا في مكان مغلق ، وسمعنا طرُق الباب - فكلنا نتفق في التعمُّل أن طارِقاً بالباب ، ولكن منا من يتصور أنه رجل ، ومنا من يتصور أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أن يظهر لهم عن نفسه لراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قلنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهت المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿ أَأَنذَاكُمَا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتَنَامُونَ خَلَقْنَا جَدِيدًا ۝٤٩ ﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٥٠ ﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ ۝٥١ ﴾ [الأنبياء] لِكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝٥٢ ﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٥٣ ﴾ [الروم] لإعادة الشيء أهون من خلقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

(١) قال السدي : السجل ملك مُرَكَّل بالصف . فإذا مات دُخِلَ كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦٨٢/٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢٠٠/٢) : : الصحيح عن ابن عباس أن السجل في الصحيفة ، وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب يجمع المكنون .

لتشكيك الناس في دين الله ، ومن مغالطاتهم في هذه المسألة أن قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحول جسده إلى رفات و تراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكون فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوّنت في الثانى نُقِصَتْ من الاول ، فكيف يكون البعث - إذن - على حدّ قولهم ؟

والحقيقة أنهم في هذه المسألة لم يفتنوا إلى أن مُشَخَّص الإنسان شيء ، وعناصر تكوينه شيء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحّه الطبيب بإنقاص الوزن فسمى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بامرئين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخْرِجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر ممّا يُخْرِج ، والشيوخ الكبير يُخْرِج أكثر ممّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أمزَكةً وانقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجت منه حتى صار هزيراً هى بعينها الذرات التى دخلته حين تمّ علاجه ؟ إن الذرات التى خرجت منه لا تزال فى (المجارى) ، لم يتكون منها شيء أبداً ، إنما كمية الذرات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص .

وَرَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَةُ مِنْهُ ، قَالَ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤ ﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع
الاجزاء التى تكون فلانا المشخص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥ ﴾

اى : قُلْ رداً عليهم : اِنْ كُنْتُمْ تستبعدون البعث وتستصعبونه مع
انه بَعَثٌ للعظام والرُّفَات ، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات ،
ولها اِلْف بالحياة ، فمن السهل اَنْ نعيدَ اليها الحياة ، بل واعظم من
ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه اَنْ يُعيدكم حتى وان كنتم من حجارة
او من حديد ، وفى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم .

وكان الحق سبحانه يتحدثهم بابعد الاشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم
من الحجارة الى الحديد ؛ لان الحديد اشد من الحجارة وهو يقطعها ،
فلو كنتم حجارة لاعدناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لاعدناكم حديداً .

ثم يترقى بهم الى ما هو ابعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿ أَوْ خَلَقْنَا مِنْ مَّيْمَنٍ مَّكْبُورٍ ۝٦ صُدُّوا عَنْكُمْ فِى طَرْفِ عَيْنٍ فَمَنْ تَبَوَّءُ الدَّخَانَ
يُبْعِدُونَ ۝٧ فَطَرَكُكُمْ اَوَّلَ مَرَّةٍ ۝٨ فَسَيُنْغِضُونَ اِلَيْكُمْ
رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى اَنْ يَكُونَ قَرِيْبًا ۝٩ ﴾

(١) اى : سيمزكونها ويهزونها تعجباً وانكاراً أو سخرية واستهزاء [القاموس القويم

وقوله: ﴿فَمَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ .. (٥١) [الإسراء]

يكبر : أى يعظم من كُبر يكبر . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥٠) [الكهف] أى : عظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعاداً أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فهما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى قَرُصِيَّة الامر إلى أن يختاروا وتجتمع نفوسهم على شيء ، يكون أعظم استبعاداً من الحجارة والحديد .

وتلاحظ في قوله تعالى : ﴿مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ﴾ (٥١) [الإسراء]
جاء هذا الشيء مُبْهِمًا : لأن الشيء العظيم الذي يعظم عن الحجارة
والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلف فيه ، فإن اتفقوا في أمر
الحجارة والحديد فقد اختلفوا في الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهِمَةً
ليشبع المعنى في نفس كل واحد كُلٍّ على حَسَبِ ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً - رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه - عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام على سرعة البديهة والتمرس فى الفتيا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذى

يحتاج في الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون في هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام في هذه القضية ، وانظر إلى دقة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحْضَرَةٌ في ذهنه ، مُرْتَبِةٌ في تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفرد أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذي استحضر درسه وأعدّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والرياح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستقر بالثوب أو بالشئ ويعضى لحاجته ، والسُّكْرُ يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْرَ ، والهَمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله في الكون الهَمُّ » .

فهذه الأجناس هي المراد بقوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ ﴾ (٥١) [الإسراء] فاختاروا أيا من هذه الأجناس ، فאלله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ (٥١) [الإسراء]

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۖ ۞ (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۖ ۞ (١٤٥) ﴾ [البقرة]

وهذا قرل اختياري في المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألا يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مأخذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن : لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ۖ ۞ (٥١) ﴾ [الإسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجب الدال على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجع منهم في النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتى الجواب : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ۖ ۞ (٥٢) ﴾ [الإسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر متوقع يختلف باختلاف الراجي والمرجى منه ، فإذا قلت مثلاً : عسى فلاناً أن يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيرى لك ، أما لو قلت : عسى أن أعطيك كذا ، فهي أقرب في الرجاء ؛ لأننى أتحدث عن نفسى ، وثقة الإنسان فى نفسه أكثر من ثقته فى الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأى فلا أعطيك ، أو يأتى وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يعطيك فلا شك أنها أقرب فى

سُورَةُ الْأَنْزِيلِ

○ ٨٦٠ ○

الرجاء ! لأنك رجوت الله تعالى الذي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . وَإِنْ كَانَ الْقَاتِلُ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالْرجاءُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ مُحَقَّقٌ وَوَاقِعٌ لَا شَكَّ فِيهِ ! فَالْرجاءُ مِنَ الْغَيْرِ لِلْغَيْرِ رَتْبَةٌ ، وَمَنِ الْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ رَتْبَةٌ ، وَمَنِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْغَيْرِ رَتْبَةٌ .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ » ^(١) وَأَشَارَ بِالسَّيَّابَةِ وَالْوَسْطَى ! لِأَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَهُ رَسُولٌ ، فَهُوَ وَالْقِيَامَةُ مُتَجَاوِرَانِ لَا فَاصِلَ بَيْنَهُمَا . كَمَا أَنَّنَا نَقُولُ : كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ، فَالْأَمْرُ الْآتِي مُسْتَقْبَلًا قَرِيبٌ ! لِأَنَّهُ قَادِمٌ لَا مُحَالَةٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْسَدِهِمْ
وَتُظَنُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

هذا في يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحد الخروج عن مرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها في الدنيا ! لأن الخالق سبحانه حين خلق الخلق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح في الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَارٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَقُولُ مَا يَشَاءُ ، وَيَتْرَكُ مَا يَشَاءُ ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا تدخل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلت الإرادة عن الجوارح ، ولم يعد لها

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥١) . والبخاري في صحيحه (٣٤٧/١١ - فتح الباري) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم
القيامة : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ
شَيْءٍ ۖ .. ﴾ (٢١) ﴿

[فصلت]

لقد كانت لكم ولآية علينا في دنيا الاسباب ، أما الآن فنحن جميعا
مرتبطون بالمسبب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول
الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿ لَعَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴾ (١٦) ﴿

[غافر]

ففي الدنيا ملك الناس ، وجعل مصالح أناس في أيدي آخرين ،
أما في الآخرة ، فالامر كله والملك كله لله وحده لا شريك له .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ۖ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الإسراء] أى : يقول لكم
أخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية في الصور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ
بِحَمْدِهِ ۖ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الإسراء] أى : تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قومة
مُسْتَكْفٍ أو مُتَقَاعِسٍ أو مُتَغَطِرِسٍ ، فكل هذا انتهى وقته فى الدنيا ،
ونحن الآن فى الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ۖ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الإسراء]
ولم يقل : فَتُجِيبُونَ ؛ لأن استجاب أبلغ فى الطاعة والانصياع ، كما
نقول : فهم واستفهم أى : طلب الفهم ، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أى :
تطلبون أنتم الجواب ، وتلحون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبون
عليه ، فتسرعون فى القيام .

ليس هذا فقط ، بل : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الإسراء]
أى : تسرعون فى القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد
لا يكون إلا على شيء محبوب ؟

نعم ، إنهم يصدقون الله تعالى : لأنهم عاينوا هذا اليوم الذى طالما
 ذكّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألح
 عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذبوا ، وما هم اليوم يرون
 ما كذبوه وتكشّف لهم الحقيقة التى أنكروها ، فيقومون حامدين لله
 الذى نبّههم ولم يقصر فى نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالذاكرة
 والاجتهاد ، ثم يخفق فى الامتحان فيأتيك معذراً : لقد نصحتنى
 ولكنى لم أستمع .

إِنَّ : فبيانُ الحق سبحانه لأمر الآخرة من النعم التي لا يعترف بها الكفار في الدنيا ، ولكنهم سيُعترفون بها في الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نعم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى في سورة
(الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله
تعالى : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدًا مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسًا فَلَا تَصْرِفُهَا (٣٥) ﴾
[الرحمن] فالآية في نظرهم تتحدث عن نعمة وعذاب ، فكيف يناسبها :
﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن]

وَالْعَامِلُ فِي الْآيَةِ يَجِدُهَا مَنْسُجَةً كُلَّ الْإِنْسَانِ ! لِأَنَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ
أَنْ تُنَبِّهَكَ بِالْعِظَةِ لِلْأَمْرِ الَّذِي يَنْتَظِرُكَ وَالْعَذَابِ الَّذِي أُعِدَّ لَكَ حَتَّى
لَا تَقَعَ فِي أَسْبَابِهِ ، فَالَّذِي يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْعَذَابِ عَلَى الْفِعْلِ لَا يَقْتَرِفُهُ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ إِنَّ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ آيَاتًا كَثِيرًا ۚ ﴾ (الإسراء)

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون في قضية البعث لا يقينون عندهم بها .

(١) الشواظ : القطعة من الذهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] .

﴿ إِنَّ لَيْتَكُمْ ﴾ أى : أقمتم فى الدنيا ، أو فى قبوركم : لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامت انتهت فلن يبقى منها شيء . وكذلك فى القبور : لأن الميت فى قبره شبيه النائم لا يدرك كم لَبِثَ فى نومه ، ولا يتصور إلا النوم العادى الذى تعودته الناس .

ولذلك كل مَنْ سئل فى هذه المسألة : كم لبيتكم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداث فيها ، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا ثُمَّ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (١١٦)

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣)

أى : لم يكن لدينا وعى لنعد الأيام ، فاسأل العادين الذين يستطيعون العد .

وفى قصة العزيز الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ (٢٥٩) [البقرة] على مقتضى العادة التى ألفها فى نومه ، فبوضّح له ربه : ﴿ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ^(١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ .. ﴾ (٢٥٩) [البقرة]

فالمدة فى نظر العزيز كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبون شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقولان

(١) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجدته لم يتغير منه شيء ، لا العصير استعمال ، ولا التين حمض ، ولا التين ولا العنب تقص ، قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢١٤) .

صَادِقَانِ . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَعْطَانَا الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ بَعَثَ الْعَزِيزَ مِنْ مَوْتِهِ ، فَوَجَدَ حِمَارَهُ عِظَامًا بِالْيَمِينَةِ يَصْدُقُ عَلَيْهَا الْقَوْلُ بِمِائَةِ عَامٍ ، وَنَظَرَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ فَوَجَدَهُ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ، وَكَأَنَّ الْعَهْدَ بِهِ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، وَلَوْ مَرَّ عَلَى الطَّعَامِ مِائَةُ عَامٍ لَتَغَيَّرَ بَلْ لَتَحُلَّطَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ .

وَكَانَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ قَبْضَ الزَّمَنِ وَيَسَّطَهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ ، إِنْ شَاءَ : قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مِائَةَ عَامٍ صِدْقٌ ، وَقَوْلُ الْعَزِيزِ ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ﴾ صِدْقٌ أَيْضًا ، وَلَا يَجْمَعُ الضَّدَّيْنِ إِلَّا خَالِقُ الْأَضْدَادِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَبَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ الْقُرْآنُ عَنْ مَوْقِفِ الْكُفَّارِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ ، وَمَوْقِفِهِمْ مِنَ النَّبِوَةِ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ عَنْ مَوْقِفِهِمْ مِنْ مَنِهْجِ اللَّهِ وَكُفْرِهِمْ بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعْطِينَا الدَّرُوسَ الَّتِي تُرَبِّبُ مَنِهْجَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، فَقَالَ تَعَالَى ^(١) :

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٢﴾

وَسَبَقَ أَنْ أَوْضَحْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ عَبِيدٍ وَعِبَادٍ ، وَاتَّهَمَّا جَمَعَ عَبْدٌ ، لَكِنْ عَبِيدٌ تَدُلُّ عَلَى مَنْ خَضَعَ لِسَيِّدِهِ فِي الْأُمُورِ الْقَهْرِيَّةِ ، وَتَعَرَّدَ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ ، أَمَّا عِبَادٌ فَتَدُلُّ عَلَى مَنْ خَضَعَ لِسَيِّدِهِ فِي كُلِّ

(١) ذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص ١٦٦) أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ شَتَمَهُ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَفْوِ . وَقَالَ الْفَرُطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤/٥) : « ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ وَالْعَابِدِيُّ وَابْنُ عَطِيَّةٍ وَالْوَاحِدِيُّ » .

(٢) نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ : أَفْسَدَ وَآخَرَى . وَنَزَعَ الشَّيْطَانُ : رَسَّوَسَهُ وَنَخَسَهُ فِي الْقَلْبِ بِمَا يُسَوِّلُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْمَعَاصِي . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : نَزَعَ] .

أموره القهرية والاختيارية . وفضل مراد الله على مراده . وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ ﴾ (٦٢) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]

وهذا الفرق قائم بينهما في الدنيا دون الآخرة ، حيث في الآخرة تنحل صفة الاختيار التي بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع في الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد : لذلك قال تعالى في الآخرة للشيطان : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۖ ﴾ (١٧) ﴾ [الفرقان]

فسمّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا أَلْحَىٰ هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۖ ﴾ (٥٢) ﴾ [الإسراء]

أى : العبارة التي هي أحسن ، و كذلك الفعل الذى هو أحسن . والمعنى : قل لعبادى : قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن : لأنهم مؤتمرون بأمرك مُصدقون لك .

و ﴿ أَلْحَىٰ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسن الأعلى الذى تتشقق منه كل أَحْسَنِيَّاتِ الْحَيَاةِ ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالذَّبِّيُونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ^(١) .

لأن من باطنها ينبت كل حسن ، فهي الأحسن الكبيرة : لأنك ما دُمْتَ تَوْمَنُ بالله فلن تتلقى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجو إلا هو ، وهكذا يحسنُ أمرُك كُلُّهُ في الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه الترمذى في سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها :
لأنك تريد أن تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفى بنفسك فقط ، بل تحب
أن يشاركك الآخرون هذا الخير : لذلك إذا أردنا أن ننطق بهذه الكلمة
نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعنى عند من لم يشهد ،
فكان إيمانك بها دعاك إلى نقلها إلى الناس ، وبثها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿الَّتِي مِنْ أَحْسَنَ﴾ الأحسن هو : كل كلمة
خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى :
﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ (١٢٥) [النحل]

أو نقول : الأحسن يعنى التمييز بين الأقوال المتناقضة وقررها
أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن - إذن - تشيع لتشمل كل حسن في أى مجال من
مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولذاخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا
كان في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شك أن المعارض كاره لمبدأك
العام ، فإن قسوت عليه وأغلظت له القول أو اخترت العبارة السيئة
فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف في مبدأ عام إلى عداء شخصي .

وإذا تحولت هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججت أوار
غضبه : لأنه في حاجة لأن ترفق به ، فلا تجمع عليه مزاراة أن
تُخرجه مما ألف إلى ما يكره ، بل حاول أن تخرجه مما ألف إلى ما
يحب لتطفئ شرارسته لعداوتك العامة ، وتُقرب من الهوة بينك وبينه
فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ ^(١) حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ [فصلت]

وقد يطلع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتي هي أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتي ، ولم أكسب محبته . نقول له : انت ظننت أنك دفعتُ بالتي هي أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أن تُجرب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌ ، فادفع بالتي هي أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروع قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنْ الَّذِي

ادْفَع - فَدَيْتُكَ - بالتي حتى تَرَى فَإِذَا الَّذِي ^(٢)

لكن ، لماذا نقول التي هي أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ..﴾ ﴿٥٢﴾ [الاسراء] والنزغ هو نخس الشيطان ورسوسه ، وقد قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..﴾ ﴿٢٠٠﴾ [الاعراف]

فإن كنت مُنتهباً له ، عارفاً بحيله فذكرتُ الله عند نخسه ونزغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ﴿٤﴾ [الناس] أي : الذي يخنس ويختفي إذا ذكر الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرت عليك حيلته ،

(١) الولي : الصديق والتفسير ، وهو التابع المحب ، والولي : ضد العدو . [لسان العرب - مادة : ولي]

(٢) قوله : حتى ترى فإذا الذي ، أي : حتى ترى تحقيق ما في الآية الكريمة : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت] فنقلب العداوة محبة بعداومة دفعك بالتي هي أحسن .

الاشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بآمون الاشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قول إخوة يوسف : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ۚ ﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به : ﴿ وَالْقَوَّةَ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ۚ ﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لآخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَتْلُفُهُ بِعُضِّ السَّيَّارَةِ ۚ ﴾ [يوسف] وهكذا تضاعل الشر في نفوسهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٢ ﴾ [الإسراء]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم - عليه السلام - فهي عداوة مُسَبِّقَةٌ ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ ﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يَعْلَمُ ابنه علوم الحياة ووسائلها أن يَعْلَمَهُ قصة العداوة الأولى بين الشيطان وادم - عليه السلام - وَيُعْلِمَهُ أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليَكُنْ على حَذَرٍ من خواطره وسأوسه ، وبذلك يُرَبِّي في ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونزغهِ ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الإبناء حتى ترسخ في أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٢ ﴾ [الإسراء]

أى : كان ولا يزال ، وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ لَنْ أَخْرُجَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنُ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ ﴾ [الإسراء]

أى : لاتعهدتهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ بِرَحْمَتِكَ أَوْ إِنْ يَشَاءُ
يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

في هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه
إن شاء يرحمنا بفضله ، وإن شاء يُعَذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه
لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى
ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالة واقفاً تحت طائفة العقاب ؛ لذلك
يَحْسُنُ بنا أن ندعوا الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل
لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُبَيِّنُ الْعَصَاةَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ
بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحيثما كان المسلمون الأوَّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة
والتعذيب ولا يجدون مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ هَذَا التَّعْذِيبِ ، فكانوا يذهبون إلى
رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر في أنحاء
العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذي يلجأ إليه هؤلاء
المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً
لا يظلم عنده أحدٌ » ^(١) .

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وقتلوا
وأوأوا ما يصيبهم من البلاد والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ،
وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عصبه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال
أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا
ببلادهم حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . حديث طويل أخرجه البيهقي في
دلائل النبوة (٣٠٦/٢) وابن هشام في السيرة النبوية (٢٢٦/١) .

لقد كانوا في مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ،
فالضعيف منهم عاجزون عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية
الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على
الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أؤمر ،
لم أؤمر » .

لأن الله تعالى أراد ألا يبقى للإيمان جندي إلا وقد مسّه العذاب ،
وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمل الشدائد ؛
لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله في الأرض ، ولا شك أن
القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بد من تمحيص
المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام في عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرّت
به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربة
المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمون على حمل منهج
الله ، والانسياح به في شتى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى في
صفوف المؤمنين من يحمل راية الإيمان لمغفم دنيوى ، فالغنيمة في
الإسلام ليست في الدنيا بل في جنة عَرْضُهَا السموات والأرض .

لذلك ، ففي بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل
يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم
أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم
لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي
أن تؤوونا وتتصرونا وتعنعرونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما
لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

لا ، بل قال : « لكم الجنة » ^(١) قالوا : فلك ذلك .

فهذه هي الجائزة الحقيقية التي ينبغي أن يفوز بها المؤمن : لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا في ظل الإسلام ، إذن : فالتبى صادق في هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بد لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى : ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ بِرَحْمِكُمْ ۖ ۝٥٤ ﴾ [الإسراء] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن في الحبشة ﴿ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۖ ۝٥٤ ﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مقصوداً لكي يُحصَ إيمانكم ويُميز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٥ ﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوض من صاحب الشأن يفعل شيء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولست مسئولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولست وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۖ ۝٥٥ ﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قدره ، بل هي رحمة به ورافة ، كأنه يقول له : لا تُحمل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه في آية أخرى بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٥٠/٢) من حديث عامر الشعبي وأحمد في مسنده

(٤/١٢٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٩٤/٤) لابن سعد في الطبقات الكبرى .

(٢) بضع نفسه : قتلها مما وغبطاً وحزناً . [القاموس القويم ٥٦/١] .

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - في هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمة به ، وشفقة عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصَحِّح للرسول خطأ وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه بُرُءٌ ۚ﴾ (٢) [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذي جاءه سائلاً عن الدين ، وشقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكان الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حرصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١)﴾ [التحريم]

والتحريم تضيق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيق على نفسه ، وحرم عليها ما أحله الله لها . كما تعتب على ولدك الذي سهر طويلاً في المذاكرة حتى أرق نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝ (٥٥)﴾

(١) أخرج النسائي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرهما ، فانزل الله عز وجل : ﴿يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١)﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٦) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ ۝٥٥ ﴾

[الاسراء]

مَنْ الَّذِي يُفَضَّلُ ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي يُفَضَّلُ بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أَنْ نُفَضَّلَ إِلَّا مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ ؛ لأنه سبحانه هو الذي يملك أَنْ يُجَازِيَ عَلَى حَسَبِ الْفَضْلِ ، أما نحن فلا نملك أَنْ نُجَازِيَ عَلَى قَدْرِ الْفَضْلِ .

لذلك قال النبي ﷺ : « لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرُ مَنْ يُونُسُ بْنُ مَتَّى » ^(١) .

لأن الذي يُفَضَّلُ هو الله تعالى ، وقد نُصِّصَ عَلَى هَذَا التَّفْضِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ ۝٥٦ ﴾

[البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى مَنْ أَنْ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ قَدْ فَضَّلَهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ لِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنْ مَشَقَّةٍ فِي دَعْوَةِ أَقْوَامِهِمْ ، وَلِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ حَمْلِ مَنَهِجِ اللَّهِ وَالْإِنْشِيَاخِ بِهِ ، أَوْ مِنْ طَوْلِ مَدَّتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٥ ﴾

[الاسراء]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال النُّوَوِيُّ في شرحه لمصحيح مسلم (١٤١/١٥) : « قَالَ الْعُلَمَاءُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَحْضِلُ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ ، لَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ .. وَالثَّانِي : أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا زَجْرًا عَنْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ شَيْئًا مِنْ حَقِّ مَرْتَبَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » .

اختلت له ملكة من الملكات ضَعَفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال معن لا يملكه ، بل يطلبه معن يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ .. ﴾ (٦٧) ﴿ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِياً إِلَيْهِ .. ﴾ (٨) ﴿ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضرُّ وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وَضَرَبْنَا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَثَلاً بَحَاقِ الصَّحَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الرَّيْفِ فِي الْمَاضِي وَكَانَ مَسْثُولاً عَنْ صِحَّةِ النَّاسِ ، وَيُقَوِّمُ مَقَامَ الطَّبِيبِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، فَإِذَا مَا عَيْنٌ بِالْقَرْيَةِ طَبِيبٌ هَاجَمَهُ الْحَاقُّ وَأَفْسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَأَشَاعَ عَنْهُ عَدَمَ الْعِلْمِ وَقَلَّةَ الْخَبِيرَةِ لِيُظَلَّوْا لَهُ وَجْهَ النَّاسِ ، وَلَا يَشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي رِزْقِهِ ، وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَأَصِيبَ الْحَاقُّ بِضُرٍّ ، حَيْثُ مَرَضَ وَلَدَ لَهُ ، فَإِذَا بِهِ يَحْمِلُهُ خَفِيَّةً بَلِيلٌ ، وَيَتَسَلَّلُ بِهِ إِلَى الطَّبِيبِ ، وَلَكِنْ سَرِعَانَ مَا يَنْكَشِفُ أَمْرُهُ وَيُفْتَضِّحُ بَيْنَ النَّاسِ .

إذن : الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسَّكم الضرُّ فاذهبوا إلى مَنْ ادَّعَيْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ وَادْعُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَجِيبُوا وَلَنْ يَدْعَوْهُمْ ، وَلَوْ دَعَوْهُمْ فَلَنْ يَكْشِفُوا عَنْهُمْ ضُرَّهُمْ : ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ .. ﴾ (٩٦) ﴿ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦ ﴾ [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعذابكم ، فهم - إذن - لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر فى ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم : لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم - فرضاً - ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كشف الضر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه ^(١) :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ^(٢)

أَيْهُمْ أَقْرَبَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧ ﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ١٧٢ ﴾ [النساء]

(١) سبب نزول الآية : أخرج مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم نفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتَقَرَّبُ به إلى الغير ، وهى الوسيلة والقربى . وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب - مادة : وسل] .

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبون أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرب إليه سبحانه ، فكيف - إذن - تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَفِئُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الرَّسِيلَةَ ۖ ﴾ (٥٧) [الاسراء] أى : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أى : كلما تقرب واحد منهم إلى الله ابتغى الله أكثر من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغى القربى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٥٧) [الاسراء]

أى : يجب الحذر منه وتجنب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاك منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شك أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوجدانية فى آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أن شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ۖ ﴾ (١٨) [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهود والمعينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أن يطلب منا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته فى الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للشيء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويغير من وضع

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكَ لِهَٰذِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧)

[هود]

فهذه آيات مُخَصَّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ،
وتُثَبِّت المبدأ السابق والسور العام الذي جاءت به الآية ، فيكون المعنى
- إذن - وإن من قرية غير غافلة وغير مُصْلِحَة إلا والله مُهلكها
أو مُعَذِّبها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ۖ ﴾ (٥٨)

[الأنعام]

﴿ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبْقَى منهم أحداً .

﴿ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فلما أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد
الناس إلى الصواب فيها ونِعِمَّتْ وَتَنَتَّهَى المسألة ، فلما لم يَفْتَنُوا
وَأَصْرُوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول
الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

والواقع أن فى حاضرتنا شواهد عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ
لأى قرية طغت وبعثت أن ينالها شيء من العذاب ، والامثلة أمامنا
واضحة ، ولا داعى لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلاء حى

يشعر بالعذاب ويُحسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما جاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء في هذا الوقت لم يكونوا مُطالبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبي الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اانْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ أَلا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْأَتْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ ﴾ (٢٤٦)

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحمل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشى أن يفرض عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يبقَ معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهمة الإنسانية في هذا الوقت لم يكنْ عندها استعداد ونضج لأن تحمل سلاحاً في سبيل الله ، فكان على الرسول أن يُبلِّغ ، وعلى السماء أن تؤدّب بهذا اللون من العذاب الذي يستأصلهم فلا يبقى منهم أحداً .

أما في أمة محمد ﷺ فقد رحمتنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ [الأنفال]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حُملُ رسالته ونُشرُ دعوته ، والانسياح بمنهج الله في شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقَدِّرُ غفلة الناس عن المنهج ، ويُقَدِّرُ فكرة التأسى بالجيل السابق ، فهذان مُعَوَّقان في طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأسوة سيئة ، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم ، ثم بَلَّغَ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثت الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِبَ في الإنسان من حُبِّ للشهوات ، وهذه الشهوات هي التي تصرفه عن منهج ربه ، فلأن حدثت غفلة في جيل فإنها سوف تزداد في الجيل التالي ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مؤثرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسي بالجيل السابق .

إذن : يتوالى الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا يدُّ أن الحق سبحانه سيبعث في مواكب الرسل مَنْ يُنَبِّه الناس .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٥٨٦٢٩

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خَيْرَ أمة أخرجت للناس : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أمة أخرجت للناس .. ﴾ (١١٠) ﴿ [إلى عمران] لماذا ؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (١١١) [إلى عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حمل رسالة الدعوة ، وقد كرم الله أمة محمد بأن جعل كل من آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلغ الرسول من عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تبلغ من بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها ، قَرَبُ مَبْلُغِ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(١) .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولاهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبئنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة في مجال حمل الدعوة ونشرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يؤتى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وترصد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعى هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جذب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٢٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فَأَنْتَ حَارِسٌ عَلَى بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسَدَّهُ بِصَدَقِ
انْطِبَاعِكَ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَبِصَدَقِ انْقِيَادِكَ لِقَضَايَا الْإِسْلَامِ . وَبِهَذَا
السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الإيمان ، ويتراءى
لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويمكّموا عليه
بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فَمَنْ أَرَادَ الصُّورَةَ
الحقيقية للإسلام فليأخذها من منابع الدين في كتاب الله وسنة
رسوله ، فَإِنْ رَأَيْتَ بَيْنَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ سَارِقًا فَلَا تَقُلْ : هَذَا هُوَ
الْإِسْلَامُ ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ حَرَمُ السَّرْقَةِ ، وَجَعَلَ لَهَا عَقُوبَةً وَحَدًّا يُقَامُ
عَلَى السَّارِقِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً عَلَى دِينِ اللَّهِ .

لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا في الدين
الإسلامي لم ينظروا إلى تصرفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه
من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفرنسى الذى قال : الحمد لله
الذى هدأتى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه فى الحقيقة لو
اطلع على أحوالنا الآن لكان فى المسألة كلام آخر .

إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عدل وإنصاف لا بدّ
أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ عَدَلٍ وَإِنْصَافٍ
إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا قَضِيَّةَ التَّدِينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِنْ اقْتَنَعَتْ بِهَا عَقُولُهُمْ ،
وَفَرَّقَ كَبِيرٌ بَيْنَ الْقَضِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْقَضِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ .

ومن هؤلاء الكاتب الذى ألف كتاباً عن العظماء فى التاريخ
واسمها : « العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله » وهو كاتب غير

سورة الاسراء

٥٨٦٢١

مؤمن ، لكنه أخذ يستقريء صفحة التاريخ ، ويسجل أصحاب الاعمال
الجليلة التي أثرت في تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة
بينهم وجد أن اعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يترب محمد في
مدرسة ، ولم يتخرج في جامعة ، ولم يجلس إلى معلم .

الم تسال نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟
ولماذا استحق أن يكون في المقدمة ؟ لقد ذكرت حيثيات النبوغ في
جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة في جامعات وعلى أساتذة
واطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ في رسول الله ؟ ألم
تعلم أنه أمي في أمة أميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه
القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارت خلافاً بين رجال
القانون في موضوع إقامة حدّ الرجم على الزاني المحصن^(١) والجلد للزاني
غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم
فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزاني المحصن سنة .

وهذا قول خاطيء ويغيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنّة
الدليل وسُنّة الحكم ، فسُنّة الدليل أن يكون الأمر فَرَضاً ، لكن دليله
من السنة كهذه المسألة التي معنا ، وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث
ركعات وهي فَرَضٌ لكن دليلها من السنة ، أما سُنّة الحكم فيكون
الحكم نفسه سُنّة يُكسب فاعله ، ولا يُعاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً في
الركوع مثلاً .

(١) إحصن الرجل وأحصنت المرأة : تزوج وكان الزواج حصن يحمي المتزوج من الوقوع في
الشبهات فهو مُحَصَّن ، [القاموس القويم ١/ ١٥٧] .

إذن : فرجم الزاني المحصن فرض ، لكن دليله من السنة ،
فالسنية هنا سنية دليل ، لا سنية حكم .

فمن يقول : إن الرجم لم يرد به نص في كتاب الله ، نقول :
الدليل عليه جاء في السنة ، وهي المصدر الثاني للتشريع ، حتى على
قول من قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففي القرآن :
﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

إذن : ففعل الرسول ﷺ كنص القرآن سواء بسواء ، وهل رجم
في عهد رسول الله أو لم يرجم ؟ رجم فعلاً في عهد رسول الله^(١) ،
فإن قال قائل : فهذا ليس نصاً في الرجم ، نقول : بل الفعل أقوى
من النص : لأن النص قد تناول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل
تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد في هذه الآية ، في
قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ﴾ (٢٥) [النساء]

فيقولون : الرجم لا يُنصف . إذن : ليس هناك رجم . نقول :
أنتم لم تفرقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلاء
لحي يشعر ويحس بهذا الإيلاء ، والمقصود به (الجلد) .

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٦٩١ - ١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى
رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إني زنت
فأعرض عنه فاستنحي ثفاً وجهه فقال له : يا رسول الله إني زنت فأعرض عنه حتى ثنى
ذلك عليه مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك
جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به
فارجموه » .

إِذْ : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ﴾ (٢٥)
 [النساء] أى : من الجُنْد ، وهو الذى يُنصَف ، ولو كان الحكم عاماً
 لَقَالَ : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : ﴿ مِنْ الْعَذَابِ .. ﴾
 (٢٥) [النساء] دليل على وجود الرِّجْم الذى لا فَرْق فيه بين حُرّة وأمة .

وكذلك نلاحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان -
 عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حينما تفقد الطير ، واكتشف غياب
 الهدم : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. ﴾ (٢٦) [النمل]

ولسائل أن يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن يتأهلها الإهلاك
 أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لا بُدَّ أن يعسَّهم شيء من هذا : لأن الله تعالى لو أخَّر كل
 العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعم الفساد فى
 الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع
 ظلمه لاغرامهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ،
 ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولعلموا أن عاقبته وخيمة ،
 ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، أما لو تأخر
 عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالويل ممَّن لا يؤمنون بها ..

لذلك لما مات رأس من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يرَ الناس
 عليه أثراً لعذاب أو نعمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجَازَى
 فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته : لأنه يستحيل أن يُقْلَتَ
 الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُم

على المخالفين لكم من الراسخين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قلت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلت : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظهم من العقاب الذي أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أن تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإن أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصَفِّيَ معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. ﴾ [الطور] وأريد منكم أن تطلعوا على تفسير هذه الآية التي نحن بصددنا : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) [الإسراء]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفي^(١) ، وسوف تجدون به أمثلة تؤيد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُعْمَلُ ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهة فويل لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس^(٢) . اقرأوا هذا الكلام عند النسفي .

ثم يقول تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) [الإسراء]

(١) النسفي هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧٠٦ هـ) وكتابه في التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفي هذا في تفسيره (٢١٨/٢) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها » وساق ما قاله الشيخ الطبراني هنا بنصه .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٦٢

أى : مُسَجَّلٌ وَمُسَطَّرٌ فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فى الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) [الإسراء] وثانى الأحداث بغير ذلك ، بل لابد أن يؤكد هذه المقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه^(١) :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَاقِبَتُنَا تُمُودُ النَّاقَةُ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٦٣)

الآيات : جمع آية ، وهى الامر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبر الاعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٣٧) [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الاحكام .

فالآيات إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فايها

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : سأل اهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذمبا ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقبل له : إن شئت أن تستانى بهم لعنا نجنى منهم ، وإن شئت تؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا املكوا كما املك من قبلهم ، قال : لا ، بل استانى بهم ، فانزل الله عز وجل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ (٦٣) [الإسراء] .

المقصود في الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهي موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهي موجودة أيضاً ، بقي المعجزات وهي موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبي على حسب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ في الفصاحة والبلاغة والبيان : لأن العرب لم يظهروا نبوغاً في غير هذا المجال ، فتحذاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ في الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التي منعها الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تُكُونَ لَكَ جُنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُجَرَّ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ فَرَقْنِي فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

والمتمامل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صدق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا في أمر نبغ فيه قومه ولهم به إمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٦٣٧﴾

عليهم كسفاً يقوم دليلاً على صدق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنْزِلُ من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ^(١) ﴾ مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴿

[يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنْزِلَ عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعْجزه شيء ، ولا يتعاضده شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿

[الأنعام]

مبصرة : أى آية بيّنة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها ^(٢) فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التي طليبوها ،

(١) قال جعفر بن أبي طالب للنجاحشي ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير في تفسيره (٤١٠/٢) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٢٨/٢) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم وهي صخرة متفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشرةم تمخص (أى : دنا ولادها وأخذها الطلق) ، فجاءت كما سألوا ، فتمركت تلك الممطرة ثم انصدمت من ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبتيها بين جنبتيها » .

يل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مَتَأً عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةٌ ﴾ لبيان وضوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ﴾ (١٢) [الإسراء] فهل آية النهار مُبْصِرَةٌ ، أم مُبْصِرٌ فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشيء من شعاع يتطلق من عينه إلى الشيء المرئى فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبين أن الإنسان يرى الشيء إذا خرج من الشيء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشيء إذا كان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة : لأن أشعتها هى التى تُسَبِّبُ الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩) [الإسراء]

أى : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيب الله سعيهم وراوا أنهم لو قتلوه لطلب أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به ليل ، واقترحوا أن يؤتى من كل قبيلة بفتى جلد ، ويضربوه ضربة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر ليوقعوا به ، وكان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدِيرُ له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتي لردع المكذبين عن كذبهم ، وتُخَوِّفهم بما حدث لسابقيهم من المكذبين بالرسول ، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٠)

فكل هذه آيات بعثها الله على أُمم من المكذبين ، كل بما يناسبه .
ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٤١)

أي : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) من شجرة الزقوم التي قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿ إِذْ فَجَّرَتِ الزُّلُومَ ﴾ (٤٢) طَمَامُ الْأَلِيمِ (٤٣) [النخان] ، وقال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُرَاوِ أَمْ شَجَرَةُ الزُّلُومِ ﴾ (٤٤) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلطَّالِمِينَ (٤٥) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٤٦) طَلَمَهَا كَأَنَّ رُءُوسَ الشَّجَائِرِ (٤٧) لِإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا يَلْقَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٤٨) [الصافات] .

عن علمه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإمام بالشئ من كل نواحيه .
وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى العتل (حط
فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن يثألوا منك لا جهرة
ولا تبيهاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط
بهم ، وسيبطل سعيهم ، ويجعل كيدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدى الجن
أيضاً ، فقال : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) ﴾ [الاسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من
الأمور له شيطان يلهمه ، وكانوا يدعون أن هذه الشياطين تسكن وادياً
يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحداهم القرآن أن يأتوا
بالشياطين التى تلهمهم .

وهكذا يطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس
جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفية من جنس ظاهر أو من
جنس خفى ، وباطناتان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس
المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نرد على الفلاسفة
الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ،
فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كانه يستند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٥٨٦٤١

تُسِيرُ الكون ما رأينا في الكون شذوذاً عن الناموس العام : لأن الامر الميكانيكى لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التى تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التى أشعلوها لحرق نبي الله وخطيله إبراهيم - عليه السلام - فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام فى أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكّنه الله من الإمساك به ، أو سخر سبحانه تطفئ النار ، ولكن أراد سبحانه أن يظهر لهم آية من آياته فى خرق الناموس ، فمكّنه من إشعال النار ومكّنه من إبراهيم حتى القوه فى النار ، ورأوه فى وسطها ، ولم يَعدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا ^(١) وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ^(٢) ﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة المخلوق سبحانه وتعالى .

فكان الحق سبحانه يريد أن يُسلّي رسوله ويؤنّسه بمدد الله له دائماً ، ولا يفرّعه أن يقوم قومه بمصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أن يُطمئن المؤمنين ويبشّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ . . . ﴾ ^(٣) [الأنعام]

الإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بُدُّ من العلم مع القدرة : لأنك قد تعلم شيئاً

(١) البرد : خلاف الحر . قال ابن عباس وأبو الجاهلية : لولا أن الله عز وجل قال (وسلاماً) لأذى إبراهيم بردها ، [تفسير ابن كثير ٢ / ١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دفعه ، فالعلم وحده لا يكفي ، بل لا بد له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلق إطلاقاً متعددة ، فقد يراد بها الخلق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ (٤) الْخَنَّاسِ (٥) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس] وقد يراد بها بعض الخلق دون بعض ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ (٦) عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] وكما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. (١٧٣) ﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس في الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦) ﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر في مكة .

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ٢١١/١] .
(٢) سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ (٤) الْخَنَّاسِ (٥) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الزخرف] قال : يعني بالقريتين مكة والطائف ، والمظيم : الوليد بن المغيرة القرظي ، وحبيب بن عمير الشقفي ، أورده السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٢٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه .

سُورَةُ الْأَشْرَافِ

٥٨٦٤٣

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإن كنت تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهي إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإن أردت بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يفلتون منه ولا ينفكون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [يونس]

أى : حُوصِرُوا وضُيقَ عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين ورسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يصيرك ما يُدبرون .

لذلك كان المؤمنون فى أوج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر - رضى الله عنه - الذى جاء القرآن على وفق رأيه يقول : أئِ جَمَعَ هذا ! ويتعجب ، كيف ستهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا^(١) وهذه تسليية لرسول الله وتبشير

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أئِ جمع يهزم ؟ أئِ : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب فى الدرع وهو يقول : سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ، فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣) [الصافات]

فانذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فانت في عناية فلن يصيبك شرٌ من الخارج ، وهم في حصار لن يُفْلِتُوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ .. ﴾ (٦٠) [الأنعام]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإن أردت الرؤيا المنامية تقول : رأيت رؤيا ، وإن أردت رأى البصرية تقول : رأيت رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه : ﴿ رَقَّالٌ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (١٠٠) [يوسف]

ولم يقل رؤيتي . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء^(١) على أنها الرؤيا التي ثبتت في أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ﴾ [الأنعام] أي : حادثة الإسراء والمعراج .

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانئ والحسن البصري وقتادة ، أورد السيوطي آثارهم في الدر المنثور (٢٠٨/٥ ، ٢٠٩) . ونقل ابن كثير في تفسيره (٤٩/٢) اختيار ابن جرير الطبري لهذا الرأي قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أي : في الرؤيا والشجرة .

وبعضهم^(١) رأى أنها الرؤيا التي قال الله فيها : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح]

فقد وعد رسول الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام ، ولكن منعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أن يعدم رسول الله وعداً ولا ينجزه لهم .

ثم بين الحق - تبارك وتعالى - لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فانزل على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا^(٢) أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّهَرُوا فَتَضَيَّكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا^(٣) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا في الحديبية : لأنهم لو دخلوا مكة محاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

(١) فله ابن عباس في رواية عنه قال : الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية ، فردوا فالتفتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العلم المقبل سخطها ، وانزل الله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧)﴾ [الفتح] . قال القرطبي في تفسيره (٤٠١١/٥) : في هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وذلك الرؤيا كانت بالمدينة .

(٢) معكوفاً : مذبذباً من أن يبلغ أماكن نحره . [القاموس القويم ٣٢/٢] .
(٣) لو تزيّلوا : أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٢/١] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛
لأنهم لن يُمَيِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ
بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن
أُتُوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أن يتشكك الناس فيما حدث بالحديبية ،
وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفساروق ليقول لرسول
الله ﷺ : السنا على الحق ؟ اليسوا هم على الباطل ؟ ألست رسول
الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم عَزْرَه يا عمر ، إنه رسول الله ^(١) .

وقد ساهمت السيدة أم سلمة - أم المؤمنين - في حلّ هذا
الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على
رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ،
هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا » ، فقالت : يا رسول الله إنهم
مكروبون ، جاءوا على شوق للبيت ، ثم مُنِعُوا وهم على مَقْرَبَةٍ منه ،
ولا شك أن هذا يشقّ عليهم ، فأمض يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا
راوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه
المسألة ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في
حديث الحديبية الطويل .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/٤) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان
ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس اتحروا واحلقوا فما قام أحد ، ثم
عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة
فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن
منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحده واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ،
فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحده ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون
حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : وَمَنْ قَالَ إِنَّ كَلِمَةَ رُؤْيَا مَقْصُورَةٌ عَلَى الْمَنَامِيَةِ ؟ إِنَّهَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ تُطْلَقُ عَلَى الْمَنَامِيَةِ وَعَلَى الْبَصَرِيَّةِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِ شَاعِرِهِمُ الَّذِي فَرَحَ بِصَيْدِ ثَمِينٍ عَنْهُ لَهُ :

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَاشَ ^(١) فَوَّادُهُ وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَتْ قَبْلُ يَلُومُهَا

أَي : قَالَ اللَّهُ أَكْبَرَ حِينَمَا رَأَى الصَّيْدَ الثَّمِينِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ ، فَعَبَّرَ بِالرُّؤْيَا عَنِ الرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شيء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شيء لا يحدث إلا في المنام . وهذا من دقة الأداء القرآني ، فالذي يتكلم رَبّاً ، فاختار الرؤيا : لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس في ليلة .

فَوَجَّهَ الإعجاز هنا ليس في حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها في رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجَّهَ الإعجاز في الزمن الذي اخْتُصِرَ لرسول الله ، فذهب وعاد في ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لَنَا بَيْتَ الْمُقَدَّسِ » ^(٢) .

(١) من اللشء وهاش : سُرَّبه وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت في لسان العرب مادة هشتي].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يَا مُحَمَّدُ إِنَّا أَعْلَمُ النَّاسِ بِبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ بَنَاؤُهُ وَكَيْفَ هَيْئَتُهُ وَكَيْفَ قَرْبِهِ مِنَ الْجَبَلِ ، قَالَ : فَرَفَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ مِنْ مَقْعَدِهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ كَنَظَرِ أَحَدِنَا إِلَى بَيْتِهِ ، قَالَ : بَنَاؤُهُ كَذَا وَكَذَا وَهَيْئَتُهُ كَذَا وَكَذَا وَقَرْبُهُ مِنَ الْجَبَلِ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ الْآخَرُ : صَدَقْتَ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : صَدَقَ مُحَمَّدٌ فِيمَا قَالَ ، ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢/٢) .

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٨٦٤٩

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن :
فاعترضهم على وقت هذه الرحلة التي كانوا يضربون إليها أكباد الإبل
شهرًا ، ويخبر محمد أنه أتاها في ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث
في هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن
الرؤيا المنامية لا زمن لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصَّل العلماء الباحثون في مسألة وعي الإنسان أثناء
نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أن قالوا : إنَّ الذهن الإنساني
لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هي المدة التي
يستغرقها المنام .

في حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتًا طويلاً .
فأين الزمن - إذن - في الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له : لأن وسائل
الإدراك في الإنسان والتي تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ،
حتى إذا جاءت الرؤيا مرَّتْ سريعة حيث لا يوجد في الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان
يفهمها وهي طائيرة) وهذا يدل على السرعة في الفعل : لأنه يركّز كل
إدراكاته لشيء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت
توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قاتلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى
ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواي ، ثم إلى اليابان ،
أنكذب به ١٩

إذن : قَوْلُ الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عدَّتْ المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكان الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها في ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصهرهم في بوتقة الإيمان لتعريف الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى في ساحتنا إلا صادق الإيمان قوى العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذي سيحكم حركة الحياة في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق في إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التي ميّزت بين أصالة الصديق حينما أخبروه أن صاحبك يحدثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إن كان قال فقد صدق » ^(١) هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزبد الذي زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُونَةُ فِي الْقُرْآنِ ۖ ۞ ﴾ [الإسراء]

أي : وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس أيضاً ، وإن كانت الفتنة في الإسراء كامنة في زمن حدوثه ، فهي في الشجرة كامنة في أنها تخرج في أصل الجحيم ، في قعر جهنم ،

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠١٢/٥) وتمام أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟

فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ،

والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة في جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُحْصِ إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشْكِلَةً ، وخرج على الناس يقول^(١) : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن في الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شيء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالا عقليا ، وإنما يعمل حسابا لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كوني في أصل الجحيم ، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التي قالت للنار : كُوني برُداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزَّيْعَرِي حينما سمع قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴿

[المصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْدَ على التمر ، فقوموا تزقوموا

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظالمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجرة ، وأنا والله ما تعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقوموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤) ﴿ [المصافات] أي : غذبت بالنار ، ومنها خلقت ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٦٥) ﴿ [المصافات] قال : يشبهها بذلك .

معى^(١) ، أى : استهزاء بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنصر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلعَن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلعَن وهى الطعام الذى سياكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون أكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ (٤٢) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) ﴾ [الدخان] والأثيم لا شك ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للأكل وجعلها للشجرة ؟

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خُوف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الزيد بالزيد . أما والله لئن أمكننا فيها لننزقمنها نزقماً ، فانزل الله تعالى ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَقْنُونَةُ لَئِى الْفُرَّانِ .. (٤٤) ﴾ [الإنشراح] . وعزاء السيوطى فى الدر المنثور (٣١٠/٥) لابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لان العربى دَرَجَ على ان كل شىء ضار ملعون ، اى : مَبْعَد من رحمة الله ، فكان الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من اكلها ، وقد اكل منها لانه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون اكلها^(١) .

ومن الإشكالات التى اثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون ان يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبهم ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٦٥) [المصافات]

ووجه اعتراضهم ان التشبيه إنما يأتى عادة ليوضح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبه مجهول لنا ؛ لانه غيَّب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منّا رأس الشيطان ، فكيف يُشَبَّه مجهولاً بمجهول ؟ لاننا لم نَرِ شجرة الزقوم لنعرف طلعها ، ولم نَرِ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية انهم يعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربى فيهم التهيُّب ان يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسالة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهيب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

(١) ذكره أبو يحيى زكريا الانصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٢٨ طبعة ١٩٨٥ م - دار الصابري .

والردُّ على قَوْلِ المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملكة العربية أو التذوق الكافي لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفرق بين اللغة كملكة واللغة كصناعة فقط .

الملكة اللغوية تفاعل واختمار للغة في الوجدان ، فساعة أن يسمع التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة - خاصة على كبر - فهي مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال^(١) :

يَغْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شَدْ خَنَاقَه لِيَقْتُلْنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتْلٍ
أَيَقْتُلْنِي وَ الْمَشْرِقِيُّ^(٢) مُضَاجِجِي وَمَسْتُونَةٌ زُرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ أن يُشَبَّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيّل للغول أجاز أن تُشَبَّه به .

وكذلك الشيطان ، وإن لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلّفنا جميع رسّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتَخَيِّلَةٍ للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلى .

(٢) سيف مشرقى منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب -

مادة : شرف] .

عن الآخر : لأن كلا منهم سيتصوره بصورة خاصة حسب تصورهِ
للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبّه طلع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا
لتصورناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يُشيعَ
بشاعته ، وأن تذهب النفس في تصورٍ بشاعته كل مذهب ، وهكذا
يؤدي هذا التشبيه في الآية ما لا يؤديه غيره ، ويحدث من الأثر
المطلوب ما لا يحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء]

أى : نُخَوِّفُهُمْ بأن يتعرضوا للعقوبات التي تعرض لها المكذبون
للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخذلان .
وانت حينما تُخَوِّفُ إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له ، فقد أحسنت
إليه وأسديت إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذي يُخَوِّفُ ابنته عاقبة
الإهمال ، ويذكره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت
إلى دروسه ويجهتد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة
من الله عليهم ، لأنه يُبَشِّرُ لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن
ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة في قوله تعالى ، في سورة
الرحمن : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكَ شَوَاطِدَ^(١) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصُرَانِ ﴾ (٣٥) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) [الرحمن]

فجعل النار والشوَاطِدَ هنا نعمة : لأنها إلام بشيء سيحدث في
المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

(١) الشواط : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [الفاموس القويم ٢٦١/١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٦٠) [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتسخت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادة إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغ ولا تشريع إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسَوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوفتهم وذكرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجعل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتقتصيب عبد الله بن أبى ملكا عليهم^(١) ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أبى ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أبى، وأن يزداد كُفْرَهُ لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناواته ،

(١) نذكر اليهيفى فى دلائل النبوة (٢٩٩/٢) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى نفسها ، فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لئنفر من الأنصار وفوقه على عبد الله بن أبى والذى قال له ، فقال له سعد بن عباد : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومن عينا بقدومك ، أردنا أن نعتد على رأس عبد الله بن أبى القاج ، ونملكه علينا .

وَأَنْ يَحْسَدَهُ عَلَى مَا نَالَ مِنْ حُبِّ النَّاسِ وَالتَّفَاقُهُمْ حَوْلَهُ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ وَالكَائِدِينَ لِلْخَيْرِ دَائِمًا ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴾ (٦١)

أى : تذكروا أن الحسد قديم قدم وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : والذكرُ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أن تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عيباً وليس قدحاً فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المديرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ ﴾ (٦١) [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسَخَّرُ له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجود طاعة وخضوع لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ .. (٦١)﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التي تحدثت عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم في موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ .. (٦١)﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف تُسَلَّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون في قول الحق سبحانه في القرآن الذي أخذوا منه حجته : ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

فإن كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌ صريح في أنه من الجن ، فإن قال قائل : كيف يكون من الجن ويؤاخذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنص الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى أخذه على عدم السجود لأدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِيلة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة^(١) الذي يزهو عليهم ويتباهى

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان يهازله على الجنان . وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير في تفسيره (١٩/٢) .

بأنه صالح للاختيار في العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .
 فإذا أصبح في منزلة أعلى من الملائكة وأصبح في حضرتهم ،
 فإن الأمر إذا توجه إلى الأدنى في الطاعة فإن الأعلى أولى بهذا
 الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقل منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة
 بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إن كان أعلى
 فعليه أن يسجد ، وإن كان أدنى فعليه أن يسجد .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - إذا دخل رئيس
 الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهب أن
 معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى
 مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التي أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع
 اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى
 ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿ مَا
 مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ .. ﴾ (٧٥) [مر] ، ومرة أخرى يقول : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا
 تَسْجُدَ .. ﴾ (١٢) [الاعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فهم أساليب العربية ؛
 لأنها ليست لديهم ملكة ، والمتأمل في هذه الأساليب يجدها منسجمة
 يكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن
 يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوع الأسلوب القرآني ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ .. ﴾ (٧٥) [مر] و ﴿ مَا مَنَعَكَ
 إِلَّا تَسْجُدَ .. ﴾ (١٢) [الاعراف]

صحيح أن في الأولى إثباتاً وفي الأخرى نفيًا ، والنظرة العجلى تقول:
إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) في
الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حرف زائدة في كتاب الله قول لا يليق ، ونُزَرِه
المتكلم سبحانه أن يكون في كلامه زيادة ، والمستأدب منهم يقول
(لا) حرف واصل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوصل ، بل هي
تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [ص]

كأنه همُّ أن يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما
منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أى شيء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [الاعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك
بانك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن في حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد
فُسِّرَت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۖ (١٢) ﴾ [الاعراف]

فالمخلوقية لله مُتَّفَقٌ عليها ، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية
هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق
الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيت بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ،
وله مهمة في الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من
الاذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التي لا تؤديها الأخرى ؟

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حما مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاخْتَبِرُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٢﴾

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك ، والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شك فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أين) فما تراه أمامك عياناً ، وإن كان للعلم وسائل كثيرة فأقواما الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « تَرَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فأجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

(١) الاحتشاك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال ، قال القوطبى فى تفسيره (٤٠١٥/٥) : « المعنى متعارف . أى : لاستئصال نوريته بالإغواء والإضلال واجتاحتهم » .

والاحتناك : يرد بمعنىين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله . والآخر : بمعنى القهر على التصرف . مأخوذ من اللجام الذى يُوضَع فى حنك الفرس . ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقفه . فهى أداة التحكم فيه . والسيطرة عليه قهراً .

فالاحتناك قد يكون استئصلاً للذات . وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٦) [الإسراء] فيها دليل على علم إبليس ومعرفة قدرته بقدرة الله تعالى . فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿ فِعْزَتِكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) [ص] والمعنى : بعزتك عن خلقك : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (٢٩) [الكهف] .

سأدخل من هذا الباب . أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا أدخل لى بهم . وليس لى عليهم سلطان . لقد تذكر قدرة الله . وأن الله إذا أراد إخراج عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أن يأخذه . فقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٢) [ص]

فقسوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٦) [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم . ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنْ جِئْتُمْ

بِجَزَاءٍ أَوْ كَرِهَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ۝ ٣١ ﴾

قوله تعالى (اذهب) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ۖ ۞ ﴾ [الاسراء] أى : الذين اتبعوك وساروا فى ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤُكُمْ ﴾ . ولم يقل (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل فى حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب فى الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفذ أوامر الله الواردة فى قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْرِزْ مَنِ اسْتَعْلَمْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴾ [الاسراء]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذى يراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذى لا يراد منه التنفيذ ، فالأول طلب أعلى من أدنى لكى يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوب عادة من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتم ولا يستجيب فتقول له : اللعب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟ وهل لو أخفق الولد فى الامتحان سيأتى ليقول لك : يا والدى لقد قلت لى اللعب ؟

إن الأمر هنا لا يؤخذ على ظاهره ، بل يراد منه التهديد ، كما يقولون فى المثل (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءً مَوْفُورًا) أى : وافياً مكتملاً لا نقص فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ^(١) وَشَارَكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤)

قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ..﴾ [الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فِرْ يعنى اتنهض ، وقُمْ من الأرض التى تلازمها وكأنها مُعسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَعَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ..﴾ (٣٨) [التوبة]

فتقول للمتشاغل عن القيام : فِرْ أى : قُمْ وخِفْ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز من استطعت واستخفهم واخذعهم (بِصَوْتِكَ) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ..﴾ (٦٤) [الإسراء]

(١) قوم رجلة أى رجالة . والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب - مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [الغاموس القويم ٢٥٧/١] .

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

﴿٨٦٦٧﴾

أَجْلَبَ عَلَيْهِ : صاح به ، وأَجْلَبَ عَلَى الْجَوَاد : صاح به راكبه ليسرع .
والجَلْبَةُ هِيَ : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبهه الجَلْبَةُ بما نسمعه من
صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن
هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة
مضادة ، فيسهل عليك التغلب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ ۖ ٦٤ ﴾ [الإسراء]

أَي : صَوْتُ وَصِيحُ بِهِمْ رَاكِبِيَا الْخَيْلِ لَتَفْزِعَهُمْ ، والغرب تطلق
الخيل وتريد بها الفرسان ، كما في الحديث النبوي الشريف : « يَا
خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي »^(١) .

وما أشبه هذا بما كنا نَسْمِعُهُمْ : سلاح الفرسان (وَرَجُلِكَ) من
قولهم : جاء راجلاً . يعنى : ماشياً عَلَى رِجْلَيْهِ وَ (رَجُلٍ) يعنى عَلَى
سبيل الاستمرار ، وَكَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَدَيْدَنُهُ ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ
الملازمة ، تقول : فلان رَجُلٌ أَيْ : دائماً يسير مُتَرَجِّلاً . مثل : حاذِرٌ
وَحَذَرٌ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ۖ ٦٥ ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركونهم أموالهم ؟ بَأَنْ يُزَيِّنَ لَهُمُ الْمَالَ الْحَرَامَ ، فيكتسبوا

(١) أورده العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٥٣١) ، وقال : « رواه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ
عن عبد الكريم قال : حدثني سعيد بن جبير عن حمزة المصاطبي ، قال : كان ناس أتوا رسول الله
ﷺ ، فقالوا : نبأيتك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فإمر النبي ﷺ فنودي في الناس :
يا خيل الله اركبي ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » ، وقال ابن حجر في الفتوح (٧/٤١٣) : « روى
ابن عائد عن مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادي ، فنادى : يا خيل الله اركبي » .

من الحرام وينفقوا في الحرام (والأولاد) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب ، فدور الشيطان أن يفسد على الناس أنسابهم ، ويزين لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يزين لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يغيرهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وَعَدْتُمْ ﴾ أي : منيهم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة)

وقوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الإسراء)

أي : لا يستطيع أن يغر بوعوده إلا صاحب الغرّة والغفلة ، ومنها الغرور : أي يزين لك الباطل في صورة الحق فيقولون : غرّه . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصور لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبين له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غرّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (القصص) ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام) ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ .. ﴾ (النساء) ﴿ إِنَّا نَادِيكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ (الطلاق)

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحث على استعماله في كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله منا ذلك ؟ ولماذا يُوقظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبر في كل شيء ؟

لا شك أن الذي يُوقظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٥٨٦٦٩

المنظر والتدبر واثق من حُسْنِ بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذي يبيع
الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته في ثقة ، ويدعوك إلى
فحصها ، وقد يشعل النار ليُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون
تبصُرٍ ما دعانا إلى التفكير والتدبر .

وهكذا الشيطان لا يُمكنك ولا يُزَيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ،
إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتَصْحِباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع
إليك سبيلاً ، ومن حيله أن يُزَيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها
فرصة للمتعة فانتبهزها وخذ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن
تُصدّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر
الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإن كان يوم
القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ^(١) وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي^(٢) .. (٢٧) ﴾

[إبراهيم]

إذن : في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ،
استغفرز ، وأجلب ، وشاركهم ، وعدهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ
مضمونها ، بل للتهديد والإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة ،

(١) المُصْرِخ : المغيث المنقذ من يستخرجُه . واستخرجُه : استغاث به . والمصْرِخ :

الاستغاث والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/ ٢٧٢] .

أو صَدَّ النَّاسَ عَنْهَا ، وَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لَهُ : إِفْعَلْ مَا تُرِيدُ
وَدَبِّرْ مَا تَشَاءُ ، فَلَنْ تَوْفِقَ دَعْوَةَ اللَّهِ : لِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ

بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد : وقلنا كلاماً نُوجِزُهُ
فِي أَنَّ الْعَبِيدَ هُمُ الْمَقْهُورُونَ لِلسَّيِّدِ فِي الْأُمُورِ الْقَسْرِيَّةِ الْقَهْرِيَّةِ ،
وَمُقْتَمِرُونَ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ : أَمَّا الْعِبَادُ فَهُمْ مَقْهُورُونَ فِي
الْأُمُورِ الْقَسْرِيَّةِ الْقَهْرِيَّةِ ، وَتَنَازَلُوا أَيْضًا عَنْ مُرَادِهِمْ فِي الْأُمُورِ
الْإِخْتِيَارِيَّةِ لِمُرَادِ رَبِّهِمْ ، فَفَرَضُوا أَنْ يَكُونُوا مَقْهُورِينَ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِمْ .

وَقَدْ تَحَدَّثَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ عِبَادِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان]

فَعِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ هُمُ أَصْفِيَائُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مُرَادِهِمْ
لِمُرَادِهِ ، وَقَضَّلُوا أَنْ يَكُونُوا مَقْهُورِينَ لِرَبِّهِمْ حَتَّى فِي الْإِخْتِيَارِ ،
فَاسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْحَصَانَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي مُوَاجَهَةِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ
وَعُورِهِ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ۝٦٥﴾ [الإسراء]

وَسَبَقَ أَنْ تَحَدَّثْنَا عَنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء] ففِي مُحَاجَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ
ضَحَايَاهُ الَّذِينَ أَغْوَاهُمْ وَأَضَلَّهُمْ ، سَيَقُولُ :

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ ..

[البقرة]

﴿١٦٤﴾

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ رَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. ﴿٢٢﴾﴾

[يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. ﴿٦٥﴾﴾

[الاسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تَلْبِسُونَهَا .. ﴿١٤﴾﴾

[النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقوت ، ومُسْتَوْدَع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

[الاسراء]

والرحمة اتساع مدد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البر بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التي نعيش عليها إما بَرٌّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإن كانت نسبة اليابس من الأرض الربع أو الخمس ، فالباقي بحر شاسع واسع يزخر من خيرات الله بالكثير .

وطُرق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكل وسيلة من وسائل الركوب حسب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر ، أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أن تُحمل على شيء ، فمن رحمة الله بنا أن جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لجة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمن الغرق .

علمه تعالى بما سيحصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقى يصل بها إلى أن تكون كالجبال ، والآ ففى زمن نزول القرآن لم يكن هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تُبنى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نخفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسير هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألا يغتر الإنسان بما توصل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزامام الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إِنْ بِشَأٍ يَسْكُنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٣٢) [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإن قال قائل الآن : إن توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرت إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدت أن معنى الريح القوة المطلقة أياً كان نوعها ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَعَفَلُوا فَيَقُولُوا وَقَدْ هَبَبَ رِيحُكُمْ ..﴾ (٤٦) [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ ..﴾ (٣٣) [الشورى] يُسْكِنُ القوة المحركة للسفن أياً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإن شاء سبحانه تعطلت كل هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَعْتُمْ إِلَى الْبَرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

سورة الاستغاثه

● 170 ●

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إن أصابه فيه سوء ، فالير منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْيَعٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا
 رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ ﴾ (٢٢)

[يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحيل ولم يجد مَنفذاً
يلجأ إلى الله المتنقذ الحقيقي والمفرج للكُرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم
نفسه ويظلُّ مُتعلِّقاً بالأمل في النجاة .

فَقُولْهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ۖ﴾ (٦٧)

أَي : أَحَاطَ بِهِمُ الْخَطَرُ بِالرَّيْحِ الْعَاصِفِ أَوْ الْمَوْجِ الْعَالِي ، وَأَحْسَنُوا
بِخَطَرَةِ الْمَوْقِفِ وَلَا مُنْقَذَ لَهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، حَتَّى الْكَفَّارُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ
يَصْدُقُونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَخْدَعُونَهَا وَلَا يَكْذِبُونَ عَلَيْهَا ، فَإِنْ آمَنُوا
بِأَكْثَرِ أُخْرَى وَإِنْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ ، فَإِنَّهُمْ فِي هَذَا الضَّيْقِ
لَا يُلْجَأُونَ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، وَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ : لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَعَامُلاً أَنْ
أَلَّهُمْ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَجِيبُ ، وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعاً وَلَا نَجَاةً .

قوله تعالى : ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ ﴾ .. (٦٧) ﴿ [الإسراء] أى : ذهب عن
بالكم من اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خضاطرهم ، فلن يقولوا هنا
يا هبل : لانهم لن يغشوا أنفسهم ، ولن يتساقوا وراء كذبهم فى هذا
الوقت العصيب .

انهم في هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطر لهم ببال

أبدأ : لأن مجرد تذكّرهم يُضعف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة ، والذي يطلبون منه المعونة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إن خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإن كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإن أحاطت به الاخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكرب وإغاثة الملهوف ، حتى وإن كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أن يلجأ إليه ، وأن يدعوه ، فقال :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٣)

[الانعام]

فإن دَعَوَهُ سَمِعَ لَهُمْ وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلَقَهُ وصنَعَتَهُ ، فما أرحمه سبحانه حتى بمن كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إذن لي أن أخسف بأبن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إذن لي أن أخضر على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وما خلقت ، لو خلقتهم لرحمتهم ، فإنهم عبادي ، فإن تابوا إلى فانا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فانا طيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأن يقفوا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه رب ، وما دام رباً فهو

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. ﴾ (٦٨) [الإسراء] أى :
ريحا تحمل الحصى ، وترجمكم بها رجما ، والحصى الحصى
الصغار ، وهي لَوْنٌ مِنَ ألوان العذاب الذى لا يُدْفَع ولا يُرَدّ : لذلك
قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن
البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ،
سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَهًا يَتَّبِعَا ﴾ (٦٩)

أى : وإن نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر : لأنه
قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة
أخرى ، ويوقعكم فيهما أوقعكم فيه من كَرْبٍ فى المرة الأولى ،
فالمعنى : أنجوتُمْ فامنّتُمْ .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ .. ﴾ (٦٩) [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى
الطَّائِسِ ﴿ فَيُغْرِقْكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ .. ﴾ (٦٩) [الإسراء] أى : بسبب كفركم
بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم
وتمرتدتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقرُّوا له
بالفضل .

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يقل الحق سبحانه : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(١) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾ (١١) [الرعد]

وقال تعالى : ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْيٍ منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أن يقف وقفة تأمل وتفكير ؛ ليصل إلى حلٍّ للغز الكون ، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبدِعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني ، وليس لي قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتي ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدني دون قدرة لي عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنْ الذي أعدَّ لي كلَّ هذه الأشياء التي ما أدعاهَا أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أن تُرهقوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذي حيركم .

وسبق أن ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقطعت به السبل في الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدة بأطياب الطعام والشراب ؛ أليس حزيناً به قبل أن تمتد يده إليها أن يفكر كيف أتته ؟

(١) له معقبات : أي ملائكة حفظة يتبعونه يحفظونه ويعصون أوامره . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢٩/٢] .

إذن : كان على الإنسان أن يعمل عقله وفكره في معطيات الكون التي تخدمه وتسخر من أجله ، وهي لا تاتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء في بيان أوجه التكريم في الإنسان ، فمنهم من قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيار ، ومنهم من قال : كُرِّمَ الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنْحَنِيًا إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بأن يأكل بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملاحظ في التكريم^(١) .

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أود أن يلتفت إليه العلماء ، ألا وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَلَقَّيْتُ لَهُ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [طه : ٢٦] .

[الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثة له .

(١) قال القارطبي في تفسيره (٤٠٢٢/٥) : « والصحيح الذي يُعَوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى تعيُّنه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراء من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ
كُتِبَتْهُ يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ (٧١)

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المنادى ، والناس هم المدعون ،
والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى
القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ،
يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصل هذا الإجمال ، فتنادى كل جماعة بمن بلغهم
ومدادهم وذلكم ليُفردى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى
غيرهم .

ونال بعضهم (بإمامهم) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس
بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وسنقر على

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :

- بكتابهم ، بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة
والضحاك .

- بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة
بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .

- بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . قاله مجاهد .

- بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

- بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو
العالية وابن عباس .

- بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٤٠٢٥/٥) .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿ ٨٦٨٢ ﴾

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفَضَّصُوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَمَنْ أُوتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) ﴿

[الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ﴾ (١٩) [الحاقة] إنه منسبور بعمله الصالح الذي يحب أن يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) ﴿ [الإسراء]

الظلم أن تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص في شيء تريد أن تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخلق ؟! إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادة لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخلق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلًا ﴾ عادة يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضل والعلف لماشيئتهم ، ومن التمر أخذ القرآن التقير والقطمير والفتيل ، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل .

فالتقير^(١) : هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة .

(١) ورد لفظ التقير في القرآن مرتين :

- ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ (٢٥) [النساء] .

- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٥٧) ﴿

[النساء]

والقطمير^(١) : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .
والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة .
فمعنى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٦)﴾ [الإسراء] أى : أنه سبحانه
وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنْزَهُ عَنِ الظُّلْمِ مَهْمَا تَنَاهَى
فِي الصُّغَرِ .

وفى مقابل مَنْ أُوتِيَ كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتِيَ كتابه
بشماله . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ
يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٧٥)﴾ [الحاقة] وفى آية أخرى قال : ﴿وَأَمَّا مَنْ
أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (٨٠)﴾ [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى

وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميت بصيرته فى
الدنيا فعسى فى الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شك أنه من أهل
الشمال ، فالآيات ذكرت مرة السبب ، وذكرت مرة المسبب ، ليلتحق
السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكان الحق سبحانه قال : إِنْ مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بيمينه وقراه وتباهى
به لم يَكُنْ أَعْمَى فى دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج
الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

(١) ورد للفظ « القطمير » فى القرآن مرة واحدة :

- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (٢٢)﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة
لا عمى بصر؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك
المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم .
مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِسَ عليها فلا ترى
خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكي يسير في رحلة الحياة على هدى لا يَدُّ له من بصر يرى به المراتى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو يأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذي لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التي يكتسبها الإنسان من منهج الله الذي آمن به وسار على هديه .

وقوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَكْمَنُ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢) [الإسراء]

إِنْ كَانَ عَمَاهُ فِي الدُّنْيَا عَمَى بِصِيرَةٍ ، فَقَمَاهُ فِي الْآخِرَةِ عَمَى
بَصَرٍ ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَةَ مَطْلُوبَةٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ ؛ لِأَنَّ بِهَا سَيُعرفُ
الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ ، وَعَلَيْهَا يَتَرَتَّبُ الْعَمَلُ ، وَلَيْسَتْ الْآخِرَةُ مَجَالًا لِعَمَلٍ ،
إِذْ : الْعَمَى فِي الْآخِرَةِ عَمَى الْبَصَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى :

﴿فَمَنْ آتَىٰ هُدًى فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ﴿١٢٤﴾ ﴿طه﴾

وقال عنهم في آية أخرى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ ﴾ (٩٧)

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية في
الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴾ (٧٥) [مريم]
وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مُؤَاقِعُهَا .. ﴾ (٥٣) [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة
في مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهول المحشر
يكونون عُمى وبُكمًا وصُمًا لتزداد حيرتهم ويشهد بهم الفرع حيث هم
في هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ،
ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم في كَرْبٍ وَحِيَةٍ لا يدرون
شيئًا . وهذه حالة العمى البصري عندهم .

أما الحالة الثانية وهي الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك
وتعالى لأهل المرقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير
الكافر حَادَّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدُّ لنا هنا أن نلاحظ أن الفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن
يختلف السياق ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهِيَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [الإسراء]

فلفظ (أَعْمَى) واحد ، لكن في الآخرة قال (وَأَضَلُّ سَبِيلًا)
إذن : لا بُدَّ أن عمى الدنيا أقل من عمى الآخرة ، كما نقول : هذا
خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خير من هذا فقد فضلت
الأول في الخيرية عن الثاني ، إذن : كلمة خير إما أن تأتي وصفاً ،
وإما أن تأتي تفضيلاً .

يقولون له : دُعُ آلِهَتِنَا نَتَمَتَّعْ بِهَا سَنَةً وَنَأْخُذَ الْغَنَائِمَ مِنْ وَرَائِهَا وَتَحْرِمَ لَنَا بِلَدَنَا - أَيْ : تَقْصِفُ - كَمَا حَرَمْتَ مَكَّةَ . وَمَرَّةً يَقُولُونَ لَهُ : لَا تَسْتَلِمَ الْحَجَرَ وَيَمْنَعُونَهُ مِنْ اسْتِلامِهِ حَتَّى يَسْتَلِمَ آلِهَتُهُمْ أَوَّلًا .

وَمَعْنَى (كَادُوا) أَيْ قَارِبُوا ، وَالْمُقَارَبَةُ غَيْرُ الْفِعْلِ ، فَالْمُقَارَبَةُ مَشْرُوعُ فِعْلٍ وَتَخْطِيطٌ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ ، إِنَّهُمْ قَارِبُوا أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ لَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ ؛ لِأَنَّ مُحَاوَلَاتِهِمْ كَانَتْ مِنْ بَعِيدٍ ، فَهِيَ تَحُومُ حَوْلَ فَتْنَتِكَ عَنِ الدِّينِ ، كَمَا قَالُوا مَثَلًا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، وَتَعْبُدُ آلِهَتِنَا سَنَةً^(١) .

وَمَعْنَى : ﴿ لِيَفْتَنُوكَ ﴾ لِيُحَوِّلُونَكَ وَيَصْرِفُونَكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، لِمَاذَا ؟ ﴿ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْهَا غَيْرَهُ .. ﴾ (٧٣) [الْإِسْرَاءُ] كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ أَأَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ .. ﴾ (١٥) [يُونُسَ]

فَيَكُونُ الْجَوَابُ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) [يُونُسَ]

وَنَلَاظِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يَتَحَمَّلُ الْعَنَتَ عَنْ

(١) أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ قَرِيشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَعْطُوهُ مَا لَا يَكُونُ أَغْنَى رَجُلًا بِمَكَّةَ وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ ، فَقَالُوا : هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَكَفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا وَلَا تَذْكُرْ آلِهَتِنَا بِسَرٍّ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً رَاغِدَةً وَلَكِنْ فِيهَا صَلاَحٌ . قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ آلِهَتِنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، فَتُنْزِلُ الْوَحْيَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَسَاءَلُونِي بِالْكَافِرُونَ ۚ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٧) [الْكَافِرُونَ] ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٦٥١ / ٨) .

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدِّقٌ عندهم ، لكن المسألة عندي أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

الخليل : هو المصالح الذي بينك وبينه حُبٌّ ومودةٌ ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه . ومنه قوله تعالى في إبراهيم : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (١٣٥) [النساء]

وَلَمَّا التَقَيْنَا قَرَّبَ الشُّوقُ جَهْدَهُ
كَأَنُّ خَلِيلًا فِي خِلَالِ خَلِيلِهِ
خَلِيلَيْنِ ذَاكِبًا لَوَعَهُ وَعَتَابًا
تَسْرِبُ أَنْثَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابًا

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذى جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنتَ خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذى جعلهم فى حالة عداوة لك هو منهج الله الذى جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونتَ فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تَكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذى أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤)

﴿وَلَوْلَا﴾ أداة شرط إن دخلت على الجملة الاسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود . كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإن دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادت الحث والحض ، كما في قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ..﴾ (٢٣) [النور]

و (لولا) في الآية دخلت على جملة اسمية : لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبتنا لك لقاربت أن تركن إليهم شيئاً قليلاً .

والمعامل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقل : لولا تثبتنا لك لركنت إليهم ، لا ، بل لقاربت أن تركن فممنعت مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير متصور من رسول الله ، ومع ذلك أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) [الإسراء] أى : ركوناً قليلاً .

مما يدل على أن طبيعته ﷺ - حتى دون الوحي من الله - طبيعة سليمة بفطرتها ، فلو تصورنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه ؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقاربة تعنى مشروع فعل ، لكنه لم يحدث ، مما يدل على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى ﴿ثَبَّتْنَاكَ..﴾ (٧٥) [الإسراء] التثبيت هو منع المثبت أن يتأرجح ، لذلك نقول للمتحرك : اثبت .

ومعنى : (تَرَكْنُ) من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتسئ ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتسئ الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مثلاً فقد حمى ظهره فقط ، وأمن أن يأتيه أحد من ورائه ، فإن أراد أن يحمى جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْنٍ وأن يسند ظهره إلى الركن فيأمن ما أمامه ، ويحتسئ بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حرز يمتنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (١٨٠) [مود] أى : أحتسئ به والجأ إليه .

والحق سبحانه في هذه الآيات يريد أن يستل السخيمة على محمد ﷺ من قلوب أعدائه ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشقُّ على نفسه ويحملها ما لا تطيق في سبيل هذه الغاية . ومن ذلك ما حدث من تركه عبد الله بن أم مكتوم الذي جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش ؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقَّ على نفسه^(١) .

وكان الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يقول : يا قوم إن لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عما أنزل إليه من ربه ، فاعذروه ؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني ، ولا ذنب لمحمد فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما ، فأردت أن تتحمل عنه المسؤولية ، فقلت : أنا الذي كلفته بهذا وأمرته به ، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل .

(١) وقد قال تعالى عن هذا : ﴿عَسَىٰ وَرَأَيْنَا أَنَّ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (١) وَمَا يَذَّكَّرُ لَهُ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الْذِّكْرُ (٢) أَنَا مِنَ اسْتَغْنَىٰ (٣) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٤) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُنَ (٥) وَأَنَا مِنَ جَانِبِهِ يُسَنَّىٰ (٦) وَمَوْ يَخْفَىٰ (٧) فَأَنْتَ عَنْ ظَهْنِي (٨) ﴿[عيس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ

لَا نَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (٧٥)

﴿ إذا ﴾ أى : لو كُنتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكثرة من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى ﴿ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ .. (٧٥) ﴿ [الإسراء] الضعف : مضاعفة الشيء مرة أخرى . أى : قَدَّرَ الشيء مرتين ، ولا يُذَاق فى الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لذقناك ضعف عذاب الحياة و ضعف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضاعف العذاب فى حق محمد ﷺ ؟

قالوا : لأنه أسوة كبيرة وقُدوة يقتدى الناس بها ، ويستحيل فى حق هذا الفعل ، ولا يتصور منه ﷺ ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعف له العذاب ، كما قال تعالى فى نساء النبي : ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٠) [الاحزاب]

ذلك لانهن بيت النبوة وأمّهات المؤمنين ، وهن أسوة لغيرهن من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان فى مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أن يتبيرا عن الشبهة : لأنه سيكون أسوة فعل ، فإن ضلّ فلن يضل فى ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدد الله العقوبة وضاعفها للنبي ولزوجاته .

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لَذَقْنَاكَ ﴾ : لأن الإذاقة من

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٨٦٩٢﴾

الدُّوقُ ، وهو أعمُّ المملَكَاتِ شُيُوعاً في النفس ، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك ، لكنَّ المذاقَ تشترك فيه كلُّ المملَكَاتِ .

ثم يقول تعالى : ﴿لَمْ لَا تَجِدْ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)﴾ [الإسراء]

أي : لا تجد مدافعاً يدافع عنك : أو ناصراً ينصرك : لأن مددك مني وحدي ، فكيف يكون لك ناصر من دوني ؟

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾

وهنا أيضاً يقول تعالى : ﴿كَادُوا﴾ أي : قاربوا ، فهم لا يجردون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمري وتقديري .

وقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ .. (٧٦)﴾ [الإسراء] من استفزّه أي : طلب منه النهوض والخفة إلى الفعل ، كما تقول لولدك العنتاقل : (فز) أي : قم وانهض ، والمراد : يستحثونك على الخروج ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ من مكة بإيذائهم لك ، وعنتهم معك ليحملوك على الخروج ، ويكرهوك في الإقامة بها .

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد وقتادة : نزلت في مم أهل مكة بإخراجها ، ولو أخرجوه لما أسهلوا ، ولكن الله أسره بالهجرة فخرج . قال القرطبي في تفسيره (٤٠٣٠/٥) : « وهذا أصبح : لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر » .

(٢) يريد أرض مكة . قال تعالى : ﴿وَكَايْنِ مِنْ قُوَّةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قُوَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُمْ فَلَا لَأَمِيرَ لَهُمْ (٥٥)﴾ [محمد] . قاله القرطبي في تفسيره (٤٠٣٠/٥) .

وكفار مكة يعلمون أن في خروجه ﷺ من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أسوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) ﴾ [الأنعام]

أي : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه ﷺ من مكة بعام جاءت بدر ، فقتل سبعون من صناديد قريش ، وأسر سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا يرجونها بعد خروجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا
وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

يُوضَحُ الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سنة من سنن الله في الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَّيَّتْ كَلِمَاتُنا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فكان عليهم أن يأخذوا عبرة من الرسل السابقين ، وبما حل بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكذبوا وعُردوا واضطهدوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الفلبة .

والسنة : هي العادة والطريقة التي لا تتخلف ولا تتبدل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الأنعام] ؛ لأن السنة لا تتحول ولا تتبدل إلا بالاقوى الذي يأتي ليغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السنة من الله القوي بل الاقوى ، فهو سبحانه وحده

الذى يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذى لا يُبَدَّلُه أحد ، ولا يُعَارِضُه أحد .



وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أن يأتى لنا بثمرة هذا المنهج وخصيلته النهائية ، وهى أن يستقيم لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهي جاء فى صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبي ﷺ فى قوله : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »^(١) .

إن : هذه هى الأركان التى بُنِيَ عليها الإسلام ، لكن ما حظ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملت لوجدت أننا نشترك كلها فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لائى سبب ، وهى المكررة فى اليوم خمس مرات .

أما باقى الأركان وهى : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالمفقير لا يُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التى هى : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقت أركان الإسلام مع أركان المسلم .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٦٩٦

وتلاحظ في هذه الأركان أن الشهادتين يكفي أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين ^(١) .
ثم قال تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ^(٢) ٧٨

فالصلاة هي الفريضة الثابتة المتكررة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال ، وفيها إعلان ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهي أيضاً تنظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك في الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذل أن كنت تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات في كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم ؛ لأنك تصوم في أثناء الصلاة ، فتتمتنع عن شهوات البطن والفرج ، وكذلك عن أي فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام في غير ألفاظ الصلاة . إذن ؛ في الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

(١) لفظه : « الصلاة عماد الدين » ، فمن أقامها أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . قال الحافظ العراقي في تخرجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف » وقال النووي في التفتيح : « إنه منكر باطل » . لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .
(٢) قال القرطبي في تفسيره (١٠٣١/٥) : « اختلفوا في دلوك في الدلوك على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .
الثاني : أن الدلوك هو الغروب . قاله علي وابن مسعود وابن كعب قال الماوردي : من جعل الدلوك اسماً لغروبها ، فلأن الإنسان يترك عيشه براحتة لقبيلتها حالة الغيب ، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يترك عيشه لشدة شعاعها » .

(٣) الغسق : ظلمة الليل ، وهو وقت صلاة العشاء . [القاموس القويم ٥٢/٢]

أى : الذى يتولى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلوك الشمس : مَيلُها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوسٍ ممتدٍّ وعلى حَسْبِ نظره وقوته يرى الأفق ، فإن كان نظره قسويًا رأى الأفق واسعًا ، وإن كان نظره ضعيفًا رأى الأفق ضيقًا ؛ لذلك يقولون لقليل التفكير : ضيق الأفق .

وأنت حين تقف فى مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعة أن ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفت الشمس ناحية المغرب يُقال : دلت الشمس . أى : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمقابل فى فَرَض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهُر هو أول وقت صلاته رسول الله ؛ لأن الصلاة قُرِضَتْ عليه فى السماء فى رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد ﷺ كان يستقبل الظهر ، فكانت هى الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أقم الصلاة عند دُلُوك الشمس إلى متى ؟ إلى غَسَقِ الليل أى : ظُلُمته ، وفى الفترة من دُلُوك الشمس إلى ظُلُمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء] ونسأل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يقل صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن فى هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن نديًا طريًا وتستقبله استقبالا واعيا قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء]

استطراق العبودية لله ، فانت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ،
الجميع خاضع لله راكم وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً في مناسك الحج ، حيث
يأتي أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً
متضرعاً ، وهو مَنْ هو في دنيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهد ملائكة الليل ،
وهم غير مكلفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهَدِة الملائكة مَشْهَدِة
المصلين الذين كلفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع
وعشرين درجة ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف^(١) .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس
بالوقت ، وبآية كونية تدل عليه هي الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ،
أو حُجِبَتْ عَنَّا بغيمة أو نحوه ؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويعمل تفكيره في إيجاد
شيء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتقت القرائح عن آلات ضبط الوقت
الموجودة الآن ، والتي تُيسر كثيراً على الناس ؛ لذلك كانت الطموحات
الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء
المسلمين ، على اعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ الْآيَاتِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ

رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝ ٧٩ ﴾

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع
وعشرين درجة » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٦٥٠) .

واقْتَدَى بِكَ فَكَلَّهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَاتِ ، وَحَظُّهُ مِنْ هَذِهِ الْفَيُوضَاتِ .
وَمَنْ تَنَاقَلَتْ رَأْسُهُ عَنِ الْقِيَامِ فَلَا حَظَّ لَهُ .

إِذَنْ : فِي قِيَامِ اللَّيْلِ قُوَّةٌ (إِيمَانِيَّةٌ وَطَاقَةٌ رُوحِيَّةٌ ، وَلَمَّا كَانَتْ مَهْمَةً
الرَّسُولِ فَوْقَ مَهْمَةِ الْخَلْقِ كَانَ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَزِيدَ مِنْ حَظِّهِمْ ،
فَاعْبَاهُ الرَّسُولُ ﷺ كَثِيرَةً ، وَالْعِبَاءُ الثَّقِيلُ يَحْتَاجُ الْإِتِّصَالَ بِالْحَقِّ
الْأَحَدِ الْقَيُومِ ، حَتَّى يَسْتَعِينُ بِلِقَاءِ رَبِّهِ عَلَى قَضَاءِ مَصَالِحِهِ .

وَمَنْ الْعَجِيبُ أَنْ يَنْصَرِفَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ ، وَيَتَغَافِلُونَ
عَنْهَا ، فَإِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ لَا يُهْرَعُونَ إِلَى الصَّلَاةِ ، بَلْ يَتَجَلَّلُونَ ، يَقُولُ
أَحَدُهُمْ : أَنَا مَشْغُولٌ ، وَهَلْ شَغَلَ الدُّنْيَا مَبْرِرًا لِلتَّهَافُوتِ فِي هَذِهِ
الْفَرِيضَةِ ؟ وَمَنْ يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ بِالصَّلَاةِ تُفْتَحُ لَكَ الْأَبْوَابُ ، وَتَقْضَى فِي
سَاعَةٍ مَا لَا تَقْضِيهِ فِي عِدَّةِ أَيَّامٍ .

وَنَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَهَاوَنُونَ فِي الصَّلَاةِ وَتَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا عَنْهَا ،
فَإِنْ صَلُّوا صَلُّوا قَضَاءً ، فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ قَالُوا : الْمَشَاغِلُ كَثِيرَةٌ وَالْوَقْتُ
لَا يَكْفِي ، فَهَلْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الذَّهَابَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ، هَلْ سَيَجِدُ وَقْتًا
لِهَذَا ؟ إِنَّهُ لَا شَكَّ وَاجِدَ الْوَقْتِ لِعَثَلِ هَذَا الْأَمْرِ ، حَتَّى وَإِنْ تَكَالَبَتْ عَلَيْهِ
مَشَاغِلُ الدُّنْيَا ، فَلَمَّاذَا الصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا وَقْتًا ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَافِلَةٌ لَكَ ۚ ۝٧٩ ﴾ [الْإِسْرَاءِ]

النَّافِلَةُ هِيَ الزِّيَادَةُ عَمَّا فَرَضَ عَلَى الْجَمِيعِ (لَكَ) أَيْ : خَاصَّةٌ بِكَ
دُونَ غَيْرِكَ ، وَهَذَا هُوَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ أَخْذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ ﴾ [الذَّارِيَاتِ]

فإن طلبت حقيقة الشيء ، فأمامك حالتان : إما أن تطلب الحقيقة على أنها تفعل فهذا أمر ، مثل : قم ، فإن طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهى : لا تقم .

إذن : (عسى) تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإن رجوت من فلان فقد أعطيك أو يخذلك ، فإن قلت : عسى أن أعطيك فقد قربت الرجاء : لأننى أرجو من نفسى ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يقى بما وعد .
فإن قلت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء : لأنك رجوت من لا يعجزه شيء ، ولا يتعاطمه شيء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقق لا شك فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أى الذى يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يقل : محمود ممن ؟ فهو محمود ممن يمكن أن يتأتى منه الحمد ، محمود من الكل من لدن آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حينما يقف الخلق فى ساحة الحساب وهول المرقف وشدة ، حتى ليستمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ساعتها تستشفع كل أمة بنبيها ، فيردها إلى أن يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها^(١) .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٠٢٨/٥) : « اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال : الأول : وهو أصحاب الشفاعة للناس يوم القيامة . قاله حذيفة بن اليمان .
الثانى : إسمائهم لواء الحمد يوم القيامة . قلت : وهذا القول لا تناقض بينه وبين الأول ، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

الثالث : هو أن يجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسى .

الرابع : إخراجهم من النار بشفاعته من يخرج . قاله جابر بن عبد الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

(٦) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة القامة والصلاة القائمة آت محمداً الرسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » أخرجه البخاري في صحيحه (٦١٤) ، والترمذي في سننه (٢٦١) ، وأحمد في مسنده (٢ / ٢٥٤) .

لهدف ، كـشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صدق ، أما لو دخلت دون هدف أو لتؤذي خلق الله ، فليس في هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرَجَ صدق ، ودخل مُدْخِلَ صدق ، لأنه ﷺ ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعد التربة في مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُصرة والمُؤازرة من أهلها .

فالصدق أن يطابق الواقع والسلوك ما في نفسك ، فلا يكن لك قصور في نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء] (٨٠)

طلب النُصرة من الله تعالى لرسوله ﷺ : لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعَادُونَ الدعوة ، ويُجَابِهونها : لذلك توجه رسول الله ﷺ إلى ربه تعالى الذي أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : ﴿ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء] (٨٠) : سبق أن أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يردع ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴾ [الحديد] (٢٥) : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

سورة الاسراء

٨٧٠٧

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَتْرَكْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..
(٢٥)﴾ [الحديد] وهذه أدوات القوة والردع .

فالحخير من الناس يرتدع بقول الله ويقول الرسول ويستجيب ، أما
الشرير فلا تُجدي معه الحجة ، بل لا بُدَّ من رَدِّعه بالقوة ، فالأول إن
تعرَّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أما الآخر فإن تعرَّض للحلف حلف
كاذباً ، ووجدهما فُرصة للنجاة ، ولسان حاله يقول : أباك الفرج .
وفي الاثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مُدَوِّياً (جَاءَ الْحَقُّ) وما دام
قال للرسول : (قُلْ) فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شك فيه ؛ لذلك أمره
بهذا الأمر الصريح ولم يُوسَّسْ له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله في
عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحول البيت ثلاثمائة وستون
صنماً فَيَكْبِكُ بِهِمْ جميعاً ، وينادى : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء
الحق وزهق الباطل ، وما يبديء الباطل وما يعيد »^(٢) .

أى : جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديه القوة التي يُبديء
بها أو يعيد ، فقد خمدت قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَةٌ ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ..﴾ (٨١) [الإسراء]

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب - مادة : وزع) : « معناه أن من يكفه السلطان عن
المعاصي أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وأورده
القرطبي في تفسيره (٤٠٤٢/٥) وعزاه للبغاري والترمذي عن ابن مسعود .

يشعرنا بأن الحق أتى بنفسه : لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتي فيه ، قلم يأت به أحد ، وكذلك في ﴿ وَزَهَّقَ الْبَاطِلَ ﴾ (٨٦) [الإسراء] فالباطل بطبيعته زاهق مُندجر ضعيف لا بقاء له .

ومن العجيب أن الحق الذي جاء على يد رسول الله في فتح مكة انتفع به حتى من لم يؤمن ، ففي يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة في دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وما هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقفهم أمامه ويقول : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء »^(١) .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورفع رؤوسهم . ومن الحق الذي أظلم مكة بالفتح ما يُروى أن واحداً دخل على النبي ﷺ الكعبة وأراد إيذاؤه ، وحينما وضع يده على رسول الله ﷺ تبدل حاله وقال : فو الله لقد أقبلت عليه ، وما في الأرض أبغض إليّ منه ، فحين وضعت يدي عنده فو الله ما في الأرض أحب إليّ منه^(٢) ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة يستفتحها وفتح الله عليكم ، ثم دخل منابذ قريش من المشركين الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم ، ثم طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فآخذ بمضادتي الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : ابن أخ وابن عم حلیم رحيم . [ثلاثاً] فقال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف : ﴿ قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف] قال : فخرجنوا كأنما نثرنوا من القيور فدخلوا في الإسلام . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥٨/٥) .

(٢) قال ابن مشام في سيرة النبي ﷺ (٣٧/١) : أن فضالة بن عميز بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « فضالة » . قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله عز وجل . قال : فضلك النبي ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١)

[الإسراء]

زَهُوقٌ صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله ؛ لأن الباطل لو لم يؤلم الناس ويزعجهم ما تشوقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتثروا بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق والباطل ، فقال :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٧)

[الرعد]

الحق سبحانه يُمَثِّلُ للحق والباطل بشيء حسِّي فراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء إلى الأودية بين الجبال حاملاً معه صفار الحصى والرمال والقش ، وهذا هو الزَّبَد الذي يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وحين تهب الرياح تُفْحِضُ هذا الزبد جانباً ، ويبقى الماء الرائق الصالح الذي ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثال للحق الذي ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذي لا خير فيه .

أو : يعطينا المثال في صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائح الذي يُوقِدُ النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢)

الآية تُعطينا نموذجين لتلقّي القرآن : إنْ تلقَّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإنْ تلقَّاه الظالم كان عليه خَسَار ، والقرآن حُدُودُ الظالمين يُبَيِّنُ أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن : لأن القرآن خير في ذاته وليس خساراً .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مرّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعِل للماء مختلف . كذلك أكل الدُّسَم ، فإنْ أكله الصحيح نفعه ، وزاد في قوته ونشاطه ، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجَرّاً عليه علة فوق علته .

وقد سبق أن أوضحنا في قصة إسلام الفاروق عمر - رضي الله عنه - أنه لما تلقّى القرآن بروج الكفر والعناد كَرِهه ونَفَرَ منه ، ولما تلقاه بروج العطف والرُّقَّة واللين على أخته التي شجَّ وجهها أعجبه فأمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر في تلقّي القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماء قد ملىء نصفه ، فالمتفائل يُلِفُّ نظره النصف المملوء ، في حين أن المتشاؤم يُلِفُّ نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتلئ . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبيعتهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقّي هذه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَلَيْكُم زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِمَانًا فَأَمَّا

الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ (١٢٥) [التوبة]

فآلآية واحدة ، لكن الطبع المستقبل مختلف ، فالمؤمن يستقبلها
بملكات سليمة ، فيزداد بها إيماناً ، والكافر يستقبلها بملكات فاسدة
فيزداد بها كفرًا ، إذن : المشكلة في تلقى الحقائق واستقبالها أن
تكون ملكات التلقى فاسدة .

ومن هنا نقول : إذا نظرت إلى الحق ، فإياك أن تنظره وفي
جوفك باطل تحرص عليه ، لا بد أن تُخرج ما عندك من الباطل أولاً ،
ثم قارن وقاضل بين الأمور .

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿ (١٧) [محمد]

وقولهم : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] دليل على عدم اهتمامهم
بالقرآن ، وأنه شيء لا يؤبه له .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ أَأَعْجَبِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي
أَذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

ومثال سلامة التلقى من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ،
فقد تستقبله أنت في بيتك فتجده واضحاً في حلقة من الحلقات
أو برنامج من البرامج ، فتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو

لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ،
إلا أن العيب في جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز
الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ ۞ (٨٧) ﴾ [الإسراء] متوقف على سلامة الطبع ،
وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ
من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ،
فبالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاء القرآن شفاءً معنويًّا لأمراض القلوب وعِلَلِ
النفوس ؟ فيخلص المسلم من القلق والحيرة والغيرة ، ويجتث ما في
نفسه من الغِلِّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ،
أم هو شفاء للمعاديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأى الراجح - بل المؤكد - الذي لا شك فيه أن القرآن شفاء
بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للمعاديات كما هو شفاء
للمعنويات ، بدليل ما رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -
وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ،
فأَبَوْا إطعامهم ، وحدث أن لُدِغَ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه
فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعَلٍ^(١) ، وذلك لما راوه من

(١) الجُعَلُ : ما جعله له على عمله . وهو الأجر على الشيء ، فعلاً أو قولاً . [لسان العرب -
مادة : جمل] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بَعَانِيَهُ ۖ

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٢﴾

الله تعالى يريد أن يعطى الإنسان صورة عن نفسه : لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطى الطبيب جرعة الطعم أو التحصين الذى يمتنع حدوث مرض ما . فها هي طبيعة الإنسان وسيمته الغالبة ، وعليه أن يُخَفَّفَ من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرض .

ولكى تُوضَّح هذه المسألة نُمثِّلُ لها - والله المثل الأعلى - بالوالد الذى يعطى للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتى موعد ما تعود عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوَّده على أن يعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد فى الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم . فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذى دعاه إلى هذا التصرف ؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإن كان الابن باراً مؤمناً فإِنَّه لا ينسى فَضْلَ والده الذى وفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِّر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإن كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الرب الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ .. ۝٨٢﴾ [الإسراء]

أى : أعرض عنا وعن ذكرنا وانصرف عن منهجنا . ومن الناس مَنْ يُعْرِضُ عن ذكر الله ، ولكنه يؤدّي منهجه . ولو أدّى المنهج مع ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً .

وإذا شغل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكأنه يخطئه المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى (٧) ﴿ [الملق]

فلاستغناء هنا ليس ذاتياً فى الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهى فى يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعم سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ (٨) ﴿ [الملق]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى فى الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا ﴾ (٨٣) [الاسراء] وهذه صفة مذمومة فى الإنسان الذى إذا ما تعرض لشر أو مسه ضرر يقنط من رحمة الله ، وكان الحق سبحانه يخاطب عبده الذى يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقت بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبب سبحانه ، وما دُمْتَ فى رحاب مسبب الأسباب فلا تياس ولا تقنط .

لذلك يقولون : • لا كَرْهَ وَأَنْتَ رَبُّ • ، فيجوز لك القنوط إن لم يكن لك رَبٌّ يتولّاك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومن له أب لا يلقى لهوم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه فى قضاء حاجاته ، فما بالك بمن له رَبٌّ يرعاه ويتولّاه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه فى كل وقت ؟

والحق سبحانه حينما يُنبّهنا إلى هذه المسألة يريد أن يعطينا الأسوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن

أَدُيْتُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا فَاَنْكُرُوهُ ، اَوْ مَعْرُوفًا فَجَحْدُوهُ ، وَكَيْفَ تَحْزَنُ وَهُمْ
يَفْعَلُونَ هَذَا مَعِيَ ، وَاَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فَكَثِيرًا مَّا اُنْعِمَ عَلَيْهِمْ ،
وَيُؤْسِيْتُونَ اِلَيَّ ، وَيَكْفُرُونَ بِي وَبِنِعْمَتِي .

وسيدنا موسى - عليه السلام - حينما طلب من ربه تعالى ألا
يُقَال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وَاَنَا لَمْ افْعَلْ ذَلِكَ
لِنَفْسِي ؟ ! اِنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَيْسَ فِيهِ ، وَيَكْفُرُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ
وَيَنْكُرُونَ اِيجَادَهُ وَنِعْمَهُ ، فَمَنْ يَقْضِبْ لِقَوْلِ الْكَافِرِينَ اَوْ اِيْذَانَهُمْ لَهُ بَعْدَ
هَذَا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويَقْنَط ؟ لانه في حال النعمة أَعْرَضَ
عَنْ اللَّهِ وَنَآى بِجَانِبِهِ : اَيَّ ابْتَعَدَ عَنْ رَبِّهِ ، لَمْ يَعُدَّ لَهُ مَنْ يَدْعُوهُ وَيُلْجِئُهُ
إِلَيْهِ اَنْ يُغْرِجَ عَنْهُ ضَيْقُ الدُّنْيَا .

إِذَنْ : لَمَّا أَعْرَضَ فِي الْاَوَّلَى يَتَسَّ فِي الثَّانِيَةِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِيبُ
مَنْ دَعَاهُ وَلِجَاءَ اِلَيْهِ حَالُ الضَّيْقِ حَتَّى اِنْ كَانَ كَافِرًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ اِلَّا اِيَّاهُ .. ﴾ (٦٧) [الإسراء]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ

هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤)

أَي : اَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْمَلُ عَلَى طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى طَبِيعَتِهِ ، وَعَلَى
مَقْدَارِ مَا تَكُونَتْ بِهِ مِنْ خَلَايَا الْإِيمَانِ ، اَوْ مِنْ خَلَايَا إِيْمَانٍ اخْتَلَطَتْ
بِخَلَايَا عَصْيَانٍ ، اَوْ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ خَلَايَا كُفْرٍ ، فَالْنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنَّ أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيب ؛ لذلك يقولون : لا تُكافِء مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى^(١):

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(١) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حثب بالمدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسالوه فيستبلكم بما تكرمون ، فأثاء نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت يدي على جبهتي ، فعرفت أنه ينزل عليه . فأنزل الله عليه ﴿ وَيسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أرتهم من العلم إلا قليلاً ﴾ (الاسراء) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير في تفسيره (٦٠/٣) : « هذا السياق يقتضي فيما يظهر بآدي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكة . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إزالتها عليه . »

والسؤال يرد في القرآن بمعان متعددة ، ووردت هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في مواضع عدة ، فإن كان السؤال عن شيء نافع يضر الجاهل به أجابهم القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. ﴾ (٢٢٢) [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢١٥) [البقرة]

فإن كان السؤال عن شيء لا يضر الجاهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما في سؤالهم عن الأملّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدرًا ، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم تعرفها إلا حديثاً أمر غير ضروري ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجاهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أميّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأملّة : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

وقد يأتى السؤال ، ويُراد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

(١) أخرج أحمد بن حنبل في مسنده (٦٠/٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود : آمطونا شيئا شئنا من هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأنعام].

وقد تُطْلَقَ الروح على الوجدى ذاته ، كما فى قوله تعالى :
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٥٧) [الشورى]

وتأتى بمعنى التثبيت والقوة ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نَكُتِّبْ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبُّهُمْ رُوحًا مِنْهُ .. ﴾ (٢٢) [المجادلة]

وأُطْلِقَتِ الروح على عيسى ابن مريم - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ .. ﴾ (١٢١) [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتَعَدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التى بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ فى الإنسان تعطى مادية الحياة ، ومادية الحياة شىء ، وقيم الحياة شىء آخر ، فإذا ما جاءك شىء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً ؟ لا ، بل هو روح الروح ؛ لأن الروح الأولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة فى الآخرة ، فأيهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أن تظن أن الحياة هى حياتك أنت وكونك تُحسُّ وتتحرك وتعيش طالما فىك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم فى دار أخرى أبقي وأدوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) [العنكبوت]

لأن الروح التى تعيش بها فى الدنيا عُرْضَةٌ لَأَن تُؤْخَذَ مِنْكَ ، وتُسَلَبَ فى أى مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً فى بطن أمك ، إلى أن تصير شيخاً طاعناً فى السن .. أما روح الآخرة ، وهى روح القيم وروح المنهج ، فهى الروح الأقوى والأبقى ؛ لأنها لا يعثرها الموت .

إذن : سُمِّيَ القرآن ، وَسُمِّيَ الملك النازل به روحاً ؛ لأنه سيعطيني حياة أطول من حياة القيم في الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. ﴾ (٨٥) [الإسراء]

أي : أن هذا من خصوصياته هو- سبحانه ، وطالما هي من خصوصياته سبحانه ، فلن يطلع أحداً على سرّها . وهل هي جوهر يدخل الجسم فسيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هي مراد (بَكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإن قال لها كُنْ تحيا ، وإن قال ميت تموت ؟

إن علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة : لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٨٥) [الإسراء]

وهل عرف العقل البشري كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح ؟

ولما تعرّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفي : وهل أحطت علماً بكل شيء في الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذي لا تعلم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تقسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهلّة قال : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

وهذه هي الفائدة التي تعود علينا والتي تهمننا من الأهلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التي تمر بها الأهلّة فأمور لا يضر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشيء ليست فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل

الأمي في ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشئ لا تحتاج معرفة كل شئ عنها ، فيكفيك - إذن - أن تستفيد بها دون أن تدخل نفسك في مستاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يوفر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يجدى ، وألا يتعب نفسه ويجهدها في علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره في مثل مسألة الروح هذه ، أن ينشغل بعمل ذي فائدة له ولمجتمع . وأى فائدة تعود عليك إن توصلت إلى سر من أسرار الروح ؟ وأى ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مخاط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التي تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) [الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب من بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلت إليه البشرية من علم ،

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [الثاموس القويم ١٢٨/٢] .

وكانه سبحانه يقول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍ فقد غابت عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله : ﴿ سَتَرِيهِمْ ﴾
آيَاتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَلِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ .. (٥٣) ﴿ [فصلت]

وهاهم العلماء والباحثون يفتنون كل يوم على جديد في الكون
الفسيح وفي الإنسان ، ولو تابعت ما توصل إليه علماء الفضاء
ورجال الطب لهالك ما توصلوا إليه من آيات وعجائب في خلق الله
تعالى ، لكن هل معنى ذلك أننا عسرفنا كل شيء ؟ إن كلمة
﴿ سَتْرِهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخطى واسعة ، ففي الماضي كان التقدم يُقاسُ بالقرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل ؛ لأنها قبل أن تُباع يخرج عليها أحدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فكلُّ ما نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء ، وكنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال ، فابتكارات الإنسان في الكماليات ، أما الضروريات فقد ضمتها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فإذا ما استنفدت العقول البشرية نشاطاتها ، وبلغت مُنتهى ما لديها من ابتكارات ، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في

زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَنْ ^(١) بِالْأَمْسِ .. ﴾ (٢٤)

[يونس]

فبعد ما أخذتم أسرار النعم في الكون على قدر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى النعم ذاته لتروا النعم على حقيقته ، وكلما رأيتم في دنيا الناس ابتكارات وإختراعات تسعد الإنسان ، فهذا ما أعدُّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدُّ الله الخالق لخلقه ؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرت لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعم الحقيقي عند النعم سبحانه .

ولو تأملت هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فدور الإنسان أنه يعمل عقله وفكره في المقومات التي خلقها الله ، لكن مهما وصلت هذه الارتقاءات ، ومهما تطورت هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْلًا ﴾ (٨٦)

(١) أي : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك ، وقال قتادة : كان لم تقن ، كان لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٤/٢ : ٤٦٣]

الحق سبحانه في هذه الآية يريد أن يُرَبِّي الكفار ويُوَثِّبهم ، ويريد أن يُبَرِّئ ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبَلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْتَر ، أو أتى بشيء من عنده ، بدليل أنني لو شئتُ لسلبتُ ما أوحيتُ إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإن سال متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنْزَل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا .. ﴾ (٨٦) ﴿ [الإسراء] بمعنى : لو شئنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد ببيان إمكانية ذلك ليُبَرِّئ موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شيء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .. ﴾ (١٢٨) ﴿ [المران] أنها ضد رسول الله ، وقُدَح في شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أن يتحمل عنه ما يمكن أن يفسد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندي أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذي فعل شيئاً ، فيأتي سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذي أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد في قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقداً الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أزدوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بترك .

ونلاحظ في الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إن » ، وهي

تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتى للأمر المحقق .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه أنه إن ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلِيًّا وَكَيْلًا ﴾ (٨٦) [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (٨٧)

قوله تعالى ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴾ (٨٧) [الإسراء] أى : أنك لا تجد لك وكيلاً فى أى شئ إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فضلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨)

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، واسمع بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تحدٍّ للجميع .

﴿ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ .. ﴾ (٨٨) [الإسراء] وهما الثقلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذى هو مناط التكليف . وقد أرسل النبى ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ (٦) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ .. (٧)﴾ [الجن]

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبيغ فيه القوم ليكون
التحدّي في محطه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم
ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى - عليه السلام - العصا واليد ،
وفى من جنس ما نبيغ فيه قومه من السحر ، وجاءت معجزة عيسى
- عليه السلام - إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛
لأن قومه نبيغوا في الطب ، وكانت معجزته ﷺ في البلاغة والفصاحة
التي نبيغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صدق رسالته ، لكن الآيات لا تقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذي يختار الآيات التي تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صدق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات في مجالات لا علم لهم بها ، فكيف يتحداهم الله في مجال لا نبوغ لهم فيه ، وليس لهم أدراية

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لدن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثت لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردت من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس من شاهدها ، فتنبوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكون الشجرة تسعى إليه والحيوان يكلمه ، فالمقصود بهذه المعجزات من شاهدها وعاصرها ، لا من أتى بعد عصره ﷺ .

وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوي يُنظّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفك عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشئ آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والابرس ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أن يفسح لهم جبال مكة ، ويوسع عليهم الأرض ، وأن يحيى لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَكَلَّا أَنْ قَرَأْنَا سِرَّاتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٢١) [الرعد]

أي : كان في القرآن غناء لكم عن كل هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إن كانت

النظر في كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمي رصيداً في كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿وَمَا يَعْزُبُ^(١) عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو فُتِّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً في كتاب الله ، ألا ترى في ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحدّاهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] وأدخل الجنّ في مجال التحدي ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر قانع ، أو أديب مفوه ، أو عبقرى عنده نبوغ بياني شيطاني يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادي عبقر » ، لذلك لم يكتف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبون إليهم القوة في هذا الامر . ثم يقول تعالى : ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] فالتحدى أن يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أن يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الامر ، فمستحيل أن يأتوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصور في مجال التحدي أن يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شك أن المشبه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقي المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الاصل من باب أولى .

فالحق سبحانه في قوله : ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

(١) أي : لا يلجِب ولا يبعد عنه أي شيء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ١٨/٢] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدي ، فليس الهدف منه تهجير القوم ، بل أن تثبت لهم السواسية بين الخلق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هي القضية التي تُزعجهم وتقص مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صدق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبرون لقتله .

ولذلك من غيائهم أن قالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن في حد ذاته ، بل على محمد الذي نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكافة ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٥٤) [النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخلق يختلفون أمام رحمة الله في مسائل الدنيا التي لهم فيها أسباب وسعى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذي ليس في أيديهم ؟ كيف يريدون التدخل فيه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٥٤) [النساء]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآني ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

فَإِنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨١)

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان .

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعاني مختلفة ، فلا بد أن يصرف الأسلوب ويقلبه على أكثر من وجه ، فالذي لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثلاً على ذلك قضية القمة ، وهي الألوهية ووحداية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها في معارض مختلفة هكذا : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ..﴾ (٢٢) [الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفقد العلكة اللغوية التى يتلقى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لفسدتا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإن كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلا) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..﴾ (٩١) [المؤمنين]

فالحق تبارك وتعالى مُنزه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لذهب كل إله بما خلق ، واختص نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجود ، فأيهما يبرزه ؟ إن قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإن لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للالهوية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَبِيلًا ۖ ﴾ (٤٢) [الإسراء]

أى : إن كان مع الله آلهة كما يدعى المشركون لذهب هؤلاء الآلهة إلى ذى العرش يعاقبونه أو يؤذّبونه ، أو يعاقبونه ، لانه انفرد بالملك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ ۝ (١٨) ﴾ [آل عمران]

ولم يأت من ينازعه هذه المكانة ، أو يدّعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتت له هذه القضية إلى أن يوجد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إن لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، والله المثل الأعلى : هب أن جماعة اتصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود فى مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هى لى ، أيشك صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصريف أيضاً فى أسلوب القرآن فى مسألة ادعاء أن الله تعالى ولداً ، تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَدًا ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ ۚ ﴾

الله .. (٢٠) ﴿ [التوبة] فِيرِدُ الْقُرْآنُ هَذَا الزَّعْمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَدْعُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً .. (١٠١) ﴾ [الأنعام]
وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل]

أى : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أن
تأخذوا أنتم البنين : لأنهم المفضلون حسب زعمكم ، وتتركون له
تعالى البنات : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) ﴾
[النجم] أى : قسمة جائرة .

وهكذا يُصَرِّفُ الْقُرْآنُ أَسْلُوبَهُ ، وَيُحَوِّلُهُ لِيَقْنَعَ بِهِ جَمِيعَ الْعُقُولِ ؛ لِيُنَاسِبَ
كُلَّ الطَّبَاعِ . وَتَمْتَازُ لُغَةُ الْعَرَبِ بِالْمَثَلِ وَالْحِكْمَةِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّصْرِيفِ فِي
أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ اسْتِخْدَامُ الْمَثَلِ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ مُوجِزٌ ، يَحْمِلُ الْمَعْنَى الْكَثِيرَةَ
وَيَتَعَشَّقُ لَفْظُهُ ، وَتَقَوْلُهُ كَمَا هُوَ دُونَ تَغْيِيرٍ إِذَا جَاءَتْ مُنَاسِبَتُهُ .

فَإِذَا أُرْسِلَتْ أَحَدًا فِي مَهْمَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ ، فَيُمْكِنُكَ حِينَ عَوْدَتِهِمْ تَقُولُ
لَهُمْ مُسْتَقْفَهُمَا : (مَاذَا وَرَاءَكَ يَا عَصَامُ ؟) هَكَذَا بِصَنِيفَةِ الْمُؤَنَّثَةِ
الْمُفْرَدَةِ ، لِأَنَّ الْمَثَلَ قِيلَ هَكَذَا ، حَيْثُ أُرْسِلَ أَحَدُهُمْ أَمْرًا تُسَمَّى عَصَامَ
لِتَخْطُبَ لَهُ إِحْدَى النِّسَاءِ وَحِينَمَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ خَاطِبُهَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ .
فَصَارَتْ مَثَلًا^(١) .

وَكَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ الَّذِي يَتَعَالَى عَلَيْكَ : (إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَغَدِ
لَا قِيَتَ [عَصَامًا]) إِذَنْ : الْمَثَلُ يَمْتَازُ بِأَنَّهُ يَثْبُتُ عَلَى لَفْظِهِ الْأَوَّلِ
وَلَا يَتَغَيَّرُ عَنْهُ .

أَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ : قَوْلُ شَارِدٍ يَقُولُهُ كُلُّ وَاحِدٍ ، وَهُوَ كَلَامٌ يَقُلُّ
لَفْظُهُ ، وَيَجِلُّ مَعْنَاهُ .

(١) ذكر ابن منظور في لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر . ثم قال :
« عصام هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن شهير الجرمي » ، وقد ذكره
الزركلي في الأعلام (٢٣٢/٤) .

كما تقول : « رَبِّ أَخْ لَكَ لَمْ تَكُنْ أَمَك » .

« لَا تُعَلِّمُ الْعَوَانَ الْخُمْرَةَ »^(١) .

« إِنَّ الْمُنْبِتَ »^(٢) لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، أَيْ : أَنْ الَّذِي يُجْهَدُ دَابَّتُهُ فِي السَّيْرِ لَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَرِيدُ ؛ لِأَنَّهَا سَتَنْقَطِعُ بِهِ وَلَا تُوصِلُهُ .

وَمِنْ الْحِكْمَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الشَّعْرِيَّةُ الَّتِي صَارَتْ حِكْمَةً مُتَدَاوِلَةً :
وَمَنْ يَكُنْ ذَا فَمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالًا^(٣)
وقوله :

وَأَتَعَسَّ النَّاسُ حَقًّا مَنْ تَكُونُ لَهُ نَفْسُ الْمُلُوكِ وَحَالَاتُ الْمَسَاكِينِ
وَهَبْ أَنْ وَلَدَكَ أَهْمَلُ دُرُوسِهِ طَوَالَ الْعَامِ وَعِنْدَ الْامْتِحَانِ أَخَذَ يَجِدُ
وَيَجْتَهِدُ وَيُرْمِقُ نَفْسَهُ ، هُنَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ لَهُ : (قَبْلَ الرَّمَاءِ تُمْلَأُ
الْكَنَائِثُ) وَالْكَنَائِثُ هِيَ الْمَخْلَاطَةُ الَّتِي تُوضَعُ بِهَا السَّهَامُ ، وَهَذِهِ لَا يَدُ
أَنْ يُعْذَهَا الصَّيَادُ قَبْلَ صَيْدِهِ لَا وَقْتُ الصَّيْدِ .

إِذَنْ : لِأَهْمِيَّةِ الْمَثَلِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ جَعَلَهُ الْقُرْآنُ لُغَةً أَسْلُوبِيًّا ،
وَأَدَاةً لِلْإِقْنَاعِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا يَبْعُوثُ فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ (٢٦) [البقرة]

لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخَاطَبُ بِالْقُرْآنِ عُقُولًا مُخْتَلِفَةً وَطَبَائِعَ مُتَعَدِّدَةً ؛
لِذَلِكَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ الْمَثَلَ بِأَحَقِّ مَخْلُوقَاتِهِ لِيُقْنَعَ الْجَمِيعُ كُلًّا
بِمَا يَنْاسِبُهُ .

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : أَيْ الْمَجْرُبُ عَارِفٌ بِأَمْرِهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَزَوَّجَتْ تُحَسِّنُ الْقِنَاقَ
بِالْخَمَارِ ، [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : عَوْنُ] .

(٢) الْأَنْبِتَاتُ : الْإِنْقِطَاعُ ، وَالْمُنْبِتُ فِي الْحَدِيثِ : الَّذِي أَتَعِبَ دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ ، فَبَقِيَ
مَنْقَطَعًا بِهِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : بَقِيَ] فَهَلَا هُوَ وَجِلٌ إِلَى غَايَتِهِ مِنْ مَسَافَرِهِ ، وَلَا هُوَ
حَافِظٌ عَلَى دَابَّتِهِ .

(٣) الْمَاءُ الزُّلَالُ : سَرِيعُ الْغُزُولِ وَالْمَرُّ فِي الْخَلْقِ - وَقِيلَ : هُوَ الْمَاءُ الْعَذِيبُ الصَّافِي . [لِسَانُ
الْعَرَبِ - مَادَّةُ : زَلَلَ] .

« ير الوالدين » ^(١) وقال لآخر : « أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْق » ^(٢) .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أن يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكثشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هي مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَنبِئِ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩) [الإسراء]

نعرف أن (إِلَّا) أداة استثناء ، تخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبقنا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيداً ، والآية أسلوب عربي فصيح .

تقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يرض ، فالمراد : لم يرض إلا الكفور ، فلا بد للاستثناء المفرغ أن يسبق بنفى .

ثم يقول الحق سبحانه ^(٣) :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ

الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴾

(١) قال أبو عمرو الشيباني : أخبرنا صاحب هذه الدار - وأوما بيده إلى دار عبد الله - قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على ولفها » قال : ثم أي ؟ قال : ثم ير الوالدين ، أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٠) . ومسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبي زر رضي الله عنه قال قال لى النبي ﷺ : « لا تعرفون من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) .

(٣) سبب نزول الآية : ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٦٨ - ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهركم فقاتل بعضهم لبعض : أبعثوا إلى محمد وكلهوه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدأ في أمره بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويمر عليه تمتهم حتى جلس إليهم ، ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تآبيد نَفَى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه ، أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتَقَلِّبٌ بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغير ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أن يحكم على شيء حكماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الاغيار .

لذلك : فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لانه من أهل الاغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟ وقد عبّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ نَقْصُهُ تَرَقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمَّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبذا ، لو حدث كذا لَكُمَّتْ هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الاغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كُلُّ صَاحِبِ نِعْمَةٍ بِمَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْنٌ حاسد ، أو حقد حاقِد .

فبعض الناس يرزقه الله بالاولاد ويُعِينُهُ على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .: وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التهمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبي^(١) أن يمدح سيف الدولة^(٢) قال له :

شَخِصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعَدَّ مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيبٍ وَاحِدٍ

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال : فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن) تفيد تأكيد النفي في المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أما صاحب الأغيار فليس له ذلك . والذين آمنوا فيما بعد برسول الله مَنَّ قالوا هذه المقولة : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٠) [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتكم (لن) في الكذب : لأنكم أبدتُم نفى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفَجِّرْ لكم النبی ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبى جهل وقال فى الخَنْدَمَةِ^(٣)

(١) المتنبي : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندي ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة . نشأ بالشام . ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية . قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه . توفي ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

(٢) هو : على بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، أبو الحسن سيف الدولة . ولد فى ميفارقين بديار بكر عام ٣٠٢ هـ . له أخبار ووفائع مع الروم كثيرة . ملك واسط ودمشق وحلب وتوفي بها ودفن فى ميفارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/ ٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن بَرِي : كانت به رقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة . وكان لقبهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب - مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للشَّهْرِ فُوقَ شَهْرِ الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبى الحكم (يقصد أباه أباه جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ، [دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٣٢٨] .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٠) [الإسراء]

وفى آية أخرى قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. ﴾ (٩١) [القمر]

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرج لك الماء من الأرض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ؛ لأنها تعوض ما أخذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يفيض الماء فيها قليلاً .

أما ينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شك أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿ أَوْتَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ

فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٩١)

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة)

أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصنفان المشهوران عند العرب ﴿ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٩١) [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويراصلون تحديدهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿ أَوْتُسْقِطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي

بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ (٩٢)

الزَّعْمُ : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطية

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ ^(١) فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ (٩٣)

البيت : هو المكان المعد للبيتوتة ، والزخرف : أى المزين ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة : لأن كل زُخْرَف من زخارف الزينة يطراً عليه ما يغيره فيبهره لونه ، وينطفئ بريقه ، وتضيق ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورونته ؛ فإن كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحِبُّون أن ينافقوا نفاق الحضارات ، ويتبارون فى زخرفة الصناعات يُلصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظل محتفظة بجمالها ، كما فى الاطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. ﴾ (٩٣) [الإسراء]

أى : يكون لك سلم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، وראوا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ ﴾ (٩٣) [الإسراء]

(١) رقى : علا وصعد . [الفاموس القويم ٢٧٢/١] .

وَيُحْفَظُ وَيُسَجَّلُ ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ،
وأن مصيره النار .

وهنا نقول : أما كان في إمكان أبي لهب أن يكذب هذا القول ،
فيقوم في قومه مُنادياً بـلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله -
ولو نفاقاً - وله بعد ذلك أن ينتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟
لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله رب العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء
ماخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة
(الله) ، فهو عَلَّمَ على الذات الإلهية لم يُؤْخَذْ من صفة من صفاته
تعالى ، فالقادر والغفور والحي القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة
من صفات ، إنما (الله) عَلَّمَ على الذات الجامعة لكل هذه الصفات

لذلك تحدى الخالق سبحانه جميع الخلق ، وقد أعطاهم الحرية في
اختيار الأسماء أن يُسَمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ،
ويعلن هذا التحدى في كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول :
﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أن يُسَمَّى هذا الاسم ليظل هذا
التحدى قائماً إلى قيام الساعة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به
وبوجوده تعالى متغلغل حتى في نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن
هذه الكلمة كذب ، أو لا وجود لها لأقدموا على التسمية بها دون أن
يُبالوا شيئاً ، أما وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويَجْرُبُ
هذه التسمية في نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدري ما هي .

لذلك رَدَّ الحق سبحانه على تعنت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ ..﴾ (٩٣) [الإسراء] لأن الأمور التي طلبوها أمور بلغت من العجب حداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله : لأنها كلمة التعجب الوحيدة والتي لا تُطلق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غنى عن ذلك في كتاب الله الذي نزل إليهم :

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجب أيضاً : يطلبون هذه الآيات ، ولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناء لهم .
ثم يقول تعالى : ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) [الإسراء]

هل ادعيتُ لكم أنني إله ؟ ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربي ، وأفعل ما يأمرني به ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ

قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤)

أي : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هي القضية التي وقفت في خلوقهم : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) [الإسراء]

والمقامل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أن تتم إلا
ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقّي عن الله من
وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع
أن يتلقّى عن القوة العليا مباشرة ، فإذن : هناك مراحل : ﴿وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ (٥١)

لكن الرسول البشرى كيف يكلم الله ؟ لا بُدَّ أن تأتي برسول من
الجنس الأعلى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ..﴾ (٧٥) [الصح] وهذا
مرحلة ، ثم يصطفى رسولا من البشر يتلقّى عن الملك كى يستطيع
أن يُبلغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلا - والله المثل الأعلى : أنت إذا أردت إضاءة
لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائي عال ، هل يمكن أن توصّله بهذه
اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فورا ، إذن : ما الحل ؟ الحل أن تأتي
بجهاز وسيط يُقلّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قدر
حاجتها فتضيء .

كذلك الحق سبحانه يصطفى من الملائكة رسلا يمكنهم التلقّي عن
الله ويصطفى من البشر رسلا يمكنهم التلقّي عن الملائكة ، ثم يبلغ
الرسول المصطفى من البشر بنى جنسه . إذن : لماذا يُزعجكم قى أن
يكون الرسول بشرا ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهى أمر
طبيعى ؟

يقول تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ ..﴾ (١) [يونس]

إِذْ : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح - عليه السلام - ألم يَقُلْ له قومه : ﴿ فَقَالَ الْعَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ﴾ (٢٧) ﴿ [هود]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أَنْ يكونوا رجالاً لِيَتِمَّ اللقاء بينكم ،
وإلا فلو جاء الرسول مَكًّا كما تقولون ، هل سترون هذا الملك ؟
قالوا : لا هو مُستتر عَنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم
على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ،
وهنا لا بُدَّ أَنْ يتصورَ لكم الملك في صورة رجل ليؤدي مهمة البلاغ

(١) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار وروى بن منبه أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدق وشلوم فكذبهم ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون أنطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قيل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٥٦٦/٣ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا : لأنها الطبيعة التي لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَكُنَّا جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٩) [الأنعام] إذن : لا داعي للتعجب والعناد ، ومصادمة الفطرة التي خلقها الله ، والطبيعة التي ارتضاها لخلقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (١٥)

(قُلْ) أى : ردًا عليهم : لو أن الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لنزلنا عليهم ملكًا رسولاً لكى يكون من طبيعتهم ، فلا بد أن يكون المبلغ من جنس المبلغ ، وهذا واضح في حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين ليعلم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتى جبريل مجلس رسول الله في صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أن أدّى مهمته انصرف دون أن يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم ليعلمكم أمور دينكم » (١).

شيء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أسوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴾ (٢١) [الأحزاب]

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إن كان الرسول ملكاً ؟

فالرسول عندما يبلغ منهج الله عليه أن يطبق هذا المنهج في نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بنَجْوَةٍ ، بل هو إمامهم في القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يطبق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر - رضي الله عنه - إذا أراد أن يَقُنَّ قانوناً ويرى أنه سيعتب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذِّرهم من المخالفة : « فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَنْ خَالَفَنِي مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ لَأَجْعَلَنَّهُ نَكَالًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ أَطْبَقُهُ عَلَى نَفْسِي » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها في عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حَكِمْتَ ، فَعَدَلْتَ ، فَأَمَنْتَ ، فَنَمْتُ يَا عُمَرُ » وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فَحَكِمْتَ له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحواليه دوائر أخرى صغيرة- تراه وتقتدى به ، فإن رآوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجروا أحد منهم على المخالفة ، وإن رآوه منحرفاً فاقوه في المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُقصد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدما تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب^(١) .

ولقد رأينا في واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأسوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلة الأولاد ٥٠/١] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جده ، وكأنه يُلْغِظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أسوة سلوك وقُدوة ، فنراه ﷺ يحثُ الغنى على الصدقة للفقير ، ثم يحزم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإن توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُورثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين^(١) ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا منا أحسنُ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إن جاء ملكاً فإن الأسوة لا تتم به ، فإن أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتسج عليه : كيف وأنت ملكٌ لا شهوة لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ فقالت عائشة لهن : اليس قد قال رسول الله ﷺ ، لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧١١ ، ٣٧١٢) .

ومن هنا لا بُدَّ أن يكون الرسول بشراً فإن حمل نفسه على منهج
فلا عُدْرَ لاحد في التخلف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى
الاقتداء بهسلوكمه .

وسيق أن ضربنا لذلك مثلاً وقلنا : هَبْ أنك رأيت في الغابة أسداً
يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟
إنما لو رأيت فارساً على صهوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب
الاعداء ، ألا تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتم القدوة ولا تصح إلا إن كان الرسول بشراً ، ولا
داعى للتمرد على الطبيعة التي خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾ (٩٦)

(قُلْ) أى : ردك على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم
على بشرية الرسول : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴾ (٩٦) [الإسراء]
والشاهد إنما يُطَلَّب للشهادة في قضية ما ، فما القضية هنا ؟
القضية هي قضية تعنت الكفار مع رسول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه
ما ليس في وسعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون في شيء ؛ لأن
أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً .. ﴾ (٩٦)

فإن كانت شهادة الشاهد في حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا ۖ ۝٩٦ ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الامر : لانه كان بعباده (خبيراً) يعلم خفاياهم ويطلع على نواياهم من وراء هذا التعتت (بصيراً) لا يخفى عليه شيء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكَاءَ ۚ وَصُمًّا مَّا أُولَئِكَ فِي جَهَنَّمَ ۚ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۚ ۝٩٧ ﴾

سبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دلّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبينه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بطلبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصة بالمؤمن ، فبعد أن دلّ الله آمن وصدق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فاتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

سُورَةُ الْاِشْرَاقِ

﴿ ٨٧٥٥ ﴾

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [فصلت]

أى : دَلَّكُنَاهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، لكنهم استَحَبُّوا العَمَى
وَالضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى ، فَمَنَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعُونَتَهُ وَتَوْفِيقَهُ .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بِأَسْلُوبَيْنِ قَرَأْنِيَيْنِ يَوْضُحَانِ
هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ مِنَ الْهُدَايَةِ ، يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]

فَنَفَىٰ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ وَالْمَعُونَةِ ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَا يَمْلِكُهَا ،
وَفِي آيَةٍ أُخْرَى قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّكَ لَا تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

[الشورى]

فَأُثْبِتَ لَهُ هِدَايَةَ الْبَيَانِ وَالِدَّلَالَةِ ؛ لِأَن هَذِهِ هِيَ مِهْمَتُهُ كَمَا بَلَغَ عَنِ
اللَّهِ ، وَهَكَذَا أُثْبِتَ لَهُ الْوَحْدُوتَ وَتَفَاهُ عَنْهُ ؛ لِأَن الْجِهَةَ مُنْفَكَّةٌ أَيْ ؛ أَنَّ جِهَةَ
الْإِثْبَاتِ غَيْرُ جِهَةِ النَفْيِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٧﴾﴾ [الروم]

فَمَرَّةٌ ؛ نَفَىٰ عَنْهُمْ الْعِلْمَ ، وَمَرَّةً أُخْرَى ؛ أُثْبِتَ لَهُمُ الْعِلْمَ ، وَالْمُرَادُ
أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ الْأُمُورِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْعُلُومَ السُّطْحِيَّةَ
الظَّاهِرَةَ مِنْهَا . وَنَحْنُ نَكَرَّرُ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا لِكَيْ تَسْتَقَرَّ فِي النَّفْسِ
الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَفِي مُوَاجِدَةِ الْمُتَدَبِّرِينَ فَيَتَنَفَّعُوا بِهَا .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْيًا ، وتقى عنه رَمْيًا ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنْفَكَةٌ : لأن النبي ﷺ في غزوة بدر أخذ حَفْنَةً من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرَمْى الذى أثبتته الآية ، وقد تولّت القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلّتهم عن القتال ، وهذا هو الرَمْى الذى نفاه الحق عن رسوله ﷺ^(١) .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذى تحمله على المذاكرة وتُرجمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقَلِّبُ فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعت معه ما ذاكر لا تجدّه حصل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ، فتثبت له الحدث مرة ، وتسفيه عنه أخرى : لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمَنَ بهداية المعونة والترقيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) [الصف] لكن يهدى العادلين .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥٠) [الصف] .. لكن يهدى الطائعين .

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (من ١٢٢) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت فى رمى النبي عليه الصلاة والسلام القبض من خصماء الوادى يوم بدر حين قال للمشركين : شامت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء » ، وانظر الآثار المروية فى هذا فى الدر المنثور للسيوطى (٤٠/٤ ، ٤١) .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٦٤) [البقرة] .. لكن يهدي المؤمنين .

إذن : بين الحق سبحانه في أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ أثار الكفر وصمم ألا يؤمن فهو وشائه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختتم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٦٠) [الانعام]

نعود إلى (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴾ (٩٧) [الاسراء] قلنا : إن (مَنْ) اسم موصول بمعنى الذي ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذي) فقط ، بل تستخدم لجميع الاسماء الموصولة : الذي ، التي ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتي . فنقول : مَنْ جاءك فأكرمه ، وَمَنْ جاءتك فأكرمها ، وَمَنْ جاءاك فأكرمهما ، وَمَنْ جاءتاك فأكرمهما ، وَمَنْ جاءوك فأكرمهم ، وَمَنْ جئتكَ فأكرمهن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَنْ) فهي - إذن - صالحة للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) في الآية : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴾ (٩٧) [الاسراء] جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر ، وهي في نفس الوقت دالة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدي الله فهو المهدى ، وَمَنْ يهديهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره في مجال الهدى ، أما في الضلال فجاءت (مَنْ) دالة على الجمع المذكور ؟

نقول : لانه لاحظ لفظ (مَنْ) فافرد الاولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء]

وهنا ملاحظ دقيق يجب تدبره : في الاهتداء جاء الاسلوب بصيغة المفرد : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء] لان للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »^(١) .

أما في الضلال ، فجاء الاسلوب بصيغة الجمع : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء] لان طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. ﴾ (١٥٣) [الأنعام]

والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خطاً للصحابه خطاً مستقيماً ، وخط حوله خطوطاً متعرجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي »^(٢) .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة : (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلي في : جامع العلوم والحكم ، ص (٤٦٠) وضعفه .
(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبيل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴾ (١٥٣) [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) والحاكم في مستدركه (٢١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ - موارد الظمان) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألف مذهب ، وألف منهج ؛
لذلك لو نظرت إلى أهل الضلال لوجدت لهم في ضلالهم مذاهب ،
ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال . فعليك أن تقر هذه الآية
بوعى وتأمل وفهم لمراد المتكلم سبحانه ، فلو قرأها غافل لقال : فلن
تجد له أولياء من دونه ، ولاتبع الثانية الاولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الاداء الإلهي التي
وضعت كل حرف في موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَرَاءَ ومعاونين ومُعِينِينَ (مِنْ دُونِهِ)
أى : من بعده ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ۖ ۞ (٩٧) ﴾ [الإسراء]

الحشر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) هنا
تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على
وجهه ؟ فقال ﷺ : هـ إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم
على وجوههم ^(١) .

وما العجب في ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ
أَرْبَعٍ ۖ ۞ (٤٥) ﴾ [النور]

الم تر الثعبان ، كيف هو سريع في مشيته ، خفيف في حركته ،
فالذي خلق قادر أن يمشي من ضلّ في القيامة على بطنه ، لأن

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ ثَلَاثَ أَصْنَافٍ :
صَنَفًا مَشَاةً ، وَصَنَفًا رُكْبَانًا ، وَصَنَفًا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَمْشُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . قَالَ : إِنْ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَعْدَانِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ »
أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤ / ٢ ، ٢٦٣) ، والترمذي في سننه (٢٦٤٢) وحسنه .

المسألة إرادة مرید لِيُوقِعَ بِهِمْ غَايَةَ الذُّلَّةِ وَالْهَوَانِ ، وَيَالِيَتِهِمْ تَنْتَهَى بِهِمُ الْعِهَانَةُ وَالْمَذَلَّةُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ .. (٩٧) ﴿[الإسراء]

هَذَا اسْتِطْرَاقٌ لَوْسَائِلِ الْإِهَانَةِ ، فَفَضْلًا عَنْ مَشْيِهِمْ عَلَى الْوُجُوهِ فَهُمْ عُمًى لَا يَرَوْنَ شَيْئًا ، وَلَا يَهْتَدُونَ ، وَهُمْ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ نِدَاءً ، وَهُمْ بُكْمٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ ، وَلَكِنْ أَنْ تُتَصَوَّرَ إِنْسَانًا جُمِعَتْ عَلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الْوَسَائِلِ لَيْسَ فِي يَوْمٍ عَادِيٍّ ، بَلْ فِي يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ ، فَإِذَا بِهِ يُفَاجَأُ بِهَوَلٍ الْبَعْثِ ، وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَنَافِذِ الْإِدْرَاكِ ، فَهُوَ فِي قَلْبِ هَذَا الْهَوَلِ وَالضَّجِيجِ ، وَلَكِنَّهُ حَاطَرٌ لَا يَدْرِي شَيْئًا ، وَلَا يَدْرِكُ مَا يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِهِ .

وَلَنَا هُنَا لَفْظَةٌ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا : صُمٌّ يُكْمٌ بِهَذَا التَّرْتِيبِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَتْ هَكَذَا : (بُكْمًا وَصُمًّا) وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصُّمَّ يَسْبِقُ الْبُكْمَ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْكِي مَا سَمِعَهُ ، فَإِذَا لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ ، وَاللُّغَةُ بِنْتُ السَّمَاعِ ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ لَيْسَتْ جِنْسًا وَلَيْسَتْ دَمًا .

وَسَبَقَ أَنْ قُلْنَا : إِنَّ الْوَلَدَ الْإِنْجِلِيزِيَّ إِذَا تَرَبَّى فِي بَيْتَةٍ عَرَبِيَّةٍ يَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعَكْسُ ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ جِنْسًا ، بَلْ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى السَّمَاعِ ، فَمَا تَسْمَعُهُ الْأُذُنُ يَحْكِيهِ اللِّسَانُ . حَتَّى الْعَرَبِيُّ نَفْسَهُ الَّذِي يَعِيشُ فِي بَيْتَةٍ عَرَبِيَّةٍ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الْغَرِيبَةَ الْمُتَعَجَّرَةَ لَا يَسْتَطِيعُ مُحَاكَاتَهَا وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا .

لَكِنْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ الْبُكْمُ أَوَّلًا ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُ سَاعَةٌ يُفَاجَأُ بِهَوَلٍ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنْ يُسَالَّ أَوَّلًا عَمَّا يَحْدُثُ ، ثُمَّ يَسْمَعُ

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

﴿ ٨٧٦١ ﴾

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجيء بالبعث وأمواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عما حوله ، وهكذا سبق اليك الصنم في هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومن يجارونهم ممن أسلموا بالسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً ۖ ﴾ (٩٧) [الإسراء] فينتفى عنهم الرؤية ، وفي آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ۖ ﴾ (٧٥) [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا ۖ ﴾ (٥٣) [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل في حال هؤلاء المعذبين في موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عمياً لينتحيق لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل في الحالين : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكُشِفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٢٢) [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾ (٩٧) [الإسراء] ماوَاهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَتْ أو انطفأت ، لكن ما دام المرات من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفىء ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل في الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو في حد ذات

لَوْ أَنَّ مِنَ الْعَذَابِ : لَأَن اسْتِدَامَةَ الشَّيْءِ يُوطِّنُ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتِدَامَةُ الْعَذَابِ وَاسْتِمْرَارُهُ يَجْعَلُهُمْ فِي الْإِلْفِ لَهُ ، فَإِنَّ خَبِثَ النَّارُ أَوْ هَدَأَتْ فِتْرَةً فَإِنَّهُمْ سَيُظَنُّونَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ انْتَهَتْ ، ثُمَّ يُفَاجِئُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ جَدِيدٍ ، فَهَذَا أَنْكَى لَهُمْ وَأَلَمَ فِي تَعْذِيبِهِمْ .

وَهَذَا يُسَمُّونَهُ فِي الْبَلَاغَةِ : الْيَأْسَ بَعْدَ الْإِطْمَاعِ « ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

فَاصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَقَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَائِتُهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ
وَفِي السَّجُونِ وَالْمَعْتَقَلَاتِ يَحْدُثُ مِثْلُ هَذَا ، فَتَرَى السَّجِينَ يَشْتَدُّ بِهِ الْعَطَشُ إِلَى حَدٍّ لَا يَطِيقُهُ ، فَيَصِيحُ بِالْحَارِسِ وَيَتَحَنَّنُ إِلَيْهِ وَيَرْجُوهُ كَوَيْلًا مِنَ الْمَاءِ ، فَيَأْتِي لَهُ بِكَوْبِ الْمَاءِ حَتَّى يَكُونَ عَلَى شَفَقَتَيْهِ ، وَيَطْمَعُ فِي أَنْ يَبْلُ رَيْقَهُ وَيَطْفِئَ غَلَّتَهُ ، فَإِذَا بِالْحَارِسِ يَسْكِبُهُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَذَا أَنْكَى وَأَشَدُّ فِي التَّعْذِيبِ .

وَقَدْ عَبَّرَ الشَّاعِرُ^(١) عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ :

كَمَا ابْرَقْتُ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً فَلَمَّا رَجَوْهَا أَفْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ^(٢)

أَي : سَاعَةً أَنْ رَأَوْهَا ، وَاسْتَشْرِفُوا فِيهَا الْمَاءَ إِذَا بِهَا تَنْقَشِعُ وَتَتَلَاشَى ، وَتُخَيِّبُ رَجَاءَهُمْ فِيهَا .

(١) هُوَ : كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَاعِيُّ أَبُو صَخْرٍ ، شَاعِرٌ مَتِينٌ مَشْهُورٌ ، مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، أَكْثَرَ إِقَامَتِهِ بِمَعْمَرٍ ، أَخْبَارُهُ مَعَ عَزَّةَ بَنَتْ حَمِيلَ الضَّمْرِيَّةَ كَثِيرَةً ، وَكَانَ عَظِيمًا فِي حَبَّةٍ ، تَوَلَّى ١٠٥ هـ (الْأَعْلَامُ لِلزَّرْكَوِيِّ ٢١٩/٥) .

(٢) الْبَيْتُ لَكُثَيْرِ عَزَّةَ ، انْظُرْ دِيْوَانَهُ (ص ١٠٧) - دَارُ الثَّقَافَةِ بِيْرُوتَ ١٩٧١ ، تَحْقِيقُ إِحْسَانَ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ شِهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْهَلْبِيُّ (ت ٧٢٥ هـ) فِي كِتَابِهِ : « حَسَنُ التَّوَسُّلِ إِلَى سِنَاعَةِ التَّرْسُلِ » تَحْقِيقُ أَكْرَمُ عُثْمَانُ يُوْسُفَ (ص ١٢١) « فَإِنَّ مَجْرَدَ قَوْلِهِ « ابْرَقْتُ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً » لَيْسَ تَشْبِيْهًا مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ : لِأَنَّهُ مَقْصُودُ الشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ابْتِدَاءَ مَطْعَمٍ أَدَّى إِلَى انْتِهَاءِ مَوْسَمٍ » .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومن أخبر بها الرسول ﷺ ؟ إنه لوّن من ألوان الإعجاز القرآنى للعرب ولغيرهم .
ثم يقول الحق سبحانه :

ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِنَّ دَاكُنَّا عِظْمًا
وَرُفَّتْنَا أَوْ نَالِ الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾

(١) رفت الشيء رَفْتًا : جعله رفاتًا ، أي : دفعه وكسره وجعله قطعاً مجزئاً . [القاموس اللغوي ١/ ٢٧٠] .

(ذَلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعونه أنت
(جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عدلاً لا ظلماً ، فإياك حين تسمع
آيات العذاب هذه أن تأخذك بهم رأفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء
عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجمام
هو تأخير العقاب .

فهناك فرق بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال
يشع فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإن
عاقبت فى هذا الجو كان للعقوبة معنى ، وأحدثت الأثر المرجو منها
وتعاطف الناس مع المظلوم بدل أن يتعاطفوا مع الظالم .

فحين تؤخر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا
شك أن الجريمة ستُنسى وتبرد نارها ، وتقلشى بشاعتها ، ويطويها
النسيان ، فإذا ما عاقبت المجرم قلن يبدو للناس إلا ما يحدث من
عقوبته ، فترى الناس يرافون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلِّئَانِهِمْ جُلُودًا
غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

والى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا
مَّاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبِثَ لَدُنَّاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فاحذر أن
تأخذك بهم رحمة ، ففي سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤) ﴾ [النور]

ثم يوضح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِآيَاتِنَا .. ﴿٩٨﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيِّدة لصدِّق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكُفْرُ بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبَّروا الحكمة من خلق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءت به .

وهذا كله يدلُّ على نقص في العقيدة ، وخلل في الإيمان الفطري الذي خلقه الله فيهم ، وكذلك كذبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خلل في التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أن قالوا : ﴿أَنذَأْ كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٨﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسبون ، وهم بهذا القول قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿عِظَامًا وَرَفَاتًا ..﴾ ﴿٩٨﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَرَفَاتًا ومعنى ، وهو : الشيء الجاف الذي تكسَّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عِظَامًا وَرَفَاتًا ؛ لأن جسم الإنسان يتحلَّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسَّر هذه العظام ، وتتفتت وتصير رفاتًا ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظامًا ورفاتًا .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ..﴾ ﴿٩٨﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ في ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أن ينكر البعث ، وعلى فرض أنه سيحدث فإنهم

سيكونون في الآخرة سادة ، كما كانوا سادة في الدنيا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هي الحركة الحسية التي يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شيء حياة تناسيه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحفريات يقولون : إن الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغير بمرور الزمن ، وتتحول إلى مواد أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسيها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التي يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهرية أموره خالقان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته في النوم محكومة بقانون ، وحياته في اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يُرْزَقُ ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أن تُصدق .

الم ترَ النائم وهو مُقْمَضُ العينين يرى الرؤيا ، ويحكىها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث واللوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه في اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذي فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكىها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو في اليقظة لا يرى ؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك في النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة ، ألا ترى الرجلين ينامان في فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التي لا يشاركه فيها أحد .

وقد يقول قائل عن الرؤى : إنها مجرد تخيلات لا حقيقة لها ، لكن يردُّ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرؤيا الذي يحكى لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طعمه في فمه ، وآخر ضُرب ، ويريك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عرقاً ، وكأنه كان في عراك حقيقى لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أننا في النوم لنا حياة خاصة وقانون خاص ، لئلاخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت .

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها :
إذا كانت البيضة لها قانون ، والنوم له قانون اللف وأخف من قانون
البيضة ، فبالتالى للموت قانون أخف من قانون النوم ، وللبعث قانون
أخف من قانون الموت .

وقد حَسَمَ القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ ۞ (٨٨) ﴾ [القصص]

أى : كلُّ ما يُقال له شيء فى الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقي ، والهلاك ضدُّ الحياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيْتِهِ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنِ بَيْتِهِ ۚ ۞ (٤٧) ﴾ [الأنفال]

إذن : لكل شيء مهما صَغُرَ فى كَوْنِ الله حياة خاصة تناسبه قيل أن يعتريه الهلاك .

ولذلك تعجب حينما يطالعنا العلماء بأن فى علبة الكبريت هذه التى نضعها فى جيوبنا قوةَ تجاذبٍ بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطارٍ حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .. أين هذه القوة ؟ إنها موجودة لكننا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون فى معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التى تعلّمنّاها منذ الصُغُر والشى تعتمد على ترتيب الذرات ترتيباً مُعَيَّناً ، ينتج عنه الموجَبُ والسالبُ ، فيتَمَّ التجاذب فكانوا يضعون لنا بُرَادَةَ الحديد فى أنبوبة ، ويمرّرون عليها قضيباً مُمَغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك فى نفس اتجاه القضيب .

إذن : فى الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغت من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام والرفات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أن صِرْتَ رُفَاتاً ، فشئء منك موجود يمكن أن يكون

وقد رَدُّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَقِيقٌ ﴾ (٤) ﴿

وقال تعالى كذلك في الرد عليهم : ﴿ أَفَمِنْ أَمَلِنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق) ١٥ : في خلط وشك وتردد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٩٨)

انهم يستبعدون البعث من جديد : لذلك فالحق سبحانه وتعالى
يجازي هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ (٢٧)

فإعادة شيء كان موجوداً أسهل وأهون من إيجاده من لا شيء ،

والحديث هنا عن بَعثِ الإنسان ، هذا المخلوق الذي أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقي المخلوقات وهي أعظم في الخلق من الإنسان ، وأطول منه عمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فَلَا تَنْسَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنَّ خَلْقَكَ أَهْوَنُ وَأَسْهَلُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْكَ ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ، ولم تنكر كما أنكرت ، يقول تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فَمَنْ يَنْكُرُ بَعثَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ رَفَاتًا عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَمَّلَ مِثْلًا الشَّمْسِ كَأَيَّةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ ، وقد خلقها الله قبل خلق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهي تعطى الضوء والدفع دون أن تتوقف أو تتعطل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهي تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسَخَّرَةً لخدمتك ، ما تخلفت يوماً ولا اعترضت ، فماذا يكون خَلْقُكَ أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (١٩) ﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٧٧﴾

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفي ، فاعلم أن الهمزة دخلت على شيء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : يقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أي : يخلقهم هم ويعيدهم من جديد ؛ لأن الخلق إنشاء جديد ، فهم خلق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا هي أنهم مُعَادُونَ ، أو يكون المراد (مِثْلَهُمْ) أي : ليسوا هم ، بل خلق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا في الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد في الآخرة وإن كان مثلهم في التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شيء لا إرادة له ؛ لأنه الآن في الآخرة التي سينادي فيها الخالق سبحانه : ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر] وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجْلاً لَا رَبَّ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]

أي : أن القيامة التي كذبوا بها وأنكروها واقعة لا شك فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصِرُّون على الكفر مهما أتيت لهم بالادلة ، ومهما ضربت لهم الأمثلة ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار ؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسَوِّي بينهم وبين العبيد ، وسيُقيِّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تابؤا على الإيمان ، وأنكروا البعث ضوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرضوا لظلم من أحد في الدنيا ؟ ألم يعثد عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته ؟ لقد كان أولى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم ممن ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآني إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا ۝۱۰۰ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أن يقول لأمته هذا الكلام ، وكان يكفي في البلاغ أن يقول النبي ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي .. لكن النبي هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآني ، ولا يحذف منه شيئاً ؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليل على مدى صدق الرسول في البلاغ عن ربه .

ومعنى (خَزَائِنَ) هي ما يُحفظ بها الشيء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً لا توضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ۝۱۰۰ ﴾ [الإسراء] أي : خيرات الدنيا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإن من شيء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر في عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝۲۶ ﴾ [الحجر] أي : أنه موجود في علم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية في السماء والأرض قال : ﴿ قُلْ أَنتُكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝۱ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا

الطمي بدأت المياه تنحت في الشاطئ ، وتنقص فيه من جديد .

إن : فقله تعالى عن بداية خلق الأرض : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴾ [١٧] ﴿ [فصلت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخلق القوت في الأرض ، وأن خزائن الله لا حدود لها ولا نفاد لخيراتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [١٨] ﴿ [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح في أيديهم خزائن لا تنفذ ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخل وقتر خوف الفقر : لأنه جُبِلَ على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا نفاد لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أن يحدث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإن كان على النفس فهو التقتير ، وهو سبب واضحة ومُخْزِية ، فقد يقبل أن يُضَيَّقَ الإنسانُ على الغير ، أما أن يُضَيَّقَ على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوُّره ؛ لذلك يقول الشاعر^(١) في التندُّر على هؤلاء :

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بَبَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنْفُسٌ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

(١) هو : الشاعر ابن الرومي ، وهو علي بن العباس بن جريج ، أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي ، كان جده من موالى بني العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً (٢٨٢ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلي ٢٩٧/٤) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أَنَّ بَيْتَكَ يَا ابْنَ يَوْسَفَ كُنَّ
وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يَسْتَعِيرُكَ ابْنَةً
فَالْإِنْسَانُ يَبْخُلُ عَلَى النَّاسِ وَيُقْتَرُ عَلَى نَفْسِهِ : لِأَنَّهُ جُبِلَ عَلَى
الْبَخْلِ مَخَافَةَ الْفَقْرِ ، وَإِنْ أُوتِيَ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ
بِخِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورٌ﴾ (١٠١)

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات
ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا﴾ (٩٥) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نُجُومٍ وَعَسَى تَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا
(٩٦) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلًا
(٩٧) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُوحِكَ
حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ .. (٩٨) ﴿ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أن يُلْفِتَ نَظْرَهُ أَنَّ سَابِقِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ أَتَتْهُمْ
تِسْعَ آيَاتٍ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ دُونُ أَنْ يَطْلُبُوهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَرُوا ، فَالْمَسْأَلَةُ
كُلُّهَا تَعَمَّتْ وَهَنَادَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَمَعْنَى ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ .. (١٠١) ﴿ [الإسراء] أَيْ : وَأَضْحَاتِ مَشْهُورَاتٍ بَلَقَاءِ

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مرأى ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هي الآيات الخاصة بفرعون : لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] هي الآيات التي أُرسل بها إلى فرعون وقومه وهي : العصا التي انقلبَتْ حية ، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء مُتَوَرَّة ، وَأَخَذَ آلَ فرعون بالسنتين ونَقَصَ من الأموال والأتفس والثمرات ، ثم لَمَسَا كَذَّبُوا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ، والجراد ، والقُمَّل^(١) ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، ونَتَقَ^(٢) الجبل فوقعهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠٢) ﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى - عليه السلام - وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْنُ سؤالهم : لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل : لذلك قال تعالى مُخَاطِباً بني إسرائيل

(١) القُمَّل : صفار الذر والديس . وهو شيء صلب له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شيء يقع في الزرع ليس بجراد لئلا ياكل السنبله وهي غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبُل له . [لسان العرب - مادة : قمل] .

(٢) نَتَقَ : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم ٢٥٢/٢] .

سُورَةُ الْاِنْتِزَالِ



المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ^(١) سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكن لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لانه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وجدوا هم ، فكان نجات السابقين نجاتاً للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لانهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسول وبالكاتب المنزلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلة سابقة بوحى السماء ؛ لذلك لما كذبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

لان الذى عنده علم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم علم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لابنائهم ، كما قال واحد منهم^(٢) .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤال حُجَّة واستشهاد ؛ لان قومه سألوه وطلبوا أن يظهر لهم عدة آيات - سبق ذِكْرُهَا - لكى يؤمنوا به ، فأراد أن يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مرَّ

(١) يسومونكم : يذبحونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشَمَ إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظمأً . [لسان العرب - مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام . قال القرطبي : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الامين من السماء على الامين فى الأرض ببعثه فعرفته . وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجؤا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رآوا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴾ [الإسراء] وَلَيَتَّخِذُنَّ كَذِبًا وكفروا بهذه الآية فَحَسِبَ ، بل واعتدوا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ .. ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ [الإسراء] وما دام كَذَّبَ بها الاولون فسوف يُكَذِّبُ بها هؤلاء : لان الكفر ملة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليست فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١) ﴾ [الإسراء] أى : بعد أن رأى الآيات كلها : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مُسْحُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أن أراه كُلُّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿ مُسْحُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغاً فى السُّتْر ، كما نبأخ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أن اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الفلقة لموسى ، وخر السحرة ساجدين ، قال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۚ ﴾ (٧١) [طه] وهذا دليل على التخيُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُتَجَرِّبِينَ ۚ ﴾ (٧٢)

أى : قال موسى لفرعون ، والتاء فى (عَلِمْتَ) مفتوحة أى : تاء الخطاب ، فهو يكلِّمه مباشرة ويخاطبه : لَقَدْ عَلِمْتَ يَا فَرَعُونَ عِلْمُ الْيَقِينِ أَنَّنِي لَسْتُ مُسَحُورًا وَلَا مُخْبُولًا ، وَأَنْ مَا مَعِيَ مِنَ الْآيَاتِ مِمَّا شَاهَدْتَهُ وَعَايَنْتَهُ مِنْ اللَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ جَيِّدًا إِلَّا أَنْكَ تَنْكُرُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ (٧٤)

[النمل]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتقرض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿ بَصَائِرَ ۚ ﴾ (٧٢) [الأنعام] أى : أنزل هذه الآيات بصائر تبصر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيقبلوا على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما تبع فيه قومه .

ثم لم يفت موسى - عليه السلام - وقد ثبتت قدمه ، وأرسي قواعد دعوته أمام الجميع أن يكلّم فرعون من منطلق القوة ، وأن يجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُتَجَرِّبِينَ ۚ ﴾ [الأنعام] فقد سبق أن قال فرعون : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مُسَحُورًا ۚ ﴾ [الأنعام] فواحدة بواحدة ، والبادئ أظلم .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٧٨١﴾

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كل خير ، وكان الله تعالى
أطلع موسى على مصير فرعون ، وأنه هالك عن قزيب . وعلى هذا
يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإن فقد
نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ،
لأنك لو تأملت حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء
دون أن يتعرض له أحد أو يحاسبه أحد ، وهذا مُنتهى ما يتمناه
السلاطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فعماذا ينتظر القادة
والأمراء إلا أن تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مطاعاً ؟ وهذا كله ينعم
به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قيد
الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذي يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدري أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا
أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيها العاقل لتمنيت أن تُجَنَّ !! ألا
تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أن يعترضه أحد ،
أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم في وجهه ، ثم بعد ذلك
لا يحاسب في الآخرة ، فأى عز أعظم من هذا ؟

إذن : سلب أي نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه
ولا يستشيطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فلما بك أن تظن أنك
أفضل منه عند الله ، لا ليس منّا من هو ابن الله ، وليس منّا من بينه
وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذي حرم
نعمة البصر عرّض عنها في حواس أخرى ، يفوقك فيها - أنت أيها
المبصر - بحيث تكون الكفة في النهاية مُستوية .

واسمع إلى أحد العميان يقول :

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالدِّكَاءُ مِنَ الْعَمَى فَجِثْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثِلًا
وَعَنَابَ ضِيَاءِ الْعَيْنِ لِلْقَلْبِ رَافِدًا لَعَلِّمَ إِذَا مَا ضَمِيعُ النَّاسِ حَصَلًا^(١)

فحدث عن ذكاء هؤلاء وفطنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كلُّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوضهم عنه في شيء آخر عزاء لهم عما فاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يدركه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقص ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواح أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويحدثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أصيب بقصر في إحدى ساقبته أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأنقذ ذلك في نفسه فصمً أن يكون شيئاً ، وأن يخدم بلده في ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخطة

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَأَنَّ مَكَارَ النَّفْعِ لَوْ أَنَّ دُرُوسِنَا وَاسْتِيفَانَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَرَاكِبُهُ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حسه وتذكو قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين ، الأخاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٧٦/١) .

التي تعينها في السلم وتعويضها ما فاتها في الحرب ، فكان
(شاخت) رجل الاقتصاد الاول في ألمانيا كلها .

ويجب ان نعلم ان التكوين الإنساني وخلق البشر ليس عملية
ميكانيكية تعطى نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس
ماكينة كالتي تصنع الاكواب مثلاً ، وتعطينا قطعاً متساوية ، بل لا بد
من الشذوذ في الخلق لحكمة : لان وراء الخلق إرادة عليا للخالق
سبحانه ، ألا ترى الاولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين
في اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴾ (٢٢)

[الروم]

إنها قدرة في الخلق لا نهاية لها ، وإبداع لا مثيل له فيما يفعل
البشر .

وهناك ملحق آخر يجب ان نتنبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه
وتعالى جعل أصحاب النقص في التكوين وأصحاب العاهات كرسائل
إيضاح ، وتذكّر للإنسان إذا ما نسى فضل الله عليه ، لانه كما قال
تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٦) أن رآه استغنى ﴿ (٧) ﴾

[العلق]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعم سبحانه ،
فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكّر نعمة الله ، وربما تجد
المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبط
في الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .

إذن : هذه العاهات ليست لأن أصحابها أقل منا ، أو أنهم أعمون

على الله .. لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، وسيلة إيضاح للآخرين لتفتتهم إلى نعمة الله .

لكن الأفة في هذه المسألة أن ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلَوَاهُ على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزِهِ وعاهته وسيلة للتكسب والترزق ، بل وابتزاز أموال الناس وأخذها دون وَجْهٍ حق .
وفي الحديث الشريف : « إِذَا بَلَيتُمْ فاستتروا »^(١) .

والذي يعرض بَلَوَاهُ على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخلق ، والله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساق له رزقه على باب بيته . والأدهى من ذلك أن يتصنع الناس العاهات ويدعوها ويؤهموا الناس بها ليوقعوهم ، وليبتزوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي ربّي موسى منذ أن كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ (١)

[القصص]

(١) أورده العجلوني في كشف الغطاء (٢١١) بلفظ : « إِذَا بَلَيتُمْ بِالْمَعَاصِي فاستتروا » وقد أخرج الحاكم في مستدركه (٢٤٤/٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمي فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها ، فمن ألم فليستر بستر الله وليتب إلى الله . فإنه مَنْ يَبْدُ لَنَا صَفَحَتَهُ نَقِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . »

فأين ذهبت عداوته وبُغْضه للأطفال ؟ ولماذا أحب هذا الطفل بالذات ؟ ألم يكن من البدهي أن يطرد على ذهن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليم ليبتجو من القتل ؟ ولماذا لم تطرد هذه الفكرة البدئية على ذهنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ..﴾ (٢٤) ﴿[الأنفال]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه ليؤمن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عناية العرشي الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنِيكَ عِنَايَةً فَقَدْ كَفَبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمُؤْمِلُ
فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ

وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٣) ﴿

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْهُمْ) كلمة : انتفر ، سبق الكلام عنها فى قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَفِرُّ مِنْ اسْتَعْظَمَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ ..﴾ (١٤) ﴿[الاسراء] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقوم المتأذى ويخف من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصيحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى فى لعبة الكراتيه مثلاً ليُزعج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغل الخصم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقل تركيزه ، فيمكن التغلب عليه . ومن الاستفزاز قول أحدنا لابنه المتكاسل : فز . أى : انهض وخف للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أن يستفزهم ويخدعهم خديعة تُخرجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليل على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا لياخذ بنى إسرائيل ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ فَأَتَاهَا فِرْعَوْنُ فَقُلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

[الشعراء]

فكان غباء فرعون أعان القدر الذى جاء به موسى - عليه السلام - ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بنى إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أخذٌ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أن يُنفذ ما أراد .

كما يقولون فى الأمثال عند أهل الريف للذى هدد جاره بأن يحرق غلته وهى فى الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أى : يعاجله الموت قبل نُضج الغلة التى هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومنّ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل ؟ لا بد أن تُخصَّص لي مكاناً
أسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسْكُنُوا الْأَرْضَ) هكذا دون تقييد
بمكان معين ، ليتسجم مع آيات القرآن التي حكمت عليهم بالتفرُّق في
جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال
تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَماً ۖ ﴾ (١٦٨) [الاعراف]

والواقع يؤيد هذا ، حيث نراهم متفرقين في شتى البلاد ، إلا أنهم
ينحازون إلى أماكن مُحددة لهم يتجمعون فيها ، ولا يذوبون في
الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها
لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ (١٠٤) [الإسراء]

والمراد بوعد الآخرة : هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث
قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيراً ۚ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّقْعُولاً ۚ ﴾ (٥) [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني
قريظة وبني قينقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ،
ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفساد الثانية لبني إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوِّرُوا رُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّوْا ۚ (٦) مَا عَلَوْا تَبَرُّاً ﴾ (٧) [الإسراء]

(١) تَبَرَّه : دمره وأهلكه . مُتَبَرِّ : اسم مفعول أى مدَّمر مُهلك . [القاموس المفهرم ١/ ٩٧] .

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليحقق وَعْدُ الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضوا على اليهود وهم في شتيت الأرض ؟ لا بد أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أخذهم لم يُقْلَتُوا ، وياخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر . وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤ ﴾ [الإسراء] أي : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ زَلْزَلًا وَثَقِيلًا ۝١٠٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ .. ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء]

الحق من حق الشيء . أي : ثبت ، فالحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو متغير متلون لأنه زهوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُ هَذَا كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧ ﴾

[الرعد]

فإن رأيت في عصر من العصور خوراً يصيب أهل الحق ، وعلواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو علو الزبد الذي يعلو صفحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تلقى به الريح هنا وهناك لتجلو صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزبد فيذهب جفاءً دون فائدة ، ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل متغير متقلب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لانه مظهرية من مظهريات الحق الاعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الاعلى الذي لا تتناوله الاغيار .

وقوله : ﴿ اُنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب في ﴿ اُنزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدم عليه شيء يوضح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعرف المعارف ، لكن لا بد له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يسبق الضمير بشيء ، كما سبق بمرجع في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ اَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير في (يَمِثُّهُ) إلى القرآن الذي سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه ، فلا بد أن يكون مرجعه متعيناً لا يختلف فيه اثنان ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لانه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يختلف عليه .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ اُنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أي : القرآن ؛ لانه شيء ثابت متعين لا يختلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكان الحق سبحانه كان كلامه - وهو القرآن - محفوظاً في اللوح المحفوظ ، إلى أن يأتي زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

ثم يقول تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء] الاولى كانت :
﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حق لا ريب فيه ولا شك ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥)﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حق ثابت : لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهج ، معجزة حق لأنه تحدى الفُصَحَاءَ والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شيء فى منهج القرآن أنه تكلم عن العقائد التى هى الأصل الأصيل لكل دين ، فقبل أن أقول لك : قال الله ، وأمر الله لأبد أن تعرف أولاً من هو الله ، ومن الرسول الذى بلغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السلوكيات .

إذن : تعرض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرض للعلائكة والنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كل هذا فى العقائد : لأن الإسلام حرص أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربى فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يلقى زمام حركته إلا لمن يثق به ، فلا بد إذن من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكام وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسخ بشريعة أخرى : لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً .. (٣)﴾ [المائدة]

هذا الرجل له حق في النخلة ، فهي ملك له لكنه تعسف في استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالمفروض ألا يذهب إلى نخلة إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَّ له هذه النخلة ، وإما أن تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذي سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس ؟

أضفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات في معنى : (وَيَالْحَقُّ نَزَّلَ) أي : وعلى الحق الذي هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أي : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويشترط في التبشير والإنذار أن تُعطى للمبشِّر أو للمُنذِر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار في مُتَّسَع من الوقت ليمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل في مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمَل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَمًا بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا لَكَ بِأَخِي نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف]

سورة الاحقاف

اي : مُهْلِكُهَا حُزْنًا عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ . وَفِي آيَةِ أُخْرَى قَالَ : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [الزُّمَر]

فكانه سبحانه يُخَفِّفُ الْعِبَاءَ عَنْ رَسُولِهِ ، ويدعوه ألا يُتَعَبَ نفسه
 في دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ . وعلى الله تبارك وتعالى الهداية
 للإيمان .

لكن حَرِّصَ رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه
وتستولى عليه لخصها في قوله : « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب
للأخيه ما يحب لنفسه »^(١).

فالنبي ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا في وجه دعوته كان إلى آخر لحظة في الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة : لذلك لما مَنَّ منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً » (٢) .

وَفَعَلًا صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَجَاءَ مِنْ ذُرِّيَّاتِ هَؤُلَاءِ مَنْ حَمَلُوا رَابِعَةً

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان . عن أنس بن مالك بلفظ : « والذي نفسي بيده : لا يؤمن عبد حتى يحب لخاله - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٢٢٢١ ، ٧٢٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنابذني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : ه بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قتل هؤلاء حال كفرهم في معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِلقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزْیْلًا ۝١٦ ﴾

معنى (فَرَقْنَاهُ) أى : فصلناه ، أو انزلناه مُفرقاً مُنَجِّماً حَسَبَ الاحداث (عَلَى مَكْثٍ) على تمهل وتؤدة ونأث .

وقد جاءت هذه الآية الردُّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ ۝١٧ ﴾ [الفرقان]

وأول ما نلاحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هم فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافترائه القرآن ؟ وما هم الآن يَقْرُونُ بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا دَخَلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولى الحق سبحانه الردَّ عليهم فى هذا الاقتراح ، ويبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ ۝١٨ ﴾ [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : أنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل مُفْرَقًا مُنْجَمًا حَسَبَ الْأَحْدَاثِ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ﴾ [الفرقان] لأن رسول الله ﷺ سيُتَعَرَّضُ لكثير من تَعَنُّتَاتِ الْكُفَّارِ ، وسيُقَفِّ مَوَاقِفَ مُخْرِجَةٍ من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحي عليه يومًا بعد يوم ، وحسب الأحداث ما يُخَفِّفُ عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب ومشاق الدعوة ، وفى استدامة الوحي ما يصله دائماً بمن بعثه وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفَقَدَ رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحي ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية برسول الله .

٢ - ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان] أى : نَزَّلْنَاهُ مُرْتَلًا مُفْرَقًا آية بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشئء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى الترتيل تُيسِّرُ للصحابة حفظ القرآن وفهمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميزة خاصة بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجَزِّئُ القرآن للحفظ ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ اللوح تلو الآخر .

٣ - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان]

[الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين

سيَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَحَاوِلُونَ أَنْ يَسْتَدْرِكُوا عَلَيْهِ أُمُورًا ، وَأَنْ يَتَّهِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَإِبْطَالِ حُجَجِهِمْ فِي وَقْتِهَا الْمُنَاسِبِ ، وَلَا يَتَأْتَى ذَلِكَ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .

(وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ) أَيْ : بِشَيْءٍ عَجِيبٍ يَسْتَدْرِكُونَ بِهِ عَلَيْكَ (إِلَّا جِئْتَاكَ بِالْحَقِّ) أَيْ : رَدَّا عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا جِدَالَ فِيهِ .
وَالِيكَ أَمْثَلَةُ لِرَدِّ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ رَدًّا حَيًّا مُبَاشَرًا .

فَلَمَّا اتَّهِمُوا رَسُولَ اللَّهِ وَقَالُوا : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ] رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) [الْقَلَمِ] وَالْمَسْحُورُ لَا يَكُونُ أَبَدًا عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

وَلَمَّا قَالُوا : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ (٥) [الْفِرْقَانِ] يَرُدُّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ (٦) [الْفِرْقَانِ]

فَلَيْسَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِدَعَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَهُوَ كَفَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ عُرِفَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الصِّفَاتُ ، وَفِي هَذَا مَا يؤكد سَلَامَةَ الْأَسْوَةِ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ، إِنَّمَا لَوْ كَانَتْ فِي مُحَمَّدٍ خَاصِيَّةٌ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ رَبُّمَا اعْتَرَضُوا عَلَيْهَا وَاحْتَجُّوا بِهَا .

لِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَدَبِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ رَبِّهِ وَمَعَ صَحَابَتِهِ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَرُدُّ عَلَى - أَيْ بِالْوَحْيِ - فَأَقُولُ : أَنَا لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ ، وَيُؤْخَذُ مِنِّي فَأَقُولُ : مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ » .

فَانْظُرْ إِلَىٰ أَيِّ حُدٍّ كَانَ تَوَاضَعَهُ ۖ

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ
جِنَّةٌ ۚ ۝ (٨) ﴾ [سبا] فردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ۙ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ۝ (١٣) ﴾

ثُمَّ يَقْتَضِلْ مَعَهُمْ فِي هَذَا التَّحْدِي ، وَيَتَرَأَّفْ بِهِمْ : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ﴾ (٧٣) ﴿[البقرة]

ثم يناقشهم في هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والتموذج العالي للحوار : ﴿ قُلْ إِنْ اقْتَرَبْتُمْ لَعَلِّيْ أَجْرَامِيْ رَأَيْتُمْ بُرْءًا تُجْرِمُونَ ﴾ (٣٥) [هود]

وفي آية أخرى يقول : ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴾ (٣٥) [سبا]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدث عن نفسه يقول (أَجْرَمًا) وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجمام ، بل يقول : (وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذي جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملة واحدة ، أكان من الممكن الردّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا ؟

وإن كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرته ساحته في مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، وإن يُنسخ منه حرف واحد كما حدث في الكتب السابقة عليه .

فإن نظرت إلى العقائد وجدت الكلام فيها قاطعاً لا هوادة فيه ، يأتي هكذا قولاً واحداً ، قاله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن العلائكة والبعث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف في الحديث عن العادات التي ألفها الناس في حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطف وتدرج ، ولا يناسبها القصر والقطع . ألم تَرَ إلى المشرع سبحانه حينما أراد أن يحرم الخمر ، كيف تدرج في تحريمها على عدة مراحل حتى يجتث هذه العادة التي تحكمت في نفوس الناس وتمسكتهم ، إكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لفت أنظار القوم بلطف إلى أن في الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ^(١) وَرِزْقاً حَسِناً .. (٦٧) ﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكان الله يُبَيِّت للخمر شيئاً ، لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السكر فلم يصفه بالحسن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً في الخمر : لأنه يتلف نعمة الله ويُفسدها على أصحابها .

ثم يحول هذه المسألة إلى عظة وإرشاد ، فيقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

(١) السكر : كل ما يسكر أي الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذي لم تمسه النار وهو غير مسكر . والسكر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١ / ٣٢٠] .

وهكذا قرّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار . فالأمر ما زال عظة ونصيحة لا تشريعاً ملزماً ، إلا أنه مهد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلى وهو مخمور لا يدري ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون اعبد ما تعبدون ، فغمزه من بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى^(١) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣)﴾ [النساء]

وبذلك أطال مدة الامتناع عن شرب الخمر ، فالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ، فلان لا بد من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عودهم الامتناع وتربهم على الصبر عن هذه الآفة التي تمكنت منهم . ثم يتحيز الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم في مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبت الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالت دماؤهم ، وعندها ذهبوا بانفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه^(٢) :

(١) عن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فآخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً فقرا : قل يا أيها الكافرون ما اعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣)﴾ [النساء] أورده ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٠٠) ، ثم قال : هكنا رواه ابن أبي حاتم وكذا رواه الترمذي عن عبد بن جهميد عن عبد الرحمن الدشتكي به ، وقال : حسن صحيح .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا من الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى .. (٤٣)﴾ [النساء] ، فكان منادى رسول الله ﷺ : إنا أقم الصلاة ينادي : لا يقربن الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. (٥٤)﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ (٥٥)﴾ [المائدة] . قال عمر : انتهينا . - أورده الواحدى التيسابورى في أسباب النزول (ص ١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا في الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحي على رسول الله بالحكم القاطع : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِيْهُ .. ﴾ (٩٠) [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التي تمكَّنت من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى ينزل القرآن مُفَرَّقًا مُنْجِماً حَسَبَ الْأَحْدَاثِ ، كأنه يُجْرَى مشاركة بين آيات التثزيل والمنفعلين بها الذين يُصِرُّونَ عَلَى تَنْفِيذِ مَطْلُوبَاتِهَا ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أَنْ يَبْدَأُوهُ بِالسُّؤَالِ ، كما قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوِكُمْ .. ﴾ (١٠١) [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴾ (٢١٩) [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ .. ﴾ (٢١٩) [البقرة]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَعْلَاقِ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴾ (١٠٥) [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفَرَّقًا مُنْجِماً حِكْمٌ بِالْفِعْلِ يجب تدبرها ، هذه الحِكْمُ ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلْنَ عَلَيْهِمْ يَخِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (١٠٧)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٠٧) [الإسراء] آمِنُوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نهى ، والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أن تطلب من الأدنى ألا يفعل ، فإن كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإن كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب اعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحى العبارة : لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٠٧) [الإسراء] أنها للتخيير ، فإن آمِنُوا فقد أطاعوا ، وكذلك إن لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكراً أو لا تذكر ، أنت حر : لا شك أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثه على المذاكرة .

فَقُولْ : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٧) [الإسراء] للتسوية ،
كما قال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذي يفعل الأمر أو النهي يكون طائعا ،
بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق
سبحانه جعل في ذلك عزاء لرسوله ﷺ في إيمان أهل الكتاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ (١٧) [الإسراء] أي : اليهود
والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوراة
والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن ، فهؤلاء
شاهدون بأن الرسول حق بما عندهم من بشارة به في التوراة
والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم
يعلمون علم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام^(١) ، وكان من علماء اليهود ، وكان
يعلم أوصاف رسول الله وزمن بعثته ؛ لذلك قال : لقد عرفته حين
رأيتكم كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد^(٢) .

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي . أسلم عند قدوم
النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه : النضر بن السهم ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع
عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٣ هـ . (الاعلام للزركلي
٩٠/١) .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا مَلِكُومًا الْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] . قال القرطبي : ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن
سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على
الأمين في الأرض بنعته لمعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه . ذكره ابن كثير في
تفسيره (١٩٤/١) .

ولما اختتم الإسلام في نفسه ذهب إلى رسول الله وصارجه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت^(١) فإن أعلنت إسلامي الآن قالوا في ما ليس في ، فاسألهم عنى وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرْنَا وَابْنُ حَبْرْنَا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا في ما قالوا فاشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فلماذا بهم يذمونه ويتهمونهم بأخسر الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أقل لك إنهم قوم بُهت^(٢) .

إذن : ففى إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه فى كتبهم وعرفوا مرعد بعثته وأنه حق ، فى إيمان هؤلاء عزاء لرسول الله حين كفر به قومه وكذبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٤٣) [الرعد]

ونحن مكفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التى تلقوها ، فحينما بشرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يحرفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبى الجديد الذى سسيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظل زمان نبى جديد تتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قتل عاد وادم .

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب - مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٢٨) . وأحمد فى مسنده (١٠٨/٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

سُورَةُ الْأَنْزِيلِ

٨٨-٦٠

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) [البقرة]
إلا أن الله أبقى للحق خليفة ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ،
وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء] أى : القرآن
﴿ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (٩٧) [الإسراء]

كلمة (يَخْرُونَ) توحى بانهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها
عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرف ، فبمجرد سماع
القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر
الإيمان في نفوسهم . ليس ذلك فقط ، بل ويخرون (لِلْأَذْقَانِ)
جمع ذَقَن ، وهي أسفل الفك السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على
الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع
والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (٩٨)

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وفى بوعده فى
التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومع القرآن ، سبحانه حقيق
لنا وعده وأدركناه وآمنا به ، وكان هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٩٩)

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذى

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفِهِ وَصْفًا يُعْرَفُ بِهِ ، كما يحدث أن يَأْلَفَ شخص أن يسمى أولاده جميعاً : محمد . فالتسمية في هذه الحالة لا تُشَخِّصُ ولا تُعَيِّنُ الْمُسَمَّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير . محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطْلِقَ الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنَّا نحن نُسَمِّي أولادنا ؛ فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها : الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وكلمة (حُسْنَى) أفعل تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَفَ أسماءه تعالى بالحسنى ؟

الاسم يُبَيِّنُ الْمُسَمَّى ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على الْمُسَمَّى الذي أُطْلِقَتْ عليه ، فقد نُسَمِّي شخصاً « سعيد » وهو شقي ، أو نسمى شخصاً « ذكي » وهو غبي . وهذا ليس بحسن في الأسماء ، الحسن في الاسم أن يطابق الاسم الْمُسَمَّى ، ويتوفر في الشخص الصفة التي أُطْلِقَتْ عليه ، فيكون الشخص الذي سميته « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الحُسْنَ الأعلى ؛ لأن الحُسْنَ الأعلى لأسماء الله التي سَمَّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه - إذن - لا تتأتى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ بَعْدَ الشُّرْكِ مَنْزِلَةٌ أَنْ يَظْلَمَ اسْمٌ مُسَمَّى ضِدَّهُ جُعِلَا
فَشَارِعَ عِمَادِ الدِّينِ تَسْمِيَةٌ لِكَيْتِهَ لِعِمَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلَا
فالاسم قد يظلم الْمُسَمَّى كما حدث أن سَمَّوْا الشَّارِعَ (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان في الماضي بُؤْرَةً لِلْفِسْقِ والفجور ، وما أبعدته سابقاً عن هذه التسمية .

قلّظ الجلالة (الله) عَلم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قلنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز في قومه ، فلان الرحيم بمن معه ، فلان النافع لمن يتصل به ، إنما لو قلنا : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك : حُلَّتْ الصفات محلّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فاسمَاءُ الله الحُسْنَى هي في الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول في مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعني يُعزّ غيره ، ومقابلها العذلّ ، والضارّ مقابلها النافع ، والمحيي مقابلها المميت وهكذا .. إن وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسم لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السُّتَّار وهي صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أن يتخلّق خلقه بهذه الصفة ، وأن يُربّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً قاضحاً لزهدوا في كل ما يأتي من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرّم المجتمع من طاقات كثيرة في الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يعصى ويحب أن يُستر على عبده العاصي ؛ لكي يستمر دولا ب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبي ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر عيب خلقه عن خلقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلب ، ولربما لو عرفت عنك شيئاً مستوراً لتغيرت لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كل منا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أى : لو تكشفت الاسرار ، وعرف كل منكم عيب أخيه ما دفنتم من يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ .. ﴾ (١١٠) [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدل على صفة معينة ، لكنه يحمل في طياته كل صفات الكمال فيه ، فإن كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر في القدرة ، والحكيم في الحكمة ، والقابض في القبض ، والعزیز في العِزَّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك في الحديث النبوي الشريف : « كُلُّ شَيْءٍ لَا يُبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ »^(١) .

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله

ﷺ : « كل كلام أو أمر ذي مال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدِّم على أى فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ، إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تُقل : يا حَكِيمُ يا قَادِرُ يا عَلِيمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفى أن تقولَ فى الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسمَ الجامع لكل صفات الكمال .

﴿ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ .. ﴾ (١٦٠) [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار : لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهر هذه الصفة لعباده حتى فى أسماء الجبار والقهار : لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها : لأن العبد إذا عرف الله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكانه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٩) [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيقتل انتهى عن القتل . وفى الأثر : « القتل أنفى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذى يقهره الله مرحوم أيضاً : لأنه ما دام قال : أنا قهار . فأحذرنى ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة . وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة فى

حركة الحياة ، فيتكامل الخلق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون . ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهي في دنيا الناس أن يعيش المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هي الغالبة في كل التشريع ، وهي السمة العامة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢﴾ [الرحمن]

فالقُرآن الذي نزل لينظم حياة الناس ويحكمها ، وبصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿قَبْأَىٰ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن] والآء هي النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ٢٥﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التي تدل على النعمة ؟

ولو تدبر القوم ما اعترضوا : لأن في النار والتحذير منها والتخويف بها نعمة ، كأن القرآن يقول لك : إياك أن تفعل ما يوجب النار والشواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إن لم يُقدّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجاكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ٥٩﴾ [الفرقان]

وفى الحديث ، فى آخر ليلة من رمضان يستجلى الجبار بالمغفرة...^(١) ولم يقل : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا أثر صفة الجبار فى مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُوحى بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة . وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلبت صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لك أيتها الصفة ، لكن نستسمحك فى أن تشفع فى هؤلاء ، فكان صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين^(٢) فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمي فى شهر رمضان خمسين لم يعطهن نبي قبلى ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان بنظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذب أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهي ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم ، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٦٥/٢) : « رواه البيهقى وإسناده مقارب » .

(٢) عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَ عَلَىَّ مَا هُوَ كاشف من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجىء النبي ومعه المصابة ، والنبي ومعه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أنزلوا جنتي من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١) وأورده الهيكى فى المجمع (٣٧٤/١٠) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .. ﴾ (١١٠) [الإسراء] فأي اسم تدعو به لان أسماءه كلها حسنى ، لكن ليكون عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإن أردت علماً فقل : يا عالم علمنى ، وإن كنت ضعيفاً فقل : يا قوى قوئى ، وإن أردت العزة فقل : يا عزيز أعزنى وهكذا .. فإن أردت الاختصار فقل : يا الله . تكفيك كل شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا ^(١) بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١١٠) [الإسراء] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (ولا تجهر) فالجهر منهى عنه ، وكذلك (ولا تخافت) أى : لا تُسرّها بحيث لا يسمعك من خلفك ، وهذا منهى عنه أيضاً . فكلّ الطرفين مذموم ، وخير الأمور الوسط .

ونوضح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أولى ، فلا يليق أبداً رفع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسببه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٠٤) [الأعراف]

فانت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة فى الميكروفون تلزم الناس بالإنصات . وتوقعهم فى الإثم والحرَج ، أو تعطّل مصالحهم ،

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفع . وخافت بقوامته أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسَبِّح أو يصلى ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك ؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حرٌ فيما يتنفل به ، ولا تكن من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كالذى يُشعل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ فى إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعى للناس حرمة . فمتى يفيق المسلمون ؟ ومتى ينتبهون إلى هذه البدع التى تُشوش على الناس وتُفسد عليهم عبادتهم ؟

أما إن كان رفع الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكسب شخص ، وأن نجعل الأمر معرضاً للأصوات ، ومضماراً للسباق ، إن كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد دخل صاحبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) ﴾ [الأنعام]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التى جاء بها الشرع ، وتأس برسول الله ﷺ حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً ، فوجد أبا بكر - رضى الله عنه - يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سألته . قال : يا رسول الله ، أناجى ربه وهو عالم بى ، فلما ذهب إلى عمر - رضى الله عنه - وجده يقرأ بصوت عال ، فلما سألته قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان . عندها أمر ﷺ أبا بكر أن يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً^(١)

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أمرنا بها حتى في الدعاء ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (٢٠٥) ﴿

فكلمة : ﴿بَيْنَ ذَلِكَ .. (١٦٠)﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع في كل أحكام الدين ؛ لأن القرآن جاء لأمة وَسَطَ بالأمور الوسط في كل شئون الحياة ، ففي قمة المسائل وهي الأمور العَقْدِيَّة مثلا يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنْكِرُونَ وجود الإله وَمَنْ يَقُولُ بأكثه متعددة ، فينتفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريك له . وفي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (١٦٧)﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لاهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة ،
ويزُقّي بحياة الفرد ، وقد لخص هذا المنهج الاقتصادي في قوله
تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهُا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ
مَلُومًا مُحْضَرًا ﴾ (٢٩) ﴿

[الاسراء]

فالممسك المقتر الذي يقبض يده عن الإنفاق يتسبب في ركود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفي التذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه ، ولا يبقى على شيء.

(۱) قال محمد بن سيرين : ثبت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خضع صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، إسحاق لا يبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي عز وجل وقد علم حاجتي ، ففعل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الومنان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ مِنْ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء] قيل لأبي بكر : أرفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير في تفسيره ۶/ ۶۹) .

يرتقى به في الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذي فوت عليك فرصة الترقى مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ سُولٌ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾

فما المحمود عليه في الآية ؟

الحق سبحانه يقول : ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا .. ﴾ (١١١) [الإسراء]

فكونه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أن يحمده عليها ، فإن كان له ولد فسوف يخصص برعايته دون باقي الخلق ، فقد تنزه سبحانه عن الولد ، وجعل الخلق جميعهم عياله ، وكلهم عنده سواء ، فليس من بينهم من هو ابن لله أو من بينه وبين الله قرابة ، وأحبهم إليه تعالى أنقام له ، وهكذا ينفرد الخلق بكل حنان ربهم وبكل رحمة .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذكر ، خاصة لامرين : أن يكون الولد ذكراً وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

* أَبْنَى يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضَى *

والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائماً ، فلا يحتاج لمن يتخذ ذكراً ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ (١١١) ﴿[الإسراء]

لقد أوضح لنا الحق سبحانه هذه العسالة في هذا المثل الذي ضربه لنا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ (٢٩)

وأيضاً فإن الحق سبحانه يقول : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ
الَّذِينَ .. (١١١)﴾ [الإسراء]

الولى : هو الذى يليك ، وأنت لا تجعل أمرك إلا لمن تثق به أن يجلب لك نفعاً ، أو يدفع عنك ضرراً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يقوى

ضعفك ، فإذا لم يكنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ،
وتحتوى برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له وليٌ يلجأ إليه ليعزّه ؛ لأنه سبحانه العزيز
المعزُّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ۝١١١ ﴾ [الإسراء]

لأن عظمة الحق سبحانه في نفس المؤمن أكبر من كل شيء ،
وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جعلت (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ،
فلا بد أن تُكبر الله ، وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار ، فإن ناداك
وانت في أي عمل فقل : الله أكبر من عملي ، وإن ناداك وانت في
حاضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أي عظيم ، كبره تكبيراً بأن تُقدِّم
أوامره وتواحيه على كُلِّ أمر ، وعلى كل نهى .

ولا تنسَ أنك إن كبرتَ الحق سبحانه وتعالى اعزّزتَ نفسك بعزة
الله التي لا يعطيها إلا لمن يُخلص العبودية له سبحانه ، فضلاً عن أن
العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خيرَ سيده ، أما العبودية
للإنسان فهي مذمومة مكروهة ، وهي مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد
خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسَبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَقِي بِي بَلَاءُ مَوَاعِيدِ رَبِّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا أَلْقَى مَتًى وَكَيْنَ أَحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت في مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ،
أما في مقابلة ربِّ العزة سبحانه ، فبمجرد أن آمنْتَ به أصبح الزمام

فى يدك تلقاه متى شئت ، وفى أى مكان أردت ، وتحدثه فى أى أمر أحببت ، فأى عزة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ﴾ [الإسراء]

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألا ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الَّذِى تَجْتَوِيهِ مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبر الله تكبيراً وعظمه ، والتجىء إليه ، فمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كيد الآخرين وقهرهم ، وسبق أن ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذى يعتدى عليه أقرانه إن سار وحده ، فإن كان فى يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك - إذن - أن تكون دائماً فى معية ربك تأمن كيد الكائدين ومكر الماكرين ، ولا يذاك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشيء فكأنما يقول له : ابتليك بنعمتى لتأخذ من ذاتى ، لأن الصحيح المعافى إن كان فى معية نعمة الله ، فالمبتلى فى معية الله ذات .

ألم يقل الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول :

أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعدّه ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده »^(١) .

فالمريض الذي يأنس بذاثريه ويسعد بهم ويرى في زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له في شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان في جواره وكلاءه ، والله الذي لا إله إلا هو لا يشعر بوخز المرض أبداً ، ويستحي أن يتأوه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن : كبره تكبيراً . أى : اجعل أمره ونهيه فوق كل شيء ، وقل : الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . ألا ترى قول رابعة العدوية^(٢) :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَكَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ وَيَرُونَ النِّجَاةَ حَطًّا جَزِيلاً
أَوْ بَأَنِّ يَسْكُنُوا الْجَنَانَ فَيَحْطُوا بِقُصُورٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسَبِيلاً
لَيْسَ لِي بِالْجَنَانِ وَالنَّارِ حَظٌّ أَنَا لَا أُبْتَغِي بِحَبِّي بَدِيلاً

وفى الحديث القدسي : « أولو لم أخلق جنة ونارا ، أما كنت أهلاً لأن أعبد ؟ » .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أى شيء ، حتى إن كانت الجنة ، ففي آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) هي : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، لها أخبار في العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الاعلام للزركلي ١٠/٢) .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

سورة الكهف^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْزِجٍ ۝١

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذي أطلقه رسول الله ﷺ في خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدِثَتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدِثَتْ بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا في الذات ، ولا في الأفعال ، ولا في الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقلنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه في المعنى العام : ثناء وشكر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإن تقاربت في المعنى العام فكلٌ منها معناه الخاص ،

(١) سورة الكهف هي السورة رقم (١٨) في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية رتبع في الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف ، وفي سورة مكية في قول جميع المفسرين . قال القرطبي في تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جَزَاءً ﴾ والأول أصح » .

وقد روي في فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

- من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال . أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه . قال النووي في شرحه لمسلم : « وفي رواية « من أجز الكهف » قيل : سبب ذلك ما في أولها من المعجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتن بالدجال وكذا في آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَمٍ عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقعة الحمد أوسع من رُقعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كان تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فَقَوْلُ الخق : (الحمد لله) بالالف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إن حمدك لاي إنسان قَدَّم لك جميلاً فهو - إذا سَلَسَلْتَهُ - حَمْدُ الله تعالى الذي أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التي أمدك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سَلَسَلْتَ الحمد لاي إنسان في الدنيا تجده يصل إلى المنعم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ لله) هذه هي الصيغة التي علمنا الله أن نحمده بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخلق في الحمد حسب قدراتهم وتمكنهم من الأداء وحسب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الادائية أفصح من العبي والأُمى . فتحمل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعبي يقولها ، والأُمى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويثنى عليه : « سبحانك لا تحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

لأن الله ربُّ العالمين ، وربُّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدُّ من عدم ، وتولى تربية عباده ، فهو ربُّ لكلِّ العالمين ؛ لذلك يجب أن نحمد الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدُّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونعم من نعمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور من نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فللظلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسمى والحركة ، ولا يمكن لسكّاح أن يسعى ويجد فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّ نشاطه ، فتقابل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افنتحها الحق سبحانه به (الحمد لله) - التى نحن بصدد ما - أراد الحق سبحانه أن يوضح أنه لم يُربِّ الخلق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيّمة ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخلق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأن يعمل لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ۖ ۝١﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزال الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

و ﴿الْكِتَابَ ١﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أى : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلق ويُرادُ به بعضه ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهِ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ١٨﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمى قرآناً ، والسورة تُسمى قرآناً ، والكل يُسمى قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به بعد ذلك مُتَجَمَّعاً حَسَبَ الْوَقَائِعِ ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١﴾ [الكهف] أى : جعله مستقيماً ، لا عِوَجَ فيه ، كما قال فى آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ٢٨﴾ [الزمر] والاعوجاج ، أن يأخذ الشيء امتداداً مُنْحَنِيّاً ملتوياً ، أما الاستقامة فهى الامتداد فى نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس فى الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم فى حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخلق متكاملين ، فكلُّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقوم بذاته أو يستغنى عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس فى الحياة ، وأن يتكاملوا .

تأكيد لقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة ، والتي تراها للوحة الأولى مستقيمة تعلماً ومستوية ، فإذا ما نزل المطر فضح هذا الاستواء واظهر ما فيه من عيوب : لذلك أكد الاستقامة بقوله ﴿قِيَمًا ۝٢﴾ [الكهف]

ومن معاني القِيَم : المهيمن على ما هوته ، كما تقول : فلان قِيَم على فلان أى : مُهيمن عليه وقلتم على امره . فالقرآن - إذن - لا عِوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۝٤٨﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ ۝١٢﴾ [الروم] أى : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ۝٣﴾ [الكهف]

وهذه هي العلة في الإنزال .

والإنذار : التخويف بشراً قادم ، والمُنذَر هنا هم الكفار : لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملكة العربية وللذهن أن يعمل ، وأن يستقبل القرآن بفكر مُفتتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآن كل شيء هكذا على طرف الثمام أى قريباً سهل التناول .

ثم ضخم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وقط بل ﴿مِّن لَّدُنَّا ۝٤﴾ ،

سورة الكهف

○ ٨٨٣ ○

والعذاب يتناسب مع المعذَّب وقوته ، فإنَّ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحد به ، ولا مهرب لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسِّرْ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ﴿ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، وتلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشِّر (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنتار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدما :

﴿ مَكِّيَّنَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (٣)

أى : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لا بدَّ أنْ يُوصَفَ أجر الله الحسن بانه دائم ، وأنهم ما كانوا فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المتعم سبحانه في الآخرة ، لقد أَلَفَ الناس الأجر على أنه جعل على عمل ، فعلى قدر ما تعمل يكون أجرك ، فإن لم تعمل فلا أجرك .

أما أجر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإن ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصف المتفضل ، وإن انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذت من تعيم الدنيا فهو تعيم زائل ، إما أن تتركه ، وإما أن يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤)

والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كان لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا ۞١٨٨ ﴾ إِذَا ۞١٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۞١٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞١٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞١٩٢ ﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصي أن نخوض في ذات الله تعالى بمقولة تنفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهّد لهولها الجبال .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾

فهذه القضية التي ادّعوها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله ، من أين أتوا بها ؟ الحقيقة أنهم ادّعَوْها ولا علم لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۝٥ ﴾ [الكهف]

(١) الإد : الداهية والامر الفظيع والكذب الفاحش . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۞١٨٨ ﴾ [مريم] . أي : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١٢/١] .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ ۖ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرَتْ لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كسَمَوْها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاضم أن نقولها - أى :

لا نقدر على النطق بها فيقال ﴿ ٥٥ ﴾ : « ذاك صريح الإيمان »^(١) .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القبح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغت من السوء وكتبها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكن .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .. ﴾ (٥٥) [الكهف] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألا يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أن يتكلم يُدير الكلام على ذهنه ويَعرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذهنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمى نسبة ذهنية ، فإن قلت : محمد مجتهد أصبحت نسبة كلامية ، فإن وجد شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحت نسبة واقعية ، والخير بها خير صادق ، فإن كانت النسبة الكلامية لا واقع لها كان لا يوجد شخص اسمه محمد أو وجد ولكنه غير مجتهد ، فالخير هنا كاذب ، وهذا هو الأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الصدق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قلت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي رواية : « تلك محض الإيمان » قال النووي في شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً مطلقاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

حَمَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ هِدَايَةِ قَوْمِهِ مَا لَا يَحْمِلُهُ اللَّهُ وَيَلْزِمُ مَا لَا يَلْزِمُهُ .
فَقَدْ كَانَ ﷺ يَدْعُو قَوْمَهُ فَيُعْرِضُوا وَيَتَوَلَّوْا عَنْهُ فَيُشِيعُ أَثَارَهُمْ بِالْأَسْفِ
وَالْحُزْنِ ، كَمَا يَسَافِرُ عَنْكَ حَبِيبٌ أَوْ عَزِيزٌ ، فَتُسِيرُ عَلَى أَثَرِهِ تَمْلُوكُ
مَرَارَةَ الْأَسَى وَالْفِرَاقِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ لِحُبِّهِ لِقَوْمِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى
هُدَايَتِهِمْ يَكَادُ يَهْلِكُ نَفْسُهُ (أَسْفًا) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤) [يوسف] وقوله تعالى عَنْ مُوسَى لَمَّا
رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ غَاظِبًا مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
غَضَبًا أَسْفًا .. ﴾ (٨٦) [طه]

وقد حَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَهْمَةَ الرُّسُولِ وَهِيَ الْبَلَاغُ ، وَجَعَلَهُ بِشِيرًا
وَنَذِيرًا ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ مَا لَا يَطِيقُ ، فَفِي الْآيَةِ مَظْهَرٌ مِنْ
مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِرَسُولِهِ ﷺ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧)

وَكَانَ هَذِهِ الْآيَةُ تَعْقِيبَ عَلَى سَابِقَتِهَا ، وَإِشَارَةً لِرَسُولِ اللَّهِ بِأَنَّ
الدُّنْيَا قَصِيرَةٌ ، فَالْمَسْأَلَةُ - إِذَنْ - فَرِيَّةٌ فَلَا دَاعِيَ لِأَنْ يَهْلِكَ نَفْسُهُ
حُزْنًا عَلَى عَنَادِ قَوْمِهِ ، فَالدُّنْيَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَدَّةٌ بِقَاتِهِ بِهَا وَعَيْشُهُ فِيهَا ،
وَلَا دَخَلَ لَهُ بِعَمَرِهَا الْحَقِيقِيُّ ؛ لِأَنَّ حَيَاةَ غَيْرِهِ لَا تَعُودُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ،
وَعَلَى هَذَا فَمَا أَقْصَرَ الدُّنْيَا ، وَمَا أَسْرَعَ انْتِهَائُهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْنَا
فَنَجَازِيهِمْ بِمَا عَمَلُوا ، فَلَا تَحْزَنُ وَلَا تَيَاسُ ، وَلَا تَكْدُرُ نَفْسُكَ ، لِأَنَّهُمْ
لَمْ يُؤْمِنُوا .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا .. ﴾ (٧) [الكهف]

أى : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يبرق أمام الأعين قيئفريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(١) تَذَرُوهُ الرِّيحُ .. ﴾ (٤٥) [الكهف]

فإياك أن ياخذك هذا الزخرف : لأنه زهر سرعان ما يذبل ويصير حطاماً .

وقوله : ﴿لَيَبْلُوَهُمْ .. ﴾ (٧) [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض : لأن المصيبة تكون على مَنْ يَخْفِقُ فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بامرهم وما سيحدث منهم مُسَبِّقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن نلغى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يَخْفِقُ .

إنن : معنى : ﴿لَيَبْلُوَهُمْ .. ﴾ (٧) [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

(١) الهشيم : الحطب أو الخشب المحطم . وهشم الشيء اليبس : كسره . وهشم الخبز : كسره وقته . [القاموس القويم : ٢ / ٣٠٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض ، ولا نبات فيها و ﴿ جُرُزًا ﴾ هي الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكته ، يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُصْرونَ ۝٢٧﴾ [السجدة]

وما نام الأمر كذلك والفتيا زُخُوف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدعهم لي أختبرهم ، وأجازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا

مِّنْءَ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

وقد وردت قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أن يُحرجوا رسول الله ، ويروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوه عن صديق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه في كتبهم .

(١) اختلف الناس في الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبي في تفسيره :

- الرقيم : واد ، قاله مجاهد .
- الرقيم : الصخرة التي كانت على الكهف ، قاله السدي .
- الرقيم : كتبهم ، قاله أنس بن مالك والشعبي .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسمائهم وأسابيهم ودينهم ومن هربوا ، قاله ابن عباس والفراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره (٤٠٨٦/٥ - ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببيعة النبي الجديد ، يقولون : لقد أطل زمان نبي فتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد واره . لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إن أردتُم معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟^(١)

وفعلوا ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتُم عنه غداً »^(٢) وجاء غداً وبعد غداً ومَرَّتْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا دُونَ أَنْ يُوحَى لِرَسُولِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَكَبُرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُعْطَى وَعَدًا وَلَا يُنْجِزَهُ .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتُم عنه غداً » ، ولم يقل : إن شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٣) ﴾ [الكهف]

وهذه الآية في حد ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٤٠٧٩/٥) وعزاه لابن إسحاق
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام في السيرة (٣٢١/١ - ٣٢٢) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ،
وحتى لا يستنكف أحد إذا استدرك عليه شيء ، فهذا هو محمد رسول
الله يستدرك عليه ربه ويُعَدِّلُ له .

فكان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا إِنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ غُدَاً (٢٤) إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... (٢٥) ﴾ [الكهف] تربية للامة في شخصية رسولها حتى
لا يستنكف العربي من توجيه المربي ، ما دام الهدف هو الوصول
إلى الحقيقة ، فليأبى أن ترفضوا استدراك رأى على رأى حتى وإن
كان من الخلق ، فما بالك إن كان الاستدراك من الخالق سبحانه ،
والتعديل والتربية من ناحيته ؟

واليك مثال لادب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد
ورد هذا الدرس في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ^(١) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكَأَنَّ لَهُمَا شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الانبياء]
فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أن يأخذ صاحب
الزرع الغنم التي أكلت زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك
عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب
الغنم الزرع يصلحه حتى يعود إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى
صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ... (٧٩) ﴾ [الانبياء]
ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا... (٧٩) ﴾ [الانبياء]
ونلاحظ هنا أن الاستدراك لم يأت من الابن للابن ، فيكون أمراً

(١) النَّفَسُ : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فتزعى من غير علم راعيها [لسان العرب -
جدة : نفث] - ونفست الغنم : انتشرت في المرعى بغير راع ولا مضابط . [القاموس
القرين ٢ / ٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للآب ليؤكد على أنه لا غشاضة أن يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الآب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبي الله سليمان في هذه المسألة لم يفض الطرف عن هذا القصور في حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعز من أي صلة حتى لو كانت صلة الأبوّة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخلق على الخلق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعن القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يره .

ولنا منا وقفة مع أمانته ﷺ في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكانه أمين حتى على نفسه ، فالرسول هو الذي بلغنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴾ [الكهف] وهو الذي بلغنا : ﴿ يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ ﴾ (١) [التحریم]

وهو الذي بلغنا في شأن غزوة بدر : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۚ ﴾ (٢٤) [التكوير]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۚ ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) [الحاقة]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذي لا يخفى شيئاً .

ألم يكنُ جديراً بالقوم أن يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ،
ويتفكروا في صدقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ،
وكان من المنتظر أن يُخفيها عنهم ؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على
صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا
أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يكرم عبده ويحميه حتى لا يُوصَفَ
بالكذب إذا لم يُحقق ما وعد به . وليس في قولنا : إن شاء الله حَجَرٌ
على أحد ، أو تقبيد لطموحات البشر كما يذهب البعض أن قول إن
شاء الله يلغى التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطَط كما تريد ، ودبر من أمرك ما شئت ، واصنع من
المقدمات ما تراه مناسباً لإجراح سعيك ، لكن ما عليك إن قرنتَ هذا
كله بمشيئة الله ، وهي في حَذِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإن
أخفقت لقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله ، فانت غير كاذب ،
والحق تبارك وتعالى لم يشأ بعد أن تلجأ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد
إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعَلِّقَ الفعل على مشيئة الله ،
فإن قلتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه في كذا ، فهل تملك أنت من
عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟
أضمنتَ أن موضوع المقابلة باقٍ لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه
طارئ ؟ إنن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن
شاء الله ، وأخرج من دائرة الحرج هذه .

سورة الكهف

٥٨٤٧

نعود إلى الآية التي نحن بضددها فالحق سبحانه يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) [الكهف]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عما قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْقَى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْقَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ﴾ (١٦) [الزمر]

فالمراد : إن سالك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إخراجك بها ، فدعك من كلامهم ، ودعك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿ الكهف ﴾ : الفجوة في الجبل و (الرقيم) الشيء المرقوم أى : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (٩) [المطففين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) [الكهف] أى : ليست هذه هي العجبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم نأخذ الآيات في تفصيل هذه العجبة ، فيقول تعالى :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ

رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرٍ نَارِشِدًا ﴾ (١٠)

(أوى) من المأوى ، وهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفتية) جمع فتى ، وهو الشاب فى مقتبل العمر . والشباب هم معقّد الأعمال فى حمل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فللقضاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخْلِفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفروا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أي مَقُومٍ من مَقُومات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المَقُومات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ ۝ (١٠) ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مَقُومات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من للبشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١١) ﴾ [الكهف] أى : يسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تَضَرَّعُوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّعَ عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَّعَنَّا عَلَيْنَا أَعْدَانِيهِمْ فِي الْكَهْفِ

سِنِينَ عَدَدًا ۝ (١١) ﴾

يُقَالُ : ضَرَبَ الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غَطَّيْتُ الأرض بها بعد أن كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون للمضروب به أقوى من المضروب ، وإلا كان المضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيَا هَازِلًا مِنْ صُنُوفِ الْقَدَرِ بِنَفْسِكَ تُعْتَفِ لَا بِالْقَدَرِ
وَيَا ضَارِبًا صَخْرَةً بِالْعَصَا ضَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ .. ﴾ (١١) ﴿ [الكهف] أي : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل القياس مثلاً ويعمل بها إن تعب واجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإن تعب من الوقوف قعد ، فإن تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإن لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الاغصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الامراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مكثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الأذان ، والضرب على الأذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعَكِّرُ صَفْوَهُ شَيْءٌ ، والنوم هو الراحة التامة التى تطفى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إسماع تؤدى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ [النحل]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعت أصيغك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرخت في أذنه فإنه يتنبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأووا إلى الكهف ، وهو فجوة في جبل في صحراء وهي غُرُضَة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقَتْ راحتهم ؛ لذلك عطَّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه العدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الْكَهْفِ سَنِينَ عَدَّةً (١١) ﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أي : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعدُّ لأنه معروف ، فإن ذكر العدد فاعلم أنه للشئ الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عدداً ونقداً .
ثم يقول الحق سبحانه :

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوهَ أَهْلَ الْخَزَائِنِ
أَمْ حَسِبْتَ إِذَا إِشْرَأْ أَمْدًا (١٢)

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة ومسلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وأراء متشابهة . [القاموس القويم - مادة : حزب] ، قال القرطبي في تفسيره (٤٠٩٤ / ٥) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا ليثهم قليلاً . والحزب الثاني من أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لامر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . »

(بَعَثْنَاهُمْ) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً . إلا أنهم لما طَلَّتْ مدة نومهم شَبَّهَها بالموت : ﴿ نَعْلَمُ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ .. ﴾ (١٢) ﴿ [الكهف] أى : الفريقين منهم : لانهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبُثِهِمْ فَقَالُوا : يوماً أو بعض يوم . أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴾ (١٦) ﴿ [الكهف] أى : لئرى أى الفريقين سَيُقَدَّرُ مُدَّتُهُمْ تَقْدِيرًا صَائِبًا . والامد : هو التَّجْدَة وعدد السنين .

والمعامل فى الآيات السابقة يجد فيها مُلْخَصًا للقصة ومُوجِزًا لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فاهل الكهف فتية مؤمنون فروا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على أذانهم فناموا مدة طويلة . ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعْطِنَا تفصيلاً لكل لقطات القصة : لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١٣)

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١٣)

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى : فهو الذى يَقْصُ ما حدث بالحق ، فلو أن القاص غير الله لتَوَقَّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لهوى فى نفسه ، إنما إن جاءك القصص من الله فهو الحق . كما قال فى آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٣) ﴿ [يوسف]

إذن : هناك قصص ليس بالحسن ، وهو القصص غير الدقيق .

فالقِصَصُ القرآنيّ يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ،
ويُصوِّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قِصَص تدلُّ على دقة
التتبع ؛ لأنها من قص الأثر أي : تتبّعه وكان لهذه المهمة رجال
معروفون بقصّاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نَبَأُهُمُ) النبا : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لِنَسِيتَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدَّناهُمْ
هَدىً ﴾ (١٣)

[الكهف]

هذا هو تفصيل القصة بعد أن لخصها القرآن في المذكرة
والبرقية السابقة ، وكان الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناس
هذه القصة من قبل ، لكنها قُصّت بغير الحق ، وغيّر فيها ، لكن
قَصْنَا لها هو القِصَص الحق الذي لا كذب فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضحّوا
من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولّاهم ونور بصائرهم وربط على
قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا
زَادَهُمْ هَدىً وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾ (١٧)

[محمد]

وما أشبه هذه المسألة بالمعظم الذي يلمح أمارات النجاة والذكاء
على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيؤليه اهتمامه ،
ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضحّوا بكل شيء وفروا
بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنة الانشغال بالدينا
والحرص على مُتعتها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم
ليكونوا قدوة ومثلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاء في
أهل الكهف : فتاء إيمان وفتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُنِ دُونِهِ ۚ إِلَهُهَا
لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا ^(١٤)

والربط يعنى أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتسحقظ ما فيه ،
كما تربط القرينة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى
لا تنفلت ، وقد وردت مادة (ربط) فى القرآن كثيراً ، منها قوله
تعالى فى قصة أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ
تَتَّبِدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَاهُ عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴾ (١٥)

[القصص]

أَيُّ : رَبطَ على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن
تَلْقَى بولدها في الماء ، ولولا أن رَبطَ الله على قلبها وثبتها لانطلقت
خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُكَلِّفُ إليه الانتظار ﴿ كَادَتْ تُبَدِّي بِهِ
لَوْلَا ۖ ﴾ [التقصص]

أى : تكشف عن الخُطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً - أى : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفّق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمَّى القلب غَوَادِإِ إِلَّا إِذَا تَوَقَّدَ بِالشَّاعِرِ وَتَحَرَّكَ بِهَا ، وَرَبِطَ

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد في كل شيء . قال تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا نَقَطُوا (١١)﴾ [الكهف] . أى : قولاً جاثراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ٢٤٩/١] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطًا للشعور يحكم تصرفاتها فتأتي سليمة مُتَمَشِّية مع الخطة المرادة ..

ومن هنا نأمر الغاضب الذي تغلى الدماء في عروقه بالهدوء وضبط النفس : لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلْجِمُ جماح غضبه الذي لا تُحمد عُقْبَاهُ ، ألا ترى التوجيه النبوي في حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذي أنت عليه : لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَفْبَدَتْهُمْ هَوَاءً (١٣) ﴾ [إبراهيم] أي : فارغة خالية. ليس فيها شيء : لأن الشيء إذا فَرَّغْتَهُ من مَحْتَوَاهُ أمثلاً بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه في أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ .. (١٤) ﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذي أخبرت به الآية السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٥) ﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه . وأن الباطل أفزعهم فهَبُّوا للتصدي له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٥) ﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطي صورة لفريقين : فريق الكفر الذي ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذي يعلنها مُدَوِّية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٥) ﴾ [الكهف]

وإن كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿لَنْ تَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف] فإن ادعينا إلهاً من دون الله ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف] أي : فقد تجاوزنا الحد ، وبعدنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

وهنا يخبر أهل الكهف القتيبة المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حجة واضحة على صدق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف] فافظع الظلم وأقبحه أن نفتري على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَابْتَغَدُوكَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمنا اعتزلنا أهل الكفر ،
ونأيناً عن طريقهم ، وسلكننا مسلك الإيمان بالله الذي يسره الله لنا ،
فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتصي فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن
يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتَسِّع
للحياة ، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء ، وليس به مَقُومٌ
من مَقُومَاتِ الحياة ؛ لذلك يتبهننا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن
الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون
إليه مُتَوَكِّلُونَ عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [الكهف] فالضيق يقابله
البَسْطُ والسَّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله
معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف
يُوسِّعَ عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وسَّعه الله عليهم فعلاً حين
أنامهم ، ألا ترى النائم يربع في الدنيا هنا وهناك لا تحُدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث في قصة نبي الله موسى - عليه وعلى
نبيينا الصلاة والسلام - حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه :
﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر
من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مسهربَ لهم فيما يرون من واقع
الأمر . فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قَوْلُهُ
الواثق من نصر الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٧) ﴿ [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه في التو واللحظة ، وفُرج عنه وعن أصحابه

ما يَلَاقُونَ مِنْ ضَيْقٍ الْمَخْرَجِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. ﴾ (٦٢) [الشعراء]

كذلك هنا : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رُحْمَتِهِ .. ﴾ (٦٦) [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ (٦٦) [الكهف] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهي مَقُومَاتُ الحياة التي لا يستغنى عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لانهم إن ظلوا في حال اليقظة فلا بد أن يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (١٧)

بعد أن ضرب الله على آذانهم فعمصهم من الاصوات التي تزعجهم وتقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظلمة مهمة ، فيها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خلق من خلق الله ، لها مدار ثابت وقانون لا يتخلف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣٣) [الأنبياء]

(١) تزاور عنه : مال وتحنى وانحرف - أي : أن الشمس تميل وتتحرف عنهم لكلا تؤذيهم . [القاموس القويم ٢٩٢/١] .

(٢) قرض المكان : تركه وتجاوزته . أي : تتركهم الشمس وتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بحرّها . [القاموس القويم ١١٣/٢] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزور : أى الميل عن الحق ، والزور عن الشيء أى : مال عنه . فكانت الشمس إذا طلعت تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقَرَّبْهُمْ فَاتِ الشِّمَالِ .. (١٧)﴾ [الكهف] والقرض - كما هو معلوم - أن تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكان الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكانها تقرضهم إياه . ولا شك أن هذه العملية مظهر من مظاهر قدرة الله التى تصنع الأشياء وضده .

ونلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أن ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ .. (١٧)﴾ [الكهف] أى : فى الكهف ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشمس آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فلماذا أن تعترض : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغير اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخلق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أن يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قىومية على القانون ، تبطله إن شاء ، وتحركه إن شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال تدور هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائما من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمُضِل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟

وشاخ هذا السؤال وأخذته المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وأمنت ؟ إن اقتصرارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل للمؤمن فقط ، بل يدل للمؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلا للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفا على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً . وقد بين أن من شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفساق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتُنَا ظَنًّا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۖ ﴾ (١٨)

أى : لو أتيت لك النظر إليهم لختل إليك أنهم أيقاظ غير نائمين
ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم
أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يُقَلِّبُهُمْ فِي نَوْمِهِمْ مَرَّةً تَاحِيَةً
الْيَمِينِ ، وَأُخْرَى تَاحِيَةً الشِّمَالِ ، لِتَقَالَ أَجْسَامُهُمْ عَلَى حَالِهَا ، لَا تَأْكُلُهَا
الْأَرْضُ .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّرَ له أَنْ يَنَامَ فَتَرَّةً طَوِيلَةً عَلَى سِرِيرِ
الْمَرَضِ يُصَابُ بِمَرَضٍ آخِرٍ يُسَمُّونَهُ قَرَحَةُ الْفَرَّاشِ ، بِطَبِيعِيَّةٍ لِقَوْمِهِ
الْمُسْتَمِرِّ عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ - عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ - وَقَدْ جَعَلَ لَهُمْ هَذَا
التَّغْلِيبَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ عَلَى هَيْئَةِ الْإِيقَاطِ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۖ ﴾ (١٨) [الكهف] ويبدو
أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس ماداً ذراعَيْهِ بِفَنَاءِ
الْكَهْفِ أَوْ عَلَى بَابِهِ ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُغْبًا ۖ ﴾ [الكهف] فَقَدْ أَلْقَى اللَّهُ مَهَابَتَهُمُ وَالْخَوْفَ مِنْهُمْ فِي نَفُوسِ

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام
تقليبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت
فرقة : إنما قَلَّبُوا فِي التَّسْعِ الْآخِرِ ، وَأَمَّا فِي الثَّلَاثَةِ فَلَا . وظاهر كلام المفسرين أن
التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبي ٤/٥ : ٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتيته . [القاموس الفيوم ٢/٣٢٩] .

الناس ، فإذا ما اطلع عليهم لإنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيبته توحى بذلك ، حيث يتقلبون يمينا وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحّر منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَتْسَاءٍ لِّوَايِنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت ، فقال (بَعَثْنَاهُمْ) ، والبعث هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أن يسأل بعضهم بعضاً عن مدّة لبثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الاول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ .. ۝١٩﴾ [الكهف]

فردّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ، فقال : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ۝١٩﴾ [الكهف] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

(١) الورق : الدراهم المخروبة ، والورق : بكسر الراء : الفضة ، [لسان العرب - مادة : ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدل على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . ولو وجدوا أنفسهم شيئاً لقدروا الزمن المناسب لهذا الشئ .

وهذه وقفة المشدود حين يُسأل عن زمن لا يدري مدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ^(١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

لقد حكم على مدة لبثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدا لم يتغير منه شيء ، فكيف يتأتى الصدق من الحق سبحانه في قوله (مائة عام) والصدق في قول العزيز بيوم أو بعض يوم ؟

لا شك أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق

(١) سنه الطعام بسنه : تغير بعد مضي زمن عليه . وتسنه الطعام : تغير . [القاموس القويم ٢٢٢/١]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُعِيدُوكَ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ (٢٠)

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التي قرأوا بها . فإن يردوكم فسينتصرون عليكم في الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن رددوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَظْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ (٢١)

في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴾ (٢١) [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فما أنتم ما زلتم على قيد الحياة وفي سعة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النومة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عثر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ﴾ (٢١) فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا

(١) أمثله على الأمر : أظلمه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴾ (٢١) [الكهف] . أي : جعلنا الناس يظلمون عليهم ويعرفون كهفهم وقصبتهم . [القاموس القويم ٧/٢] .
(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٧٧/٢) .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

﴿٢١﴾ ٨٨٦٥

رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. ﴿٢١﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على مسحة من الدين ، فأرادوا أن يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصح أنهم بمجرد أن عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُدرَّج لها ، وأن تخذل ؛ لذلك جعلوها مثلاً شرّوفاً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الغثية الذين ضلُّوا في سبيل عقيدتهم وفكروا بدينهم من سعة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ابْتُوا عَلَيْهِمْ بَنِيَانًا .. ﴿٢١﴾﴾ [الكهف] أى : مطلق البنين ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [٢١] [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلق بهم من تفاصيل هي في حقيقتها علم لا ينفع وجهل لا يضر ، فقال تعالى :

(١) حكى ابن جرير في الفاتحين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير في تفسيره (٧٨/٢) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فأتخذوا المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كتيفة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ
سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ
فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف ، منهم من قال : ثلاثة
رابعهم كلبهم . ومنهم من قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلق الحق
سبحانه على هذا القول بأنه - (رجماً بالغيب) : لأنه قول بلا علم ،
مما يدلنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم من قال : سبعة
وثامنهم كلبهم . ولم يعلق القرآن على هذا الرأي مما يدل على أنه
الأقرب للصواب .

ثم يأتي القول الفصل في هذه المسألة : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ..﴾ (٤٢) [الكهف] فلم يبين لنا الحق سبحانه عددهم
الحقيقي ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث في أمر
لا طائل منه ، ولا فائدة من وراءه ، فالمهم أن يثبت أصل القصة
وهو : الفتنة الأشداء في دينهم والذين قرأوا به وضحوها في سبيله
حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله
بهم ما فعل ، وجعلهم آية وعبرة ومثلاً وقُدوة .

(١) قيل : المراد بهم النصارى . فإن قوماً منهم حفرُوا النبي ﷺ من نجران فجرى ذكر
أصحاب الكهف فكانت اليهودية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا
خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار
عن اليهود الذين أمرُوا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبي في
تفسيره (٤١١٢/٥) .

1954 104

أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تؤخّر : لذلك قال تعالى بعدما : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا .. ﴾ (٢٢) ﴿ [الكهف] أي : لا تجادل في أمرهم .

ثم يأتي فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن اشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا في اسمه . وهذه كلها أمور ثانوية لا تنفع في القصة ولا تضر ، ويجب هنا أن نعلم أن القصص القرآني حسين يبههم أبطاله يبههم لحكمة ، فلو تأملت إبهام الأشخاص في قصة أهل الكهف لوجدته عين البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حوية الرأي .

ولو حدد زمانهم لقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ! لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعينهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتحقيق الفائدة المرجوة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْنُ البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ..

هكذا (رَجُلٌ مُؤْمِنٌ) دون أن يذكر عنه شيئا ، فالهمهم أن الرجولة في الإيمان ، أيًا كان هذا المؤمن في أي زمان ، وفي أي مكان ، وبأي اسم ، وبأي صفة .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ ۖ .. ﴾ (١٠) [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئا ، ولم يُشخصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالهمهم والمراد من الآية بيان أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبي المرسل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حرية عقديّة مُطلقة .

و كذلك في قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ۖ .. ﴾ (١١) [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هي ، ولم يُشخصها ؛ لأن تعيينها لا يُقدّم ولا يُؤخّر ، المهم أن نعلم أن فرعون الذي ادّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أن يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصي قلبي ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وما هي امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿ رَبِّ أَنِّي لِي عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) [التحريم]

أما في قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ۖ .. ﴾ (١٢) [التحريم] فشخصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذي ستتعرض له حَدَثٌ فريد وشيء خاص بها لن يتكرر في غيرها ؛ لذلك عيّنها الله وعرفها ، أما الأمر العام الذي يتكرر ، فمن الحكمة أن يظلّ مُبهمًا غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما في قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالا وقُدوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣)

وتتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبيب محمد ﷺ فلم يرد سبحانه وتعالى أن يصدد رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف ، ثم في النهاية ذكره بهذه المخالفة في أسلوب وعظ رقيق : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) [الكهف]

وقد سبق أن ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غدا ولم يقل : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعقاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفت نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٤) [التوبة]

فقدّم العفو أولاً وقررره : لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عوناً أو مساعدة ، وقد سبق أن أساء إليك ، فمن اللياقة ألا تخدمه بأمر الإساءة ، وتذكره به أولاً ، بل اقض له حاجته ، ثم ذكره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَأَذْكُرَّ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشِيدًا ۚ﴾ (٢٤)

أى : على فَرَض أنك نسيت العشيّة ساعة البدء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشْدًا ﴾ [الكهف] ٢٤ : يهدينى ويعيننى ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذكره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبداً عملاً إلا بقول : إن شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ
وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴾ ٢٥

وهذه الآية تعطينا لقطة من المذكرة التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدّد عدد السنين التى قضوها الفتية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلى بحساب الشمس .

لذلك : فالحق سبحانه لم يقل ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف] ٢٥ ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة : ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذي يظهر هلالاً في أول كل شهر ،
وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. ﴾ (٢٦) [التوبة]

فلو حسبت الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة
سنة وتسعاً ، إذن : هي في حسابكم الشمسي ثلاثمائة سنة ، وفي
حسابنا القمري ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن
الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً في كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيعات في الإسلام
بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت
الشمسي في طقس واحد لا يتغير ، فإن جاء الحج في الشتاء يظل
هكذا في كل عام ، وكم في هذا من مشقة على من لا يناسبهم الحج
في فصل الشتاء . والامر كذلك في الصيام .

أما في التوقيت القمري فإن هذه العبادات تدور بمدار السعام ،
فتأتي هذه العبادات مرة في الصيف ، ومرة في الخريف ، ومرة في
الشتاء ، ومرة في الربيع ، فيؤدي كل إنسان هذه العبادة في الوقت
الذي يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمعامل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من
الآيات والعجائب ، فلو تتبعتم مثلاً الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة
لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من
ملك الله تعالى ، وفي الوقت الذي تنادي فيه « الله أكبر » يُنادي آخر
« أشهد إلا إله إلا الله » وينادي آخر « أشهد أن محمداً رسول الله »
وهكذا دواليك في منظومة لا تتوقف .

وكذلك فى الصلاة ، ففى الوقت الذى تصلى أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلُّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلُّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله فى لحظة من اللحظات من قائم أو راكم أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة فى كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلِّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦)

الاسلوب فى قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴾ (٢٦) [الكهف] اسلوب تعجب أى : ما أشدَّ بصره ، وما أشدَّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شيء بلا قانون^(١) .

وقوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) [الكهف] كان الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حق لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغَيَّرَ كلامه .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤١٦٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى : برؤيته وإرشاده هناك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧)

أى بعد هذه الاسطة التى سالك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها
فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك
لكيدهم ، فإن أرادوا أن يصنعوا لك مازقاً أخرجك الله منه ، وإياك أن
تظن أن العقبات التى يقيمها خصومك ستؤثر فى أمر دعوتك .

وإن أبطأت نصرة الله لك فاعلم أن الله يريد أن يُعْصِ جنود
الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى
ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمر
بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا من هو
مأمون على حمل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ..﴾ (٢٧) [الكهف] لأن كلمات الله
لا يستطيع أحد أن يبدلها إلا أن يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام
هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى
لا يبدل ولا يُغَيَّرُ ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) [الكهف] أى : ملجأ
تذهب إليه ؛ لأن حسبك الله وهو نعم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

[الأنكروت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٤٨)

نزلت هذه الآية في « أهل الصفة »^(١) ، وهم جماعة من أهل الله
انقطعوا للعبادة فتناولتهم السنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا
لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون بكمالي الناس ؟ بل وذهبوا إلى
رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء
المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ ..﴾ (٢٨) [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نسميهم المجاذيب الذين
انقطعوا لعبادة الله أن لا نحقرهم ، ولا نقلل من شأنهم أو نتهمهم ؛
لان الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ
عبيدة بن حصين والأقرع بن حابس وذوهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست في
صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يحنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ،
وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرنا جلسنا إليك وجادتناك وأخذنا منك ،
فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَقْلِبْ مَا أَرْجَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلُ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا
(٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..﴾ (٢٨) [الكهف] . حتى
بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا ..﴾ (٢٩) [الكهف] . يتهددهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتصقهم
حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى
أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المسجبة ومعكم الضمات ، أخرجه الواحدى
النيسابورى في « أسباب النزول » ص ١٧١ ، وكذا الفرطى في تفسيره (٤١٢١/٥) .

الدنيا الذي انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْيَاهِ حينما يرى هذا العابد قد نفّض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُبَدِّدًا رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إن أصابه مكروه أو نزلت به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقْبَل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجانِب ليرد بهم جماع أهل الدنيا المنهمكين في دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا في خِدْمَةِ هؤلاء العباد ، ففي يوم من الأيام قُمْنَا لصلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخْرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهاً ، فأتى العامل بالمبلغ في صورة جنيهاً من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ مِنْ جنيهاً من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت في نفسي : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد في مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ۖ .. ﴾ (٢٨) [الكهف] أي : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدَدَ النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾ [الكهف] لأنك إن فعلت ذلك وانصرفت عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بعلازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقَوِّى هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دِينَهُمْ وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قَلَّة ، فى كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أَسْوَةً تُذَكِّرُ الناس وتكبح جماح تطُّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدعى حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وكى نصيباً واحتيالاً ، والشئ لا يدعى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدعى الطب أو يدعى العلم لما رأى من مَيزَات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المعجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءت إليهم تدق أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتهما ، فضلاً عما لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا - إذن - لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التى استمرأت حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. ﴾ (٧٨) ﴿ [الكهف] لانه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَنْ اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذائق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبي ﷺ الموقف من الدنيا في قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خَدَمَنِي فَأَخْذُمِي ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَعْدِي... »^(١) فالدنيا بأهلها في خدمة المؤمن الذي يعمر الإيمان قلبه ، وليس في باله إلا الله في كل ما يأتي أو يَدْعُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. ﴾ (٧٨) [الكهف] أي : أن هذا الذي يُحَرِّضُكَ على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وآلهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به »^(٢) .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغيبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١) [المؤمنون]

(١) أورده الشوكاني في « الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٢٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود ، وفي إسناده : الحسين بن داود البلخي ، والحديث موضوع » . قال الكناشي في « تنزيه الشريعة » (٢٠٢/٢) : « تعقب بأن له شاهدا من حديث النعمان بن بشير . أخرجه البيهقي في الشعب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل ، قال الخطيب في تاريخ بغداد (٤٤/٨) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب المنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعفه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ لَفُطًا ۖ﴾ (٢٨) [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۖ﴾ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : قل الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يقل من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) [الزخرف]

وقوله : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ﴾ (٢٥) [لقمان]

فمعنى : ﴿مِنْ رَبِّكُمْ ۖ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم ورباكم وتعهدكم هو الذى نزل لكم هذا الحق و ﴿رَبِّكُمْ ۖ﴾ .. (٢٩) [الكهف] أى : ليس ربي وحدي ، بل ربكم ورب الناس جميعاً .

(١) السرادق : الشيعة وكل ما أحاط بالشيء أو ما يمد فوق حنن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فكلما أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [المقاموس القويم ٢٠٩/١]

(٢) قال ابن عباس : المهمل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورمالين ونحاس ، فتصوج بالفلين ، فذلك المهمل . [تفسير القرطبي ٤١٢٤/٥]

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مدعى الأمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعرض من الدنيا ، فيفتنون الناس بتحليل ما حرّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإن كان فطرياً في النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخَفِّفُ عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملّة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويصدقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّبُ نفسه أنه على دين يريعه ، ويفعل في ظله ما يريد .

إذن : ما دُمتُم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول في المثل : (إلى يأكل لقمتي يسمع كلمتي) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قل لهم : لا جبر في الإيمان ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء في الحديث القدسي^(١) : « إنكم لن تملكوا نفسي فتتفغنوني ، ولن تملكوا ضُرِّي فتضروني ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كل مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يمرّ ريزة إذا

(١) أخرجه الترمذي في سننه يتحد (٢٤٩٥) . وأحمد في مسنده (١٥٤/٥ ، ١٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سرّاً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيَتَهُمْ قالوا : نتوسل إليك بمن يحب ، فربما خجل أن يقبل منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه من يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، فلما كلمه عمه قال قولا المشهورة : « والله ، يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه »^(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتوه من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهي إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دعك من هؤلاء الفقراء ، واصرف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ .. ﴾ (٢٨) [الكهف]

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذي أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أنزل عليهم : لأن رسول الله إنما أرسل ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأن يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأن بعثني بالحق رسولا إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإن كنتم تريدون

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبي طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له : فأبى علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه ، فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة في مكة ويجهر بها في أنحى صناديد الكفر وعُتاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانة وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأت نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقليل : إِنَّهُمْ أَلْفُوا النَّصْرَ وَأَلْفُوا السِّيَادَةَ عَلَى الْعَرَبِ ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم ليسودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۖ ۝ (٢٩) ﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهَوَّل الآية وتُفخَّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتقطيعه والإنذار به لا ليوقع الناس في موجبات العقاب ، بل لينتهروا عن الجريمة ؛ وينأوا عن أسبابها ، إذن : فتقطيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْفَ العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أَعْتَدْنَا) أى : أَعَدَدْنَا ، فالمسألة منتهية مُسَبِّقًا ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعَدَّة ومُجَهَّزَةٌ ، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل ، وقد أَعَدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فاعِدُّ الله الجنة لتتسع لكل الخلق إن آمنوا ، وأَعَدَّ النار لتتسع لكل الخلق إن كفروا ، فإن آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذى آمن وقَرَّ مكانه في النار ، والذي كفر وقَرَّ مكانه في الجنة .

لذلك قال تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

إذن : فخلق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكل مكانه المعد المخصص .

وقوله تعالى : ﴿ لِلظَّالِمِينَ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإضرار بالله ، لأنك تأخذ حق الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قدر ظلمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتر عنه ، فإن ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعَذَّب به ، ثم يُدْخِلُهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، إن لم يَشَبْ ، وإن لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴾ (٢٩) [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكان الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خيال من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خال من النار قد توحى إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أن يؤيسهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢٩) [الكهف]

الاستغاثة : صرخة ألم من متالم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي .. ﴾ (٢٢) [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذهن أنهم يُغَاثُونَ بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ .. لَا ﴿يُفَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَيْ : فَإِنْ طَلَبُوا الْغُوثَ بِمَاءٍ بَارِدٍ يَخَفَّفُ عَنْهُمْ أَلَمَ النَّارِ ، فَإِذَا بِهِمْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .

والمهل هو عكارة الزيت المغلي الذي يسمونه الدُرْدِي ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غلي الماء ، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار ، ويُعَذِّبُونَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَظِرُونَ الرَّحْمَةَ .

وقوله تعالى هنا : ﴿يُفَاثُوا﴾ أسلوب تهكمي : لأن القاعدة في الأساليب اللغوية أن تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتعنته حال فرحه ، وتعزیه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فَإِنْ أُخْرِجَتْ الْمُقْتَضَى عَنْ الْحَالِ الَّذِي يَطْلُبُهُ ، فَهَذَا يَنَافِي الْبَلَاغَةَ إِلَّا إِنْ أُرِدَتْ التَّهْكُمُ أَوِ الْاسْتَهْزَاءُ .

إِذَنْ : فَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْكَافِرِ : ﴿وَأِنْ يَسْتَفْهِشُوا يُفَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] تَهْكُمُ بِهِمْ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ خَرَجَ عَنْ مُقْتَضَى الْحَالِ ، كَمَا يَقُولُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ الَّذِي أَخْفَقَ فِي الْإِمْتِحَانِ : مَبَارَكٌ عَلَيْكَ السَّقُوطُ .

وَمَعْنَى : ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَنَّ الْمَاءَ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ يَشْوِي وَجُوهَهُمْ ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ أَجْوَافَهُمْ : ﴿يَشْوِي الشَّرَابُ﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَيْ : الَّذِي يُفَاثُونَ بِهِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] الْمُرْتَفَقُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَضَعُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مُرْفَقَهُ لِيَجْلِسَ مُسْتَرِيحًا ، لَكِنْ بَالِدٌ هَلْ هُنَاكَ رَاحَةٌ فِي جَهَنَّمَ ؟

إِذَنْ : فَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ التَّهْكُمِ بِهِمْ وَتَبْكِيَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ ۞ ﴾ [الكهف] أراد سبحانه أن يُبَيِّنَ حكم كُلِّ مَنْ الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللف والنشر^(١) ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورد أحكامها حسب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللف والنشر على الترتيب قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ۞ ﴾ [الفصل] أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي

هذه أربع مُخبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي رَاضٍ وَبَاكِ شَاكِرٌ وَغُفُورٌ

فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ،

وخالقي غفور .

ومرة ، يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقة بأن نباهة السامع سترد كل شيء إلى أصله^(٢) كما في الآية التي نحن

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئين أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يأتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتيان في علوم القرآن ٢/ ٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَادْخُلُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾ [آل عمران] .

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدَّ لكثير من المتاعب والمشاق التي تحتاج إلى التواصي بالصبر والتواصي بالحق ، ولنا أسوة في هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحملوا عبء الدعوة وصبروا على الأذى في سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ؛ لذلك لم يقل سبحانه : إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ الْإِيمَانَ ؛ لأن العامل الذي يُحسن العمل قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقه ، بل يعطيه حظه من الجزاء في الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن في علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجل له في الدنيا وتنتهي المسألة حيث لا حظ له في الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۖ ﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ^(١) عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۖ ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴾ [النور]

(١) العاجلة : الدنيا - والأجلة : الآخرة [لسان العرب - مادة : عجل] .

فهؤلاء قد استوفوا أجرهم ، وأخذوا حظهم في الدنيا الوانا من
النعيم والممدح والثناء ، وخُلِدَتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل
والاحتفالات ؛ لذلك يأتي في الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث
فُوجيء بوجود إله لم يكن يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره ممن
عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية والمجتمع وللشهرة ،
وقد نالوا هذا كله في الدنيا ، ولم يبقَ لهم شيء في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ حَدِّيّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ ^(١) وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۖ﴾

(أولئك) أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ..
(٢١)﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة في الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً
وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعى : فهو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدها الله
تعالى لثواب المؤمنين في الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهى المكان الذى فيه
زرع وثمار وأشجار تُرارى من سار فيها وتستتره ؛ ومادة الجيم والتون
تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات
لا ترى والجنة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يحدثنا عن شيء غيبي يحدثنا بما
يوجد فى لغتنا من ألفاظ ، واللغة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

(١) السندس : رقيق النسيج ، وهو الحرير الذى يتكون الوانا ، [القاموس القويم ٢٢١/١] .
والإستبرق : النسيج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه منفرد والملابس
الخارجية . [القاموس القويم ١٨/١] .

ثم يُوْجَد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإن نُطِق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التي يُحَدِّثُنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

إذن : فمن أين نأتى بالالفاظ الدالة على هذه المعاني ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعَبِّرُ عنها الحق سبحانه بالشبيه لها في لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذي يُمَيِّزُها عن جنة الدنيا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. ﴾ (١٥) [محمد]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. ﴾ (١٥) [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربيها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاهما اسم الخمر لنعرفها ميّزها بأنها لذة ، وخمر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التي سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فيها ما لا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول - صفحة ٦٩ - ٨٥ .

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففي قوله : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعها أحد عنك أن يَسُدَّهُ دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجري (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنعها أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المباني عليها ، خذُ مثلاً المسطحات المائية للذيل ، أو الرياح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لوجدت مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أن نقيم المساكن الكافية لسكّنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخضرة وللزراع ولِقَوْتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتُ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : فى الآية لفحة يمكن أن تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

﴿ ٨٨٩ ﴾

ثم يقول تعالى : ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ .. ﴾ (٢١) ﴿ [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التي يتحلَّى بها الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن في طموحات الإنسان في زُخرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب في الأجرة زينة وزخرف ، وفي آية أخرى ، يقول تعالى : ﴿ وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ .. ﴾ (٢٢) ﴿ [الإنسان] ومرة أخرى يقول : ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٢٣) ﴿ [فاطر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه الحلية في الأجرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن^(١) . ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ .. ﴾ (٢١) ﴿ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل (يُحَلِّوْنَ) أي : حلَّاهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملابس ، وهو من الضروريات قال :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. ﴾ (٢٤) ﴿ [الكهف]

فاتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴾ (٥٨) ﴿ [يونس]

(١) أخرج أحمد في مسنده (٣٧١/٢) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٠) ، والنسائي في سننه (٩٢/١) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبي مريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا مريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لي : يا بني فرَّوخ أنتم هامنا ، لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء ، سمعت خليلي ﷺ يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

أى : إياك أن تقول هذا بعملى ، بل بفضل الله وبرحمته : لذلك نرى الرسول ﷺ يقر بهذه الحقيقة ، ليقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » ^(١) .

ذلك لأنك لو نظرت إلى عملك لوجدته بعد تكليفك الذى كلفت به فى سن البلوغ ، وقد عشت طوال هذه العدة ترتع فى نعم الله ورزقه دون أن يكلفك بشيء ؛ لذلك مهما قدمت له تعالى من طاعات ، فلن تقى بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذت حقك سابقاً ومقدماً فى الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿ يَلْبِسُونَ .. (٢٦) ﴾ [الكهف] أى : بما عملوا ، أما فى الزينة والتحلية فقال : (يُحَلِّوْنَ) كالرجل الذى يُجهِّز ابنته للزواج ، فسيأتى لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخرف الحياة من نجف أو سجاد أو خلافة .

واللباس من ضروريات الحياة التى امتنَّ الله بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُرَاتِكُمْ وَرِيشًا .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] والريش : هو الكماليات التى يتخذها الناس للتحففة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) . ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

سورة الكهف

٨٨٩٧

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطنطس ، وهي كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (أمين) التي نتخذها شعاراً في الصلابة وأصلها يعني أو حبشي . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربي ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ في لغة العرب ساعة نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارت على الألسنة ، وجرت مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التي دخلت العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخف في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرها مجمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها في اللغة ولم تكن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخطبوا بها ، فقد أصبحت جزءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ .. ﴾ (٣١) [الكهف]
 الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه ، والأرائك : هي السرر التي لها حلية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نَعَمْ الْقَوَابُ .. ﴾ (٣١) [الكهف]
 الكلام منطقي : ﴿ وَحَسِّنْتَ تَرْفُقًا ﴾ (٣١) [الكهف] أي : أن هذا هو مقتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَاءَتْ تَرْفُقًا ﴾ (٢٩) [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلَ رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَبٍ وَخَفَقْتَهُمَا بِالنَّخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ ٣٢ ﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول
الله ﷺ عن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وبذلك
انقسم الناس إلى قسمين : قسم متكبر حريص على جاهه وسلطانه ،
وقسم ضعيف مستكين لا جاء له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه
يريد استطراق آياته استطرافاً يشمل الجميع ، ويسوّى بينهم .

لذلك : أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً موجوداً في
الحياة ، ففي الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، عليك أن تتأمل
موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلَ رَجُلَيْنِ .. ۝ ٣٢ ﴾ [الكهف] قلنا : إن
الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بد
أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربت بيدك شيئاً
أقوى منك فقد ضربت نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) سبب نزول الآية : ورد في نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

- نزلت في أخوين من أهل مكة مغزومين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن
عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث
كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فاتفق أحدهما ملك في سبيل الله ، وطالب أخاه شيئاً فقال
ما قال . قاله الكلبي وذكره الثعلبي والقضيري .

- وقيل : هو مثل لميعة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم
الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن وأسمه يهوذا . في قول ابن عباس .
وقال مقاتل : اسمه تليخا . والآخر كافر وأسمه قوطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل
للقرطبي في تفسيره (٤١٢٩/٥ . ٤١٣٠) .

وَضُرِبَ الْمَثَلُ يَكُونُ لِإِثَارَةِ الْإِنْتِبَاهِ وَالْإِحْسَاسِ ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ
حَالَةٍ إِلَى أُخْرَى ، كَذَلِكَ الْمَثَلُ : الشَّيْءُ الْفَاعِلُ الَّذِي لَا تَفْهَمُهُ
وَلَا تَعِيهِ ، فَيُطْرَبُ الْحَقُّ سَبِيحَانَهُ لَهُ مِثْلًا يُوضِّحُهُ وَيُنَبِّهُكَ إِلَيْهِ ؛ لِذَلِكَ
قَالَ : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ۖ ﴾ (٢٢)

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ احْتَفِ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

وَشَبَّهَ الْمَدَاحُ فِي الْبَاسِ وَالْفَتَى
بِمَنْ لَوْ رَأَى كَانَ أَصْفَرَ خَادِمٍ

فَقِي جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفًا كَعَنْتَرٍ وَلَيْ خُرَّانَ الْفُ حَاتِمَ

(١) هو : صبيح بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائكه . توفي عام ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

فألهمه الله الرد عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :
لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا^(١) فِي النُّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِتُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ^(٢)
إذن : فالمثل يأتي لينبّه الناس ، وليوضح القضية غير
المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا بَعْرُضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ (٢٦) [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالا كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما في
قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) [العنكبوت]
وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿ وَلَا تَكُونُوا
كَأُولِي نَقْصَتٍ غَزَلْنَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا .. ﴾ (٩٢) [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا
حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) [البقرة]

ومنه قوله تعالى مُصَوِّرًا حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال :
﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ حَشِيمًا^(٣) تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (٤٥) [الكهف]

(١) المثل الشرود : إخراج من المألوف والعادة ، والندى : السخاء والكرم ، والبأس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج ، والمشكاة : كوة في جدار البيت ليست بنافذة ، وتُعرف في قرانا بـ : الطاقة ، مع نطق القاف همزة .

(٣) الحشيم : الحطب والخشب المحطم الذي تكسر ، والحشيم : الثبت الباس المتكسر ، وتهشم الشجر تهشما إذا تكسر من بيسته . [لسان العرب - مادة : هشم] .

(٤) ذكر الماوردي فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٤١٣١/٥) : « إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبي : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أن يصدق بنصيبه ، وإن يشتري به أرضاً في الجنة وقصراً في الجنة وفضل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرة جهدك وعملك ، ونتيجة سعيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِدِي ۚ ۞ ﴾ [القصص] فتركه الله لعلمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ۚ ۞ ﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بفناه ، ومؤمن قنوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف]

فقد علمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سوراً من النخيل ليكون سياجاً يحمي الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهى من الفاكهة قبل الزرع الذى منه القوت الضرورى ، كما ذكر من قبل الاساور من ذهب ، وهى للزينة قبل الثياب ، وهى من الضروريات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ ۚ ۞ ﴾ [الكهف] نراها إلى الآن فيمن يريد أن

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أن يضرب لنا المثل في مضاعفة
الاجر ، قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَبَّةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ۖ ﴾ (٢٦٦) [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق
الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَاللَّهُ
يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦٦) [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أن تعطيك على قدر
تعبك وكذلك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر
لك هذا المجهود ، والتبى ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه
من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »^(١) .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قدر حاجتها ، بل
على أكثر من حاجتها ، عملت لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كل عامل
على قدر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أن يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي
العاجزين عن العمل ، وهب أنك لن تتصدق بشيء للمحتاج ، لكنك
ستبيع الفائض عنك ، وهذا في حد ذاته نوع من التيسير على الناس
والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تُجزل لك العطاء

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالا
من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال الهيثمي في المجمع (٦٢/٤) : « رواه الطبراني في
الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » وعزاه السيوطي في الدرر المنتثرة (ج ٢٨٨) لابن
عساكر . وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

إِنْ بَرَرْتُ بِهَا ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإن كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألا تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرمتموها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أمنا على وجه التشبيه ، بل هي أمنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تقبله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إن مات وصار جيفة يانف منه كل أخ مُحِب وكل قريب ، في حين تحتضنه الأرض ، وتمتص كل ما فيه ، وتستتره في يوم هو أحوج ما يكون إلى السُّتر .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٢] ذلك لأن الماء هو أصل الزرع ، فجعل الله للجنة ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجب أحدهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

أى : لم يقتصر الأمر على أن كان له جنتان فيهما النخيل والاعناب والزرع الذى يُؤتى أكله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أى : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاوره : ﴿ فَقَالَ لِمَ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٤) [الكهف]

دليل على أن ما تقدم ذكره من أمر الجنتين وما فيهما من نعم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول (لِمَ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا) ، والصاحب هو : مَنْ يَصَاحِبُكَ ولو لم تكن تحبه (يُحَاوِرُهُ) أي : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فلماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا .. ﴾ (٣٤) [الكهف] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٤) [الكهف] داخله في قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ (٣٤) [الكهف] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ

مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذَا أَبَدًا ﴾ (٣٥)

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] ؟ نقول : لأن الإنسان إن كان له جنتان فلن يدخلهما معا في وقت واحد ، بل حال دخوله سوف يواجه جنة واحدة ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرْخِي لها عنان الشهوات ، فيسرحها من مشتبهات أخرى ، ويُفَوِّت عليها ما هو أبقي وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه : لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهى ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة - إذن - جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، فإن قلت : كيف وأنا ونفسي شيء واحد ؟ لو تأملت لوجدت أنك ساعة تحدث نفسك بشيء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحرارية شهوانية ، فإن مالت النفس الشهوانية أو انحرفت قومتها النفس الفطرية وعدلت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عمّت المعصية في الناس ، ولم يعد هناك من ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولا يرشدهم ويذكّرهم ، إلا في أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حملهم رسالة نبيه ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم من يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكانه سبحانه يطمئنا إلى أن الفساد لن يعم ، فإن وجد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضا الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساس يقوم عليه المجتمع الإسلامي .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف]

فهو معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنة يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حدث نفسه به حال دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالفتى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظن أن تبعد هذه النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا فقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٥﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإن قبِلْتُ منه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ [الكهف] فلا يُقِيلُ منه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ۝٣٦﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة هزّته الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي .. ۝٣٦﴾ [الكهف] أى : على كل حال إن رُدِدْتُ إلى ربى فى القيامة ، فسوف يكون لى أكثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعد له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لننأمل قول هذا الجاحد المستعلى بنعمة الله عليه المفتون بها : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي .. ۝٣٦﴾ [الكهف] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإن كنت كاذباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقض نفسك ، فما حدث منك من استعلاء وغرور وشك فى قيام الساعة يتناقض وقولك (ربى) ولا يناسبه .

و (منقلباً) أى : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۝٣٧﴾

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد . [القاموس القويم ٢٧١/٢] .
والنطفة : القليل من الماء . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : نطف] : « : وبه سُمِّيَ المني نطفة لقلته » .

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمنُ مُحاوراً ومُجادلاً ليُجِلِّيَ له وَجْهَ الصوابِ : ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ .. ﴾ (٢٧) [الكهف] أى : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بذاتك ومنشأك من تراب الذي هو أصلُ خَلْقِكَ ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ .. ﴾ (٢٨) [الكهف] وهى أصل التناسل ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : كاملاً مُستَوياً (ملو هودك) .

و ﴿ سَوَّاهُ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] التسوية: هى إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته فى الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّوَّى مستقيم ، والخطاف فى نهايته أعوج ، والاعوجاج فى الخطاف هو عَيْنُ استقامته واستواء مهمته ؛ لأن مهمته أن تخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة فى ﴿ أَكْفَرْتَ .. ﴾ (٢٧) [الكهف] ليست للاستفهام ، بل هى استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْرٍ ونسيانٍ لحقيقة أمره وبداية خَلْقِهِ .

والتراب هو أصلُ الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقِهِ ؛ لأن الله تعالى ذكر فى خلق الإنسان مرة (من ماء) ^(١) ومرة (من تراب) ^(٢) ومرة (من حمأ مسنون) ^(٣) ومرة (من صلصال كالفخار) ^(٤) .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة فى خلق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإن أضيفَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطت الطين بفضله ببعض

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ (٥٥) [المسجدة] .

(٢) ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا خَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ أَدَّبْنَاهُ نَفْسًا فَاعْلَمْ ﴾ (٣١) [الرحمن] . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ .. ﴾ (٢٧) [الروم] .

(٣) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٦) [المجد] .

(٤) يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (٦٠) [الرحمن] .

صار حملاً^(١) ميسنوثاً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صلباً ، إذن : فهي مرحليات لشيء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨)

قوله : ﴿لَكِنَّا .. (٣٨)﴾ [الكهف] أى : لكن أنا ، فصذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لست مثلك فيما تذهب إليه ، فإن كنت قد كفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً ، فإنا لم أكفر بمن خلقنى ، فقولى واعتقدى الذى أومن به : ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي .. (٣٨)﴾ [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يقل : الله ربى ، إنما جاءت ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرق كبير بين القولين : لأن الرب هو الخالق المتولى للتربية ، وهذا أمر لا يشك فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشك فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف : لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وانكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول : ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨) [الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبان لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أن يعدى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أن أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يعلم

(١) الحمأ والحماة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مُمَصَّرَ بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصفل . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه ، وايضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدي الكافر ؛ لأن المؤمن صُحَّح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحَّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أن تدعوَ على عدوك أن تدعوَ له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وما هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٤٦)

يريد أن يُعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأن يرد النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التي يتقلب فيها الإنسان لا فضلَ له فيها ، فكما موهوبة من الله ، فهذه الحقائق والبساتين كيف أتت أكلها ؟ إنها الأرض التي خلقها الله لك ، وعندما حرثتها حرثتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا تدخلُ لك فيه ، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك في أي وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهية إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خذُ هذا المقعد الذي تجلس عليه مستريحاً وهو في غاية الأناقة وإبداع الصُّنعة ، من أين أتى الصُّنَّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته

قطعة خشب من إحدى الغابات ، ولو سالت الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتك : من الله .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٢) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلست بجوارها تنميتها وتشدها من الأرض ، فتتمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوسعك أن تطوعها لهذا العمل لولا أن سخرها الله لك ، وذلكها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حُلَّتْ أيُّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويذهب أو يثمر لا تأمن أن تأتيه آفة أو تحل به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا^(١) مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَمَسُّونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

(١) ليصرمها : أي : حلفوا فيما بينهم ليجزن ثمرها ليلاً لثلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا ينصدلوا منه بشيء . [تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦] .

سورة الكهف

٨٩١٣

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (٦٨) أَأَنْتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ (٦٩) [الواقعة]

هذا الماء الذي تشربونه عذباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل ؟
هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو ؟ وكيف ينعقد
سحاباً تسوقه الرياح ؟ هل دريتم بهذه العملية ؟ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أُجْحَاً .. ﴾ (٧٠) [الواقعة]

أى : ملحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتن الله على عبده بأى نعمة يذكركم بما يتلقونها ، لئلا
ليست من سخطهم ، وعليهم أن يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم
ولا تزول ، وإلا فليحافظوا عليها هم إن كانت من صنع أيديهم !

وكذلك في مسألة خلق الإنسان يوضح سبحانه وتعالى أنه
يمنح الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (٥٨)
أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٥٩) نَحْنُ قَادِرُونَ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَوْفِينَ ﴾ (٦٠) [الواقعة]

فإن كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت ،
فذكر سبحانه النعمة في الخلق ، وما ينقض النعمة في أصل الخلق .

أما في خلق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى :
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُنْشِئُونَ ﴾ (٧٢) [الواقعة]

(١) أورى القاذح زنده : أخرج منه النار . [القاموس القديم ٢/٢٢٢] . قال ابن كثير في
تفسيره (٢٩٦/٤) : . . . أى : تخرجون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها . . .

فذكر سبحانه قدرته في خلق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقل : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خلق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخلق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخلق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا في النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريد بها مشتعلة مضطربة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾^(١) (٧٣) ﴿

[الواقعة]

كما نقف في هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودقة الأداء القرآني ؛ لأن المتكلم ربٌ يتحدث عن كل شيء بما يناسبه ، ففي الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرث والبذر والسقي وغيره - نراه يؤكد الفعل الذي ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ .. (٦٥) ﴿ [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما في الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل في تكوينه - فلا حاجة إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ .. (٧٠) ﴿ [الواقعة] دون تأكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً في هذا الماء الذي ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذي يتصح صاحبه الكافر ، ويُعلمه كيف

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، يعني بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : ألوت الدار إذا رحل أهلها . وقال مجاهد : يعني السنتيين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٧/٤) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن العاصر والبادي من غني وفقير ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ ﴾ [الكهف: ٢٤] (لولا) بمعنى : هلا وهي للحث والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرأة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت » ^(١) .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألا تلهيك النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أي : أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي ، بل فضل من الله فترد النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددت النعمة إلى خالقها فقد استأمنتها عليها واستحفظته إياها ، وضمنت بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق - رضى الله عنه - كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعترئها من تقلبات تعكر عليها صفو الحياة من خوف أو قلق أو هم أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضى الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول في الخوف : « عَجِبْتُ لِمَنْ خَافَ وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ حَسْبَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ بَعْضُهَا يَقُولُ : ﴿ فَانْقَلِبُوا ^(٢) بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [١٧٤] » .

[آل عمران]

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبد من نعمة في أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٤٠) وقال : « رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : رجعوا . قال ابن منظور في اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقا » . [لسان العرب - مادة : قلب] .

وعجبتُ لمن اغتَمَّ - لأن الغَمَّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شيء لا يعرف سببه - وعجبتُ لمن اغتَمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء] فإنني سمعت الله يعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ..﴾ (٨٨) [الأنبياء] ليس هذا فقط ، بل : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الأنبياء] وكأنها (وصفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبي الله يونس عليه السلام .

فقول المؤمن الذي أصابه الغم : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ..﴾ (٨٧) [الأنبياء] أى : لا مفزع لى سواك ، ولا ملجأ لى غيرك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ..﴾ (٨٧) [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصير ، فعل ما وقعت فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسى هو سبب هذا الغم الذى أعانته .

وعجبتُ لمن مكر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿وَأَقْرَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ..﴾ (٤٤) [غافر] فإنني سمعت الله يعقبها يقول : ﴿فَرَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا ..﴾ (٤٥) [غافر] فالحمد لله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَأْكُرِينَ﴾ (٥٤) [آل عمران]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها - صاحب الطموحات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها - كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٢٩) [الكهف] فإنني سمعت الله يعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ..﴾ (٤٠) [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حفظت ونمت ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذي لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذي يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير في الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (٣٩) [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيبين لصاحبه ما غيره به من أنه فقير وهو غني ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَلَدًا ﴾ (٣٩) [الكهف]

ثم ذكره بأن الله تعالى قادر على أن يبدل هذا الحال ، فقال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ

فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (٤٠)

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شك فيه : لذلك حينما نقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْتَ عليه : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفت بنعمة الله عليك ورددت الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٧) [إبراهيم] .

فقلوه : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾ (٤٠) [الكهف] أي : ينقل مسألة الغنى والفقر ويحولها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرة لك على جلبها من البداية ، إذن : يمكن أن يعطيني ربي نعمة مثل نعمتك ، في حين تظل نعمتك كما هي ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلب نعمتك ويزيلها :

﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ ﴾ [الكهف] هذه النعمة التي تعزّز بها وتفخر بزمهرتها وتتعالى بها على خلق الله يمكن أن يرسل الله عليها حُسْبَانًا .

والْحُسْبَان : الشيء المحسوب المقدّر بدقة وبحساب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۝ ﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة على نظام دقيق لا يختل ، مثل الساعة لا تستطيع أن تعرف بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حُسْبَانًا لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشَأً على حُسْبَان .

وَحَسِبَ حُسْبَانًا مثل غفر غفرانًا ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التي اغترّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقَدَّرَةٌ على قَدْرِ هذه الجنة لا تتعدّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتني كما أصابت غيري .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَصِحَّ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالتخيل والاعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحت صَعِيدًا أى : جذباء يعلوها التراب ، ومنه قوله تعالى في التيمّم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ۝ ﴾ [النساء] ليس هذا فقط ، بل ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ﴾ [الكهف] أى : ترابًا مَبْلَلًا تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشى عليه .

أَوْ يَصِحَّ مَا وَهَّاهُ غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٥١﴾

(غَوْرًا) أى : غائراً فى الأرض ، فإن قُلْتُ : يمكن أن يكون الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمه فى أى حيلة يفكر فيها : ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف] أى : لن تصل إليه بأى وسيلة من وسائلك . ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِهِمْ مِنْهُ ﴾ [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿لَعَسَى رَبِّي ..﴾ [الكهف] رجاء لم يحدث بعد ، ولم يصل إلى إيقاعات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْتَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرْسِهَا وَيَقُولُ يَلَيْسَ لِي لَمْ أُمْسِكْ رَبِّي أَحَدًا ﴿٤٩﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكان الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه ﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ﴾ [الكهف] أحيط : كأن جعل حول الشمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ أَحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس]

وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿ وَأَحِيطْ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف] ولم يقل مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشئ ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشد ، والثمر هو الغاية والمحصول النهائية للزرع .

ثم يُصَوِّرُ الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأَسَفَهُ عليها : ﴿فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ ﴿٤٤﴾ [الكهف] أى : يضرب كَفًّا بكف ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوثاً لا يدري ما يقول ، فيضرب كَفًّا بكف لا يتكلم إلا بعد أن يُفِيق من هَوْل هذه المفاجأة ودمغشتها .

ويُغْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى أَى شَيْءٍ ؟ يُغْلِبُ كَفَّيْهِ نَدَمًا عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ﴿٤٥﴾ [الكهف] خاوية : أى خَرِبَةٌ جَرْدَاءٌ جَدْبَاءٌ ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ﴿٤٦﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دَكَّتْ عُرُوشَهَا ، وجعلت عاليها سافلها ، فوق العرش أولاً ، ثم تهدمت عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٧﴾ [الكهف] بعد أن ألجمته الدهشة عن الكلام ، فراح يضرب كَفًّا بكف ، أفلق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القولى الفورى : ﴿بَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٨﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ﴿٤٩﴾

أى : ليس لديه أعوان وُنُصْرَاءٌ يدفعون عنه هذا الذى حلَّ به ، ويمتنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغى له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

هناك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقت أن نزلت الصاعقة من السماء ، فأتت على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هناك تذكر المنعم وتمنى لو لم يشرك بالله ، فقله : ﴿ هُنَاكَ ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القعة ، قمة النكد والكدر .

و﴿هَٰذَاكَ﴾ جاءت في القرآن في الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر
الاعجب . من ذلك قصة سيدنا زكريا - عليه السلام - لما دخل على السيدة
مريم ، فوجد عندها رزقا : ﴿ قَالَ يَمْحَرَّمُ أَتَىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

وكان زكريا - عليه السلام - هو المتكفل بها ، الذي يحضر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يأت بها سألها من أين ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فاطمع هذا القول زكريا في فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى :

﴿هَئِذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (٢٨) ﴿إِلَٰهَ عِمْرَانَ﴾

و(الْوَلَايَةُ) أَنْ يَكُونَ لَكَ وَلِيٌّ يَنْصُرُكَ ، فَالْوَلِيُّ هُوَ الَّذِي يَلِيكَ ، وَيدافع
عَنْكَ وَفِي الشَّدَةِ ، وَفِي قِرَاءَةِ أُخْرَى ^(١٤) : (هَذَاكَ الْوَلَايَةُ) بِكَسْرِ الْوَاوِ
يَعْنِي الْمَلِكَ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر]
وَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ خَيْرٌ نَوَاحٍ ۖ ﴾ [الكهف] لِأَنَّهُ سَيَجَازِي عَلَى الْعَمَلِ

(٦) قال القزويني في تفسيره (٤١٤٢/٥) : « قرأ الأعشى وحمزة والكسائي ، الولاية ، يكسر الواو ، والباقيون يفتحونها ، وهذا بمعنى واحد كالرُضاعة والرُضاعة . وقيل : الولاية يالفتح من الموالاة . وبالكسر يعني السلطان والفدوة والإمارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو الخالق ، وبكسرهما للمخلوق . »

الصالح بشواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ [الكهف]
 أى : خير العاقبة بالرزق الطيب فى جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنى الكافر ،
 والفقير المؤمن ، وبين لنا أن الإنسان يجب ألا تخدعه النعمة ولا يغرّه
 النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعم سبحانه دائماً
 على بالك ، كى يحافظ لك على نعمتك وإلا لكُنتَ مثلَ هذا الجاحد الذى
 استعصى واعتزّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رايت .

وهذا مثل فى الأمر الجزئى الذى يتعلق بالمكلف الواحد ،
 ولو نظرت إليه لوجدته يعمُ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغّر لحال الحياة
 الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئى إلى المثل العام ،
 فقال تعالى :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
 فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١٥)

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يوضح المجهول لنا بما علم
 لدينا . وأهل البلاغة يقولون : فى هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه
 سبحانه شبه حال الدنيا فى قصرها وسرعة زوالها بالماء الذى نزل
 من السماء ، فارتوت به الأرض ، وأنبتت ألواناً من الزروع والشمار ،

(١) تذروه الرياح : تفرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان :

تذهب به وتجره . وقال ابن عباس : تديره . قال القرطبي فى تفسيره (٤١٤٢/٥)

والمعنى متقارب .

ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات وبصير هشيمًا مُتَفَتِّتًا تذهب به الريح .

وهذه صورة - كما يقولون - منتزعة من مُتَعَدِّد . أى : أن وجه التشبيه فيها ليس شيئًا واحدًا ، بل عدَّةُ أشياء ، فإن كان التشبيه مُركَّبًا من أشياء متعددة فهو مُثَلٌّ ، وإن كان تشبيه شيء مفرد بشيء مفرد يُسمُّونه مُثَلٌّ ، نقول : هذا مُثَلٌّ هذا ، لذلك قال تعالى ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٧٤) ﴾ [النحل] : لأنَّ لله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهرة مُثمرة حلوة نضرة ، وفجأة لا تجد في يدك منها شيئًا ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيَا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فأى وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيَا .

وكان الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : كما ضربتُ لهم مُثَلَّ الرِّبَايِنِ وما آل اليه أمرهما اضرب لهم مُثَلَّ الحياة الدنيا وأنها تتقلب بأهلها ، وتتبدل بهم ، واضرب لهم مُثَلًّا للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الكهف] أى : اختلط بسببه نبات الأرض ، وتداخل بعضه فى بعض ، وتشابكت أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات فى الأرض الخصبة ، أما إن كانت الأرض مالحة غير خصبة فإنها تُخْرِجُ النبات مفردًا ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النبات على حال خُضْرَتِهِ ونضارته ؟ لا ، بل سرعان ما جفَّ وتكسَّر وصار هشيمًا تطيح به الريح وتذروه ، هذا مُثَلٌّ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتزِينُ ، كما قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا . (٧٦) ﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضده ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝٦٨﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفك عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعز وأذل ، وقبض وبسط ، وضر ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذي اغتر بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ۝٤٦﴾

تلك هي العناصر الأساسية في فتنة الناس في الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعز أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام في المخاطب على خلاف البنين ، فكل إنسان لديه المال وإن قل ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس من حرم منها .

كما أن البنين لا تأتي إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكي يتناسل وينجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يفتنى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب - مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ۝٤٦ ﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف : لأن المؤمن الراضى بما قُسمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد : لأن الإنسان قد يشقى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عقدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كدراً مهموماً : لأنه يريد الولد ليكون له عزوة وعزة ، وربما يرزق الولد ويرى الدُّلَّ على يديه ، وكَم من المشاكل تُثار فى البيوت : لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السلب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ بِمَآ يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوٰرَ ۖ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الشورى]

إذن : فالعقم فى ذاته نعمة وهبة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لمعوضه الله عن عقمه بأن يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أب لهم ، فيذوق من خلالهم لذة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هم أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ ﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عزوة وعزرة . ونسى أن عزة المؤمن بالله لا يغيره ، ونقول : والله لو استقبلت الجنة بالفرح والرضا على أنها هبة من الله لكأنت سبباً في أن يأتي لها زوج أبر بك من ولدك ، ثم قد تأتي هي لك بالولد الذي يكون أعز عندك من ولدك .

إذن : المال والبنون من زينة الحياة وزخرفها ، وليسا من الضروريات ، وقد حدد لنا النبي ﷺ الدنيا ، فقال : « من أصبح معافى في بدنه ، آمناً في سربه - أي : لا يهدد أمنه أحد - وعنده قوت يومه ، فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ^(١)

فما زاد عن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسان - إذن - يستطيع أن يعيش دون مال أو ولد ، يعيش بقيم تعطى له الخير ، ورضاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ (٤٦) ﴿ [الكهف]

لأن المال والبنين لن يدخلن معك القبر ، ولن يمنعاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات ، والنبي ﷺ حينما أهديت إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف ^(٢) ؛ لأنه لحم رقيق خفيف ؛ لذلك احتفظت

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجه في سننه (٤١٤١) والحميدي في مسنده (٤٣٩) من حديث عبيد الله بن حصين الأنصاري وكانت له مصيبة . قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي » (ص ٢٠١) وأورده السيوطي في « الجامع الصغير » (٨٥/٥) وعزاه لأبي نعيم عن ابن عباس ، وأشار إليه بالضعف . وأخرجه البخاري (٤٧١٢) بتصرفه عن ابن هريزة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

6854104

8927

لرسول الله بالكثف وتصدقت بالباقي : فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعت في الشاة » ؟ قالت : ذهبتُ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها » ^(١) .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأغنتك ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقت » ،^(١)

وهذا معنى : ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ۖ﴾ (٤٦) [الكهف]

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن : إذا لم يكن الحال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات في الحياة إذن ؟ الضروريات في الحياة هي كلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للأخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهي أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهي النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هي الدين ومنهج الله والقيم التي تُنظم حركة الحياة على وفق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ (٤٦) ﴿[الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يَكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليعرف بينها وبين الباقيات السيئات التي يخلدون بها في النار .

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ (٤٦) ﴿[الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتي على قوة المضاف إليه ، فخيرُك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها . قال الترمذي : . حديث صحيح .

(۲) أخرجه أحمد في مسنده (۲۶ / ۲۲۸ / ۱) ومسلم في صحيحه (۲۹۵۸) والترمذي في سننه (۲۲۲۲) وصححه :

﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٤٦) [الكهف]

والامل : ما يتطلع اليه الإنسان مما لم تكن به حالته ، فإن كان عنده خير تطلع إلى أعلى منه ، فالامل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كل هذا يبين لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأنا ذاهبون إلى يوم يأتي ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٤٧)

أى : اذكر جيداً يوم نُسَيِّرُ الجبال وتنتهى هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسَيِّرُ الجبال التي تراها ثابتة راسخة تتوارث الاجيال حجمها وجرمها ، وقوتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها .

ومعنى تسير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَسَيَّرَ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٢٠) [النبا]

وقال فى آية أخرى ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٣) [التكوير] وقال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ (١٠) [المرسلات] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ^(١) ﴾ (٩) [المعارج]

ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب،

(١) أى : ترى الأرض ظامرة ليس عليها ما يسرّها من مساكن أو أشجار أو غيرها .

[القاموس القريم ٦٣/١] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القريم ٤٠/٢] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويزيلها عن أماكنها . فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (٤٧) [الكهف]

الأرض : كُلُّ مَا أَقْلَكَ^(١) من هذه البسيطة التي نعيش عليها ، وكل ما يعلوك وَيُظْلِكُ فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) الْبَرَازُ : هو الفضاء ، أى : وترى الأرض فضاءً خاليةً مما كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار ، حتى البحر الذى يغطى جزءاً كبيراً من الأرض . كل هذه الأشكال ذهبت لا وجود لها ، فكان الأرض بَرَزَتْ بعد أن كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المباني ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحت فضاء واسعاً ، ليس فيه معلّم لشيء .

ومن ذلك ما تُسمّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لى بره) أى : فى مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتسى به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أى : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ (٤٧) [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب : لانهم فارقوا الدنيا على مراحل من لدن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نَقَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٤٧) [الكهف] أى : لم نترك منهم واحداً ، الكل معروض على الله . وكلمة ﴿ نَقَادِرْ ﴾ (٤٧) [الكهف] ومادة (غدر) تؤدى جميعها معنى الترك ، فالغدر مثلاً ترك الوفاء وخيانة الأمانة .

(١) أَقْلُ الشيء واستقله : حمله ورفع . فالأرض ثَقُلْنَا لانها تحملنا على ظهورها . [لسان العرب - مادة : قُل] .

حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّيَ غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواطىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِشَّمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ (٤٨) [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروض استقبالاً مُنظماً يدل على كُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أي : صفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢) [الفجر]

أي : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفي ، وإن يكون لأحد منها مفرٌ ، وهي صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صف الصف الذي يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفي الحديث عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : « يَحْشُرُ الله الخلق ثم ينادي : يا عبادي أحضروا حُجَّتكم ويسرّوا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُونَ مَسْئُولُونَ ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » (١) .

ولك أن تتصور المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٤١١٨/٥) وعزاه لأبي القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب الترجيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطي في الدر المنثور (١٠٠/٥) .

قوله تعالى : ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ [٤٩] ﴿الْكِتَابَ﴾ أى : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهى - إذن - صور متعددة ، فمن أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿هَازِمٌ أَقْرَأَ كِتَابَهُ﴾ [المائدة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشْرِفٌ ليس فيه ما يُخْجِلُ ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتى كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي﴾ [٢٥] وَلَمْ أَذِرْ مَا حَسَابِي﴾ [٢٦] بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ [٢٧] مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ [٢٨] هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾ .. [٢٩] ﴿ [المائدة]

إنه الخزى والانكسار والندم على صحيفة مُخْجَلَةٍ .

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْتَغْفِرِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [٤٥] ﴿الْكِتَابِ﴾ أى : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليفزع عباده ويحذّرهم ويضخّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول : ﴿وَيَقُولُونَ يَسُوِّقُنَا﴾ [٤٩] ﴿الْكِتَابِ﴾ أى : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوائك فاحضرى .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابنى آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت فى ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعَلِّمُهُ كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿يَسُوِّقُنِي أَعِزَّتْ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوَارِي سَوْءَةَ أَخِي﴾ [٥١] ﴿ [المائدة]

﴿ يَرْبِّئِي (٢١) ﴾ [المائدة] يا هلاكي كأن يتحسّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة : لكى لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تفهم ، والحقيقة : لیتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٢٩) ﴾ [الكهف] أى : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا (٢٩) ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسَجَّلٌ مُسَطَّرٌ فى كُتُبِهِمْ ﴿ وَلَا يَغْنَمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٢٩) ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْغِيثِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

تكررت قصة سجود الملائكة لآدم - عليه السلام - كثيراً فى القرآن الكريم ، وفى كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطّةً معينة ، والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أن تذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أن يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدّثكم بشيء فاذكروا عداوته لكم .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُربّي فينا المناعة التى تُقاومه بها ، والمناعة أن تأتى بالشىء الذى يضرّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضتّ ، فى الجسم فى صورة مكروب خامد ، وهذا هو القطعيم الذى يُعوّد الجسم على مدافعة المرض وتغلب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكّرنا ما كان

منه لا بينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِّي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَبِكَنَّ ^(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٦٢) ﴾ [الإسراء] .

فانتبهوا ما دُمنّا سنُسَيِّرُ الجبال ، ونُسَوِّي الأرض ، ونحصر لكل كتابه ، فاحذروا أنْ تَقْفُوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تَفْجَاجُوا بكتاب لا يقادر صغيرة ولا كبيرة ، وما أنا أذكركم من الآن في وقت السَّعة والتدارك، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والامر هنا جاء للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ۝ (٥٠) ﴾ [الكهف] لانهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذي أَمَرَكُم أَنْ تَكُونُوا فِي خِدْمَتِهِ .

لذلك سَمَّاهم : المَدِيرَاتِ أَمْرًا ، وقال تعالى عنهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ^(٢) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝ (١١) ﴾ [الرعد] فكان مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جَنَّدَ هؤلاء الملائكة وهم أشرف المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن ياب أولى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعله في خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

(١) احذركم قلنا : استولى عليه واستجانه إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه في حنكته فلا يفلت منه ، والمعنى : أي لا ملكن أمرهم واستولى عليهم فلا يعصون أمري . [قاموس القويم ١/١٧٥] .

(٢) أي : الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . [تفسير القرطبي ٥/٣٦٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أمر من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحسمته ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .. (٥٠)﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذى يوضح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار فى أن يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألا يفعل ﴿فَفَسِقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] أى : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِىَ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠)﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذى خلقكم ورزقكم ، فكان أولى بهذه الولاية .

و ﴿وَذُرِّيَّتَهُ .. (٥٠)﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل من كان على طريقته فى الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفٌ^(١) الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

﴿بَشَرٌ لِّلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف] أى : بشر البديل أن تتخذوا إبليس الذى أبى واستكبر أن يسجد لآبيكم ولياً ، وتتركوا ولاية الله الذى أمر الملائكة أن تسجد لآبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ
أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حسنه بتزيين الكذب . [لسان العرب - مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتهم الميزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خلق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خلق السموات والأرض كان قبل خلقهم ، وكذلك ما شهدوا خلق أنفسهم : لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ (٥١) [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخلق وما عاونونى فيه .

والعَصْدُ : هو القوة التى تُسَعِّفُك وتُسَدِّدُك ، وهو مأخوذ من عَصَدَ الإنسان ، حيث يزاوِل أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاوِل أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضًا وَبَسْطًا واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظَّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آياتٌ عَظْمَى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعَةِ .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرك يدك كما شئتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفَكِّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزاءك مُسخَّرة لإرادتك ، فإن أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أن تظن أنك خلق ميكانيكى ، بل أنت صنعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخ أن يقطع صلته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دفعه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ سَنُثَبِّتُكَ بِأَخِيكَ .. ﴾ [النصص] أى : نُقَوِّيك وَنُعْطِيكَ السُّنْدَ وَالْعَوْنَ .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾

يعنى : واذكر يا محمد ، ولتذكر معك أمتك هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. ﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دُونى . وزعمتم : أى : كذبتم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴾ [الكهف] وهذا من سماجتهم وتبجحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أن يخلعوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذبوه ، لكنهم تمادوا ﴿ فَدَعَوْهُمْ .. ﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم من قالوا : عيسى . ومنهم من قالوا : العزيز ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم من اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم من عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهُمْ ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنا ، وأخرجونا بما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طُوعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. ﴾ [الزمر] ولكن ، أنى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعت بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴾ (٥٢) [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقاً ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (٥٢) [الكهف]

والمَوْبِقُ : المكان الذي يحصل فيه الهلاك ، وهو واد من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعي والمدعو مكاناً مهلكاً ، فلا الداعي يستطيع أن يلوذ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أن ينتصر للداعي ويُسعفه ، لأن بينهم منبع هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٢٣) أو يوقنن بما كسبوا ويعف عن كثير (٢٤) [الشورى] يعنى : يهلكون .

ومن العجيب أن تكون هذه أول إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ ﴾ (٥٢) [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الاوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا
وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٥٣)

راى : الرؤية : وقوع البصر على المرئى ، والرؤية هنا ممن سيعذب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التى سيعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٣٠) [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله ، إذن : فالرؤية هنا متبادلة : المعذب والمعذب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا .. ﴾ (٥٣) ﴿ [الكهف] الظن هنا يراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ .. ﴾ (٤٦) ﴿ [البقرة] أى : يوقنون .

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٥٣) ﴿ [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مربقا ، وايضا لا يجدون مفرقا يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكانا ينصرفون إليه بعيدا عن النار ، فالموئبق موجود ، والمصرف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشُقُوءًا جَدَلًا ﴿٥٤﴾

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرف الله الرياح مثلا ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صرّف الله الامثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الامثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائبا عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسَّنٌ ليتفهموه تفهما دقيقا .

وما دام أن الحق سبحانه صرّف فى هذا القرآن من كل مثل ، فلا عذر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فهمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيَتَه ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص في أي علم من العلوم يجد في كتاب الله أدق التفاصيل : لأن الحق سبحانه بين فيه كل شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾ [الكهف] أي : كثير الخصومة والتنازع في الرأي . والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صدق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبوير مذهبك ولو خطأ ، وهذا هو الجدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البناء الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيز للنهوى أو الأغراض .

ولما تحدث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝٤٦ ﴾ [المنكوت] وقال : ﴿ وَجَادَلْتَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

والنبي ﷺ لما مرَّ على علي وفاطمة - رضي الله عنهما - ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبسوا أنهما كانا مستغرقين في نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ : « ألا تصلون ؟ » ^(١) فردَّ الإمام علي قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبي ﷺ وقال : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أن يُدلك على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويترافع .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٧/١) ، ومسلم في صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخاري في صحيحه (٧٢٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولو دقت في رايه لوجدت له هوى يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اخترت أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقاً آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السبل ، والحقيقة أن له غرضاً في نفسه وهوى يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ
وَيَسْتَغْفِرُوا أَرْبَعَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا لَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٨٩﴾

ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرفنا فيه من الآيات والأمثال ، وبعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال ؟

وفي آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ۝٩٠ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ۝٩١ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ۝٩٢ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه .. ۝٩٣﴾ [الإسراء]

فكل هذه التعمتات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله ، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم ، ثم

لم يؤمنوا بها يُهلكهم : لذلك قال بعدها : ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.. (٥٥)﴾ [الكهف] فهذه هي الآية التي تنتظروهم : أن تأتيهم سُنَّةُ الله في إهلاك مَنْ كَذَّبَ الرسل .

فقبل الإسلام ، كانت السماء هي التي تتدخل لنُصْرَةِ العقيدة ، فكانت تدكُّ عليهم قُرَاهِمَ ومساكنهم ، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد في سبيل نَشْرِ دعوته ، إلا أمة محمد فقد أُمِنَها على أن تحمل السيف لثُؤْدُبِ الخارجين عن طاعة الله .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ.. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : على ما فات من المهارات والتعنتات والاستكبار على قبول الحق ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : بهلاك المكذبين ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا (٥٥)﴾ [الكهف] أى مُقَابِلًا لهم ، وعيانًا أمامهم ، أو (قَبْلًا) جمع قبيل . وهي ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ.. (٤٧)﴾ [الطور] أى : لهم عذاب غير النار ، فالوان العذاب لهم متعددة .

ثم يسألُ الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يابه لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أسفًا على إعراضهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا أَتْنِي وَمَا أُنْذِرُوا هَزْوَآءً﴾

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحيل لدحض

ولذلك قال الحق سبحانه :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ إِنَّا جَاعِلُنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ حَكِئَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٧٧﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأن يدعى صاحبك أنك لم تصله ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضت المسألة على سبيل الاستفهام فقلت له : ألم اصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خصم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ﴾ (٥٧) ﴿[الكهف] ؟ وترك لنا الجواب لنقول الحق : لا أحد أظلم ممن فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها . أو حُتَّتْ . يقول الكافرون ذلك سخيفة وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢ / ٣٥٠] .

وقوله ﴿فَاعْرِضْ عَنْهَا .. (٥٧)﴾ [الكهف] تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] نسي السيئات ، وكان من الواجب أن يتنبه إلى هذه الآيات تحيّر من يها ، العل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيبدّل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] كنة : غطية جمع كنّ ، فجعل الله على قلوبهم غطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل الاستجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبوا ، فلما أحبوا الكفر وانشروا به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رب يعطي عبده ما يريد .

كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ حُرُوفٌ غَرَضَهُمُ اللَّهُ مَرَحاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠)﴾ [البقرة]

وقال تعالى في هذا المعنى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧)﴾ [البقرة]

ومعنى : ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] أي : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أن ذكروا بها فاعرضوا عنها ، فحصرهم الله ففهمها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٥٧)﴾ [الكهف] أي : صمم فلا يسمعون ﴿وَأَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدَا (٥٧)﴾ [الكهف] وهذا أمر طبيعي ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسدّ عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبك بالرضا ، فيتفعل لها جوارحك بالالتزام ،

خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسَّنٌ ،
كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه] .
فأين هذه القرى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي ﷺ ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويرأها النبي ﷺ
ويرأها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم
صالح ، وقُرَى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ
عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴿ [المصافات]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسَّنٌ نكّل بها تبقّى منه على
ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلّ بها من بأسه الذي لا يردُّ
عن القوم الظالمين .

وكلمة (القرى) جمع قرية ، وتُطلق على المكان الذي تتوفر فيه
مُقومات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات
ومُقومات الحياة العادية : لأن القرية لا تُطلق إلا على مكان تتسع فيه
مُقومات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطأ عليها من الضيوف فيجد بها
قرى^(١) . فإن كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها
أم ، نسميها (أم القرى)^(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

(١) القرى : طعام الاضياف . والقرى : كل ما يؤتى به من قرى الضيف من قمحة أو جفنة
[لسان العرب - مادة : قرى] .

(٢) وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى قاصداً مكة المكرمة ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴾ [الضحى] .

﴿ لَا أَمْرَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. ﴾ (٦٠) [الكهف]

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبي ﷺ ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم في محمد : أهو مُحَقِّقٌ أم لا ؟ فقال اليهود لوقد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبي : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر ، والرجل الطواف الذي طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « في الغد أجيبكم »^(١) .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسب له لا عليه ،
فلو كان محمد ﷺ يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابه ، لكنه سكت
إلى أن يأتي الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه الذي
أدبه فأحسن تأديبه .

ومرّت خمسة عشر يوماً دون أن يُوحى لرسول الله في ذلك شيء ، حتى شقّ الأمر عليه ، وقرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة لينتدوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شيء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم في

(۱) آورده ابن کثیر فی تفسیره (۷۱/۳) وعزاء لمحمد بن إسحاق من قول ابن عباس رضی اللہ عنہما عن وفد قریش إلى أخبار یهود بالمدينة لیسالوهم عن محمد ﷺ وصفته .

هذه المسألة إلا بوحى من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رايه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطء فى هذه المسألة دليلٌ صدق النبي ﷺ ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتُردُّ على مهاجمات القوم ، وتُبيِّن لهم أن النبي لا يعلم كل شيء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شيء ؟ وهل يقدر فى مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود وَمَنْ لَفُ لَفْهُمْ مِنْ كِفَارِ مَكَّةَ : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وما هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لَقَنْتُمْ كِفَارِ مَكَّةَ هذه الاسئلة وأظهرتم الشماعة بمحمد حينما أبطا عليه الوحي ، اعلموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أن تفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام - يُقال : إنه سأل الله - وكان له دلال على ربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ ۞ (١٤٢) ﴾ [الأعراف] والذي أطمعه فى هذا المطلب أن الله كلمه ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ ۚ ۞ (١٧) ﴾ [طه] فأطال موسى الكلام مع ربه ، وَمَنْ الذى يكلمه الله ولا يطيل أمد الأنس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه]

(١) هش الشجر : شربه بعضاً لينسقط ورقه لتأكله الماشية . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه] . أى : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢٠٢/٢] .

وهكذا أطل موسى مدة الألف باله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأل : يا رب ، أوجد في الأرض أعلم مني ؟ فأجابه ربّه تبارك وتعالى : نعم في الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدي هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مجمع البحرين .

وقد ورد في حديث رسول الله ﷺ أن موسى - عليه السلام - خطب مرة فسئل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا - يعنى من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل في الأرض مَنْ هو أعلم منك من البشر^(١) حتى لا يغترّ موسى - عليه السلام - بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ۖ ﴾ [الكهف]

لا أبرح : أى لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعنى : لا أترك مكانى الذى أنا فيه ، لكنها تعنى : لا أترك ما أنا بصدد ، فإن كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإن كنتُ ماشياً لا أترك المشى ، وقد قال موسى - عليه السلام - هذا القول وهو يستغى بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردت مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ۖ ﴾ [يوسف] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استنحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يأتوا به ويعيدوه إليه .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٤٧٢٥-٤٧٢٧) في تفسير آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا ﴾ [الكهف] . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٥) من حديث أبى بن كعب .

و « مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ » أى : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقى مثلاً دجلة والفرات فى شَطِّ العرب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضَى حَقُّهَا ﴾ (٦٠)

[الكهف]

الْحَقُّبُ : جمع حَقْبَةٍ ، وهى الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قَدَّرُوهَا بحوالى سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى - عليه السلام - مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الْحَقْبَةَ سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سُرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشْوقاً إِلَى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبى الرسول الذى أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْمَ هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١)

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا

فَاتَّخَذَا سَبِيلَهُمَا فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ (٦١)

(بَلَغَا) أى : موسى وفتاه (مَجْمَعٌ بَيْنَهُمَا) أى : مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أى : حدث النسيان منهما معاً ، وإن كَانَ خَمَلُ الْحَوْتِ مَنْوِطاً بِفَتَى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أَنْ يُذَكِّرَهُ به ، فرئيس القوم لَابُدُّ أَنْ يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرُّكْب ، وكانت العادة أَنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقدده وينظر لعل واحداً نَسِيَ شيئاً ، إذن : كان على موسى أَنْ يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذَكِّرُ فتاه بما معهم من لوازم الرحلة .

(١) الحوت : السمكة كبرت أو صغرت والجمع حيتان . [القاموس القريم ١/ ١٧٦] .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفي بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حوتاً ، وقد أعدوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير ، وكان الغنى يحمله وهو مشوى في مكمل^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكمل ، وتسرب نحو البحر ، والسرب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القرية مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القرية أعلى فيتسرب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشوى ، وتعود له الحياة ، ويتوجه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ الْقَدْلَيْنِ
مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَتَبَوَّأُ ۖ ﴾

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى - عليه السلام - لفتياء : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنصب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكر الغنى ما كان من نسيان الحوت .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ
وَمَا أَنَسِيتهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ ﴾

(١) المكمل : الزنبيل الذى يصل فيه القدر أو العنب إلى الجرين . وقيل : المكمل شبه الزنبيل بسبع خمسة عشر صاعاً . [لسان العرب - مادة : كمل] .

هذا كلام فتى موسى : أرايت : إخبِرني إذ لجأنا إلى الصخرة عند
مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ لِنَسْتَرِيحَ ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. ﴾ [الكهف] ونلاحظ
أنه قال هنا (نَسِيتُ) وقال في الآية السابقة ﴿ نَسِياً .. ﴾ [الكهف]
ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه
ليتصرف في كل شيء : لأن تابعه قد لا يهमे أمر المسير في شيء ،
وقد ينشغل ذهنه بأشياء أخرى . تُنْسِيهِ ما هو مُتَوَطِّع به من أمر
الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَّرَ منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿ وَمَا
أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. ﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذي لعب
بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ [الكهف] أي :
اتخذ الحوت طريقه في البحر عَجَباً ، في الآية السابقة قال ﴿ سَرَباً ﴾
﴿ [الكهف] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول (عَجَباً) لأنه يحكى
ما حدث ويتعجب منه ، وكيف . أن الحوت المشوّى تدبّ فيه الحياة
حتى يقفز من المكمل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من
العجائب : لأنها خرجت عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَنِ آثارِهِمَا قَصَصْنَا ۝٦٤﴾

أي : قال موسى - عليه السلام ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ .. ﴾ [٦٤]
[الكهف] أي : نطلب : فهذا المكان الذي فُقد فيه الصوت هو المكان
المراد ، فكان الحوت كأن أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

عنوان المكان ، وهو مَجْمَع البحرين ، حيث يلتقى البحران فيصيران
بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلا في مسرح بنى إسرائيل في سيناء .
وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، يلتقيان في بحر واحد عند
رأس محمد^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَارْتَدُّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ﴾ [الكهف] أى :
عابداً على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُ الأثر ، ومعنى ﴿ قَصَصًا ۖ ﴾
﴿ ٦٤ ﴾ [الكهف] أى : بدقة إلى أن وصلنا إلى المكان الذى تسرّب فيه
الحوت ، وهو الموعد الذى ضرب به الله تعالى لموسى - عليه السلام -
حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَوِّدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ؕ إِنَّهُ رَخِيمٌ مِّنْ
عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۖ ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإن كانت لله تعالى فهي العز
والشرف ، وإن كانت لغير الله فهي الذل والهوان ، وقلنا : إن
النبي ﷺ لم يأخذ حظوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال
سبحانه : ﴿ مَبْحَانُ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ ۝ ١ ﴾ [الإسراء]

كما أن العبودية لله يأخذ فيها العبد خير سيده ، أما العبودية
للنفس فيأخذ السيد خير عبده .

(١) قال قتادة عن مجمع البحرين : هو بحر فارس والروم . وقيل : فما بحر الأردن وبحر
القلزم (أى : خليج السويس) . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب .
[تفسير القرطبي ٤/٥١٦٢]

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. ﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء في معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردت في القرآن بمعنى النبوة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف] فكان ردُّ الله عليهم : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتي على يد جبريل - عليه السلام - وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ .. ﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿ مِّنْ عِندِنَا .. ﴾ [الكهف] فالإتيان والعندية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرج على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أن نُفَرِّق بين علم وفيوضات تاتى عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تاتى من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتى بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علل باطنة فوق العلل الظاهرية ، وهذه هى التى اختصَّ الله بها هذا العبد الصالح (الخضر) كما سماه النبي ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبي يأتى بأحكام تُحَرِّم القتل وتحرم إتلاف مال الغير ، فاتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى - عليه السلام - على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علم له بعلتها ، ولو أن موسى - عليه السلام - علم العلة فى خرق السفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلم موسى غير علم الخضر : لذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴾ (٦٨) [الكهف]

فهذا علم ليس عندك ، فعلمي من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما في الحقيقة لا يتعارضان ، وإن كان لعلم الولاية علل باطنة ، ولعلم الرسالة علل ظاهرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ لِمَوْسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٩)

كان موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقى العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فسمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقل له مثلاً : إن الله أمرني أن أتبعك ، بل تطفَّ معه واستسمح به هذا الأسلوب ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ .. ﴾ (٦٩) [الكهف]

والرشد : هو حُسْنُ التصرف في الأشياء ، وسداد المسلك في علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشد يكون في سنِّ البلوغ ، لكن لا يعنى هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ .. ﴾ (٦٩) [النساء] أى : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يَتَمِّه وهو ما يزال في كفالتك ، فعليك أن تكلفه بعمل ما لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرف فيه تحت عينك وفي رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أن تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله في معزل عنها إلى أن يبلغ الرشد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإن فشل كانت التجربة في ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتم وهو ما يزال في ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ۚ ﴾ (٦) [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقل بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ أَنْتَم مِّنْهُمْ رُّشَدًا ۚ ﴾ (٦) [النساء] فعلى الوصى أن يراعى هذا الترتيب : أن تُراعى اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به في مُعْتَرَك الحياة وتجاربها حتى يتمكن من مواجهة الحياة ولا يتخبط في ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإن علمت رُشده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرف فيه ، فإن لم تأنس منه الرشد وحسن التصرف فلا تترك له المال يُبدده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ۚ ﴾ (٥) [النساء] ولم يقل : أموالهم ؛ لأن السفه لا مال له حال سَفْهه ، بل هو مالكم لِتُحْسِنُوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشده .

إذن : فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء ، لكن هل يعنى ذلك أن موسى - عليه السلام - لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول ، راشداً في تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح في

مكانة النبوة : لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥)

[الإسراء]

وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤)

[طه]

لذلك يقول الشاعر :

كَلَّمَا أَزْدَدْتُ عُلُومًا زِدْتُ إِيقَانًا بِجَهْلِي

لأن معنى أنه ازداد علماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلم غداً .

والإنسان حينما يكون واسع الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علم قضية اشتاق لغيرها ، فهو في نهم دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال »^(١) .

والشاعر الذي تنبّه لنفسه حينما دعته إلى الغرور والكبرياء والزهو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قَالَتِ النَّفْسُ قَدْ عَلِمْتُ كَثِيرًا قُلْتُ هَذَا الْكَثِيرُ نَزْعٌ يَسِيرُ

ثم جاء بمثل توضيحي :

تَعْلَا الْكُورَ غَرْفَةً مِنْ مُحِيطٍ قَيْرِي أَنَّهُ الْمَحِيطُ الْكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٦٧)

هنا يبدأ العبد الصالح يُعَلَى شروط هذه الصَّحْبَةِ وَيُوضَحُ لموسى عليه السلام - طبيعة علمه ومذهبه ، فمذهبك غير مذهبي ، وعلمي من كيس غير كيسك ، وسوف ترى منى تصرفات لن تصبر عليها :

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٢/١٠) (حديث ١٠٢٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٢٥/١) : « فيه أبو بكر الداهري وهو ضعيف » .

لأنه لا علم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عذراً على عدم صبره معه ؛ لذلك يقول :

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِمِثْرِهِ﴾ (١٨)

فلا تحزن لأنى قلت : لن تستطيع معى صبراً ؛ لأن التصرفات التى ستعرض عليها ليس لك خبر بها ، وكيف تصبر على شيء لا علم لك به ؟

ونلاحظ فى هذا الحوار بين موسى والخضر^(١) - عليهما السلام - أدب الحوار واختلاف الرأى بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلا منهما يقبل رأى الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو ينكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويكفر بعضهم بعضاً ، فإذا رأوا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشيء من الفسوضات ، فكانت له طريقة وأتباع ترون من ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد نجلى فى قول الخضر : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (١٨) [الكهف] مظهر من مظاهر أدب المعلم مع المتعلم ، حيث أحترم رأيه ، والتمس له العذر إن اعترض عليه ، فكلُّ منهما مذهب الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (١٩)

(١) قال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى الخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبى فى تفسيره (١١٦٩/٥) .

أى : أنا قابل لشروطك أيها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلَكَ ولن أعارضك فى شيء . وقَدِمَ المشيئة فقال : ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٦٩) [الكهف] ليستميله إليه ويُحْنِنَ قلبه عليه ﴿ صَابِرًا .. ﴾ (٦٩) [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿ وَلَا أَغْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٩) [الكهف] وهكذا جعل نفسه مأمورًا ، فالمعلم أمر ، والمتعلم مأمور .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾

حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿ ٧٠ ﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إِنْ تَبِعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي حَتَّى أَخْبِرَكَ ، وكأنه يُعَلِّمُه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا

لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿ ٧١ ﴾

(فَانْطَلَقَا) سارا معا ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أَنْ بَادَرَ إِلَى خَرَقِهَا وَإِتْلَافِهَا ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكَبُرَتْ هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١) [الكهف]

أى : أمرًا عجيبًا أو فظيحا . ونسى موسى ما أخذَه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُعلمنا أن الكلام النظري شيء ، والعمل الواقعي شيء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذي يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقال في أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رهن أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقايض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلاحظ هنا أن موسى - عليه السلام - لم يكتف بالاستفهام : ﴿ أَخْرِقْنَهَا لِنُفْرِقَ أَهْلَهَا ۖ ﴾ (٧١) ﴿ [الكهف] بل تعدى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظليماً ؛ لأن كلام موسى النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعى إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴾ (٧٢)

وهذا درس آخر من الخضر لموسى - عليهما السلام - يقول : إن كلامي لك كان صادقا ، وقد حذرتك أنك لن تصبر على ما ترى من تصرفاتى ، وما أنت تعترض على ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاّ تسألنى عن شيء حتى أخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

تُزِيقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرًا ۖ ﴾ (٧٣)

يغتذر موسى - عليه السلام - عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿وَلَا تُؤْفِقُنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٢) ﴿[الكهف] أى : لا تُحْمِلْنِي مِنْ أَمْرِ اتِّبَاعِكَ عُسْرًا وَمَشَقَّةً . فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً

بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٣)

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أنفقه ، وهنا صعد الأمر إلى قتل نفس زكية دون حق ، فبأى جريرة يُقتل هذا الغلام الذى لم يبلغ رشده ؟ لذلك قال فى الأولى : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١) ﴿[الكهف] أى عجيباً أما هنا فقال : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) ﴿[الكهف] أى : مُنْكَرًا : لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التى لم تلوّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتى الرد من الخضر مخالفاً للرد الأول ، ففى المرة الأولى قال : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) ﴿[الكهف] أى : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٣)

وأكدما وأراد به بالكلام أى : قلت لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التى يقاطع فيها موسى فتعلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَدِّقْنِي

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٤)

وهكذا قطع موسى - عليه السلام - الطريق على نفسه ، وأعطى

لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق ؛ لذلك في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « رحمنا الله ، ورحم أخى موسى لو صبر لعرفنا الكثير »^(١) .

فهذه هي الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .
ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦) [الكهف] أى : قد فعلت معى كل ما يمكن فعله ، وليس لى عذر بعد ذلك .
ثم يقول سبحانه :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ أَنَسَطَطَعَمًا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَن يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ ﴾ (٧٧)

استطعم : أى طلب الطعام ، وطلب الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يذخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنع الطعام عن سائله دليل بخل ولؤم متواصل في الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التى مرّا بها وطلبوا الطعام فمنعوهما .

والمثال في الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصور مدى بخل هؤلاء القوم ولؤمهم وسوء طباعهم ، فلم يقل مثلاً : فابوا أن يطعموهما ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٠) كتاب الفضائل من حديث أبي بن كعب بلفظ : « رحممة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب ، ولكنه أخذته ذمامة من صاحبه ، وفي لفظ آخر له أيضاً ولاحمد (١٢١/٥) : « يرحم الله موسى ، لو دلت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخباره » .

الم يَقُلُ الحق سبحانه : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..

﴿٢٩﴾ [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكى فقد تعدت مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..﴾ [الدخان] دليل على أنها تبكى على فقد الصالحين .

وقد سئل الإمام علي - رضي الله عنه - عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه مضعان : موضع في السماء وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مصلاه ، أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله »^(١) .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكون من حوله ، فالكون ساجد لله مُسَبِّح لله طائع لله يحب الطائعين ويتبوء بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أى : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسَبِّح وهو غافل . وعلى هذا الفهم فقولته تعالى : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ..﴾ [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث »^(٢) .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي رضي الله عنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..﴾ [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٥ ، ٩٥) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٧٧) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .

وروى في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى في يده ﷺ . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغي أن نقول : سَبَّحَ الحصى في يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسَبَّحُ أيضاً في يد أبى جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الاشياء ، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للإسماعك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلازل وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلازل مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فعل الخضر مع الجدار الذي قارب أن ينقض ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ الْبَشَرِ ۚ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [الكهف] ، أى : أصلحه ورممه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ﴾ [الكهف]

هذا قول موسى - عليه السلام - لما رأى لُؤْمَ القوم وخسرتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعَمُونَا ، بل لم يقدموا لنا مجرد العاوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجره ؟

وجاء هذا القول من موسى - عليه السلام - لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

(قَالَ) أى : العبد الصالح (هَذَا) أى : ما حدث منك من قولك : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ﴾ [الكهف] وقد سبق أن

اشترط موسى - عليه السلام - على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفراق بينهما ، وكان العبد الصالح لم يأت بشيء من عنده ، لقد قال موسى : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ [الكهف] وهامو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴾ [٧٨] [الكهف]

قوله : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴾ [٧٨] [الكهف] تُعد دُستورا من الحق - سبحانه وتعالى - ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغي أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه في حدود ما علمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْفَى بِمَا تَمَسَّطِعُ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [٧٨] [الكهف] أي : لن أتركك وفي نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون في نفسك مني شيء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضت عليها لتعلم أن الله لم يخدعك ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعَلِّمُكَ شيئاً لم تكن تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تلو الآخر ، كما لو عتب عليك صاحبك في أمر ما ، وأنت حريص على مودته فتقول له : أمهلني حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبَةِ ، فلا يجوز بعد المصاحبة أن نفتترق على الخلاف ، ينبغي أن نفترق على وفاق ورضا : لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّي الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أن نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٨)

قوله : (لِمَسَاكِينٍ) اللام هنا للملكية ، يعنى مملوكة لهم ، وقد
حسنت هذه الآية الخلاف بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ،
وايهما أشد حاجة من الآخر ، وعليها قال المسكين : هو مَنْ يملك شيئاً
لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل فى البحر ،
وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى ﴿ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ .. (٧٨) ﴿ [الكهف] أى : مجال عملهم
البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافة .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ .. (٧٨) ﴿ [الكهف] المتكلم هنا هو الخضر
- عليه السلام - فنسب إرادة عيب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها
إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عما لا يليق ، أما فى الخير فنسب الأمر
إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ..
(٨٢) ﴿ [الكهف] لذلك قرأه فى نهاية القصة يرجع كل ما فعله إلى الله
فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴿ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٨) ﴿
[الكهف] كلمة : كل ترسم سوراً كلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخذ كل
سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ
السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجة له فى المعيبة الغير
صالحة ، وكان فى سياق الآية صفة مُقَدَّرَةٌ : أى يأخذ كل سفينة
صالحة غصباً من صاحبها .

والغصب : ما أخذ بغير الحق ، غنوة وقهراً ومصادرة ، وله صور

متعددة منها مثلاً السرقة : وهي أخذ المال من حرزهِ خفية ككسر دولاب أو خزانة ، ومنها الغصب : وهو أخذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفي هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلة ما ، يخطف الشيء ويفرّ به دون أن تتمكن من اللحاق به ، فالخطف - إذن - يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تسترّه .

وما دام الأمر هنا غصباً فلا بدّ لمالك الشيء أن يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حقّه ، وقد يتوسل إليه أن يترك له ماله ، فالمسالة - إذن - فيها كلام وأخذ وردّ .

إذن : خرّق السفينة في ظاهره اعتداء على ملك مقيم ، وهذا منهى عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو عليم موسى - عليه السلام - هذه الحكمة ليأدرّ هو إلى خرّقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلياً أن نحول السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخرّقها ، أو بخلع لوج منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أخذها .

وكلمة (وَرَاءَهُمْ) هنا بمعنى أمامهم ؛ لأن هذا الظالم كان يترصد للسفن التي تمرّ عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو في الحقيقة أمامهم ، على حدّ قوله تعالى : ﴿ مِنْ رِوَاكِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (١٦) [إبراهيم] ، وهل جهنم وراء أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بعد ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٧١) [هود]

إِنَّ : فطهارته هي التي دعوتنا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ .. ﴾ (٨٩) [الكهف] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ (٩٠) [التغابن]

والفتنة بالأولاد تأتي من حرص الآباء عليهم ، والسعي إلى جعلهم في أحسن حال ، وربما كانت الإمكانيات غير كافية ، فيضطرب الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علم الحق - سبحانه وتعالى - أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يرد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكان قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أسدي إلى كليهما ، وحكمة بالغة تستقر وراء الحدث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغيباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أن يشتد الحزن عليه ، وننمي طفولته التي ضاعت وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أعد له من النعيم ، لا ندري أن من أخذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحَدِّد له مسكن في الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجري فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٦/٤) : « بمعنى أنه يلقي به عن العمل الصالح ، وذكر ابن أبي حاتم في هذا اثرًا عن ابن عباس رضي الله عنهما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فارادوا أن ياتوا رسول الله ﷺ ، فابى أزواجهم وأولادهم أن يتصروهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ راوا الناس قد فقهوا في الدين فبهتوا أن يعاقبهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن] .

والسيئات ، وسيجرهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة في أخذه بدل أن يتمتعا به في الدنيا الفانية ، ويشقيا به في الآخرة الباقية .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٩﴾

(لَغُلَامَيْنِ) أى : لم يبلغا سنَّ الرشد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كنزٌ لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أن تتصور ما يحدث لو تهدم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأوى ، إن أقل ما يوصفون به أنهم لثام لا يؤتمنون على شيء . ولقد تعودنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على مواثد اللثام .

إنن : فلا شك أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يعد بمثابة صنعة لهؤلاء اللثام تناسب ما قابلوهم به من تنكر وسوء استقبال ، وترد لهم الصاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

(١) قال هذا الحق سبحانه : ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ۝٨٩ ﴾ [الكهف] . وفي آية أخرى قال : ﴿ حَقًّا إِذَا أَنَا أَهْلُ قَرْيَةٍ ۝٧٧ ﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير في تفسيره (٩٨/٣) : « في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال مكرمة وفائدة وغير واحد : كان تحت مال مدفون لهما ، قال ابن كثير (٩٨/٣) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال السوفي من ابن عباس : كان تحت كنز علم » .

فعلّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أن يحفظ لحين أن يكبر هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته في قرية من اللثام . وكان الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين في هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أن يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار وردّه إلى ما كان عليه ردّ من علمه الله من لدنّه ، فيقال : إنه بناءً بناءً موقوتاً يقتاسب وعمر الغلامين ، وكأنه بناء على عمر افتراضى ينتهى ببلوغ الغلامين سنّ الرشد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا من أوتى علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سنّ واحدة توأمين لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف] أى : سوياً ، ومعنى الأشدّ : أى القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوى ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - قال هنا : ﴿ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف] ولم يقل رُشدَهُمَا ، لأنّ هناك فرقاً بين الرُشد والأشدّ فالرُشد : حُسْنُ التصرف في الأمور ، أما الأشدّ : فهو القوة ، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمى كنزهما من هؤلاء اللثام فتناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ .. ﴾ [الكهف] أى : يستخرجاه بما لديهما من القوة والقُتوة ، والرحمة : صفة تُعطى للمرحوم لئلا تمنعه من الداء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴿ [الإسراء] فقوله : شفاء :
أى : يشفى داءً موجوداً ويُبْرِئُهُ . ورحمة : أى رحمة تمنع عودة الداء
مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما
وحفظ حقهما ، ثم لم يَفُتَّ العبد الصالح أن يُرْجِعَ الفضل لاهله ،
ويتقى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول :
﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أى : أن ما حدث كان بإمر
الله ، وما علّمتك إياه كبان من عند الله ، فليس لى مِئْزَةٌ عليك ، وهذا
درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضل لاهله .

ثم يقول : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ ^(١) عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) ﴿ [الكهف]
تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

* * *

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التى
سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن
الرجل الطواف الذى طاف البلاد :

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوهُ
عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٨٢)

ذو القرنين : هذا لقبه : لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

(١) فى هذه الآية قال : ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ .. (٨٢) ﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ ..
(٧٨) ﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٠ / ٣) : « لما أن فُسِّرَ رُبِّيَّتُهُ ووضَّحَ
وأزال المشكل قال (تسطيع) وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال (ما لم تستطيع)
فقابل الاثقل بالاثقل والاعف بالاعف ، كما قال ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ .. (٧٧) ﴾ [الكهف] .
وهو الصعود إلى أعلاه . وقال : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَهْبًا ﴾ (٨٢) [الكهف] . وهو أشق من ذلك ،
فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله اعلم . .

يلبس تاجاً له اتجاهان : أو لأنه بلغ قرنى الشمس فى المشرق وفى المغرب .

وقد بحث العلماء فى : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدونى الطواف فى البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان فى مقدونيا فى الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد - وزير المعارف الهندى - إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته فى الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حصرها فى شخص بعينه : لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصغفها بصيغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فترى مَنْ يقول بأنها مسالة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم فى ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العمل خاص بهذا الشخص ، والحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يضرب لنا مثلاً يعم أى شخص ، ماذا سيكون مسلكه وتصرفه إن مكّن الله له ، ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حدد القرآن هذه الشخصية فى الإسكندر أو قورش أو غيرهما لقلنا : إنه حدث فردى لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأسوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان فى تعيينه فائدة لعينه الله لنا .

وسبق أن أوضحنا أن الحق - سبحانه - عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿ أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ .. ﴾ (١٠) [التحريم] ولم يُعَيِّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسل من الله لهداية الناس لم يتمكن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ أَمْرَاتُ فِرْعَوْنَ .. ﴾ (١١) [التحريم]

ففرعون الذي أضلَّ الناس وأدعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكان الحق سبحانه يُلَمِّع للناس جميعاً أن رأيك في الدين وفي العقائد رأي ذاتي ، لا يتأثر بأحد أياً كان ، لا في الهداية بنبي ، ولا في الغواية بأضلِّ الضالين الذي ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقاتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشَخَّصة لتكون نموذجاً وأُسوة يحتذى بها كل أحد ، والألو شخصت لارتبطت بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فتراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً في بنات آدم ، لذلك عيَّنَها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضروري في مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعني أنها صالحة لأنْ تُتكرر في أي زمان وفي أي مكان ، كما رأينا في قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه لبهمهم أسماء ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسوة وقُدوة للفتيان المؤمنين في أي زمان ، وفي أي مكان ، وبأي عدد .

قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْنَيْنِ .. ﴾ (٨٣) [الكهف]

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بد أن يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له ملاحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله - وقد نهاهم أن يسألوه حتى يهدأوا - إلحاح منهم في معرفة تصرفاتهم وإن كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أن يعرفوا رأي الإسلام فيها ، فكانهم نسوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تشرع كل أمورهم على وفق الإسلام .

ويتأمل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدة يأتي الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۝ (١٨٦) ﴾ [البقرة] وواحدة وردت مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ (١٠٥) ﴾ [طه] وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سئل رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد آتت في الجواب على سؤال لم يسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ۖ ۝ (١٠٥) ﴾ [طه] سؤال لم يحدث بعد ، فالمعنى : إذا سألك فقل ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فلماذا قلت : فما الحكمة في أن يأتي الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۝ (١٨٦) ﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضي الفاء في جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أن يجيبهم عليه بانتفاء الوسطة من أحد : لذلك تأتي الإجابة

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ۝٤٤ ﴾ [الزخرف]

أى : صيت حسن وشرف ورفعة كون القرآن يذكر هذا الاسم :
لان الاسم إذا ذكر فى القرآن ذاع صيته ودوى فى الآفاق .

وقلنا فى قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أن خطف من
قومه وبيع فى مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول
الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده فى
مكة أتى أبوه وعمه ، وكلموا رسول الله فى شأن زيد فقال : خيروه .

فلما خيروا زيدا قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك
أكرمه النبى ﷺ وسماه زيد بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن
يبطل التبني ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [الاحزاب] وقال : ﴿ ادْعُوهُمْ
لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝٥ ﴾ [الاحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حزن
زيد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ،
ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه علماً
يتردد فى قرآن يتلى ويتعبد به إلى يوم القيامة . فكان زيد هو
الصحابى الوحيد الذى ورد ذكره باسمه فى كتاب الله فى قوله
تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ۖ ۝٤٦ زَوَّجْنَاكَهَا ۖ ۝٤٧ ﴾ [الاحزاب]

فأى شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلاحظ فى هذه الآية : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝٥ ﴾

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره .
أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم
يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٢] .

[الاحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الاحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قسطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إنن : فذكر نبي القرنين في كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلاته عند الله ، ومُجَازِي بأن يُخلد ذكره ويبقى صيته بين الناس في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَّاءَ آيَاتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨١)﴾

التمكين : أي أننا أعطيناه إمكانيات يستطيع بها أن يُصرف كل أموره التي يريدّها ؛ لأنه مأمون على تصرف الأمور على حسب منهج الله ، كما قال تعالى في آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعْ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ .. (٥٦)﴾ [يوسف] فالتمكين يعني إعطائه إمكانيات لكل غرض يريدّه فيُصرف به الأمور ، لكن لماذا مكّناه ؟ مكّناه لأنه مأمون على تصرف الأمور وفق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانيات .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨١)﴾ [الكهف] أي : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شيء يريدّه إلا ويجعل الله له وسيلة موصلة إليه .

فماذا صنع هو ؟

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٢)﴾

(١) أي : أعطيناه ملكاً عظيماً مكّنا فيه من جميع ما يؤتي الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والمصارات . [تفسير ابن كثير ١٠١/٢] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب .

(١)
﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنْجِذُ
فِيهِمْ حَسَنًا ۝٨٦﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكن بهذا المكان ، بل كان قادمًا إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائي فى مكان واحد ، فلو لاحظت الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجزيرة ، فإذا ذهبت إلى الجزيرة ووجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأى عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات .

(١) قرأها ابن عاصم وعاصم وحمره والكسائى : حامية ، أى : حارة ، واليهاقون قرأوها : حمئة ، أى : كثيرة الحمة وفى الطبقة السوداء : [تفسير القرطبي ١٤١٨/٦] .
قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٢/٢) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قرأتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب ، قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل . وحمئة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحمار وغيره » .

مشروع عام (١٣٧٧ هـ) [الأعلام للزركلي ١ / ١٢٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
فِي عَذَابِهِ نَعَذِّبُهُ عَذَابًا يُكَرِّرُ ۝٨٧﴾

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ۝٨٧ ﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التي سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكنه أن يعظيهم ويذكرهم ويفهمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أظلمها وأعلاما الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝٨٣ ﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا يُكَرِّرُ ۝٨٧ ﴾ [الكهف]

فلن نعذبه على قدر ما فعل ، بل نعذبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شرعت لحفظ توازن المجتمع ، وردع من لا يرتدع بالمرعظة ، وإلا فما فائدة المرعظة في غير المؤمن ؟ لذلك ترى الأمم التي لا تؤمن بالله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشد في الآخرة ﴿ عَذَابًا يُكَرِّرُ ۝٨٧ ﴾ [الكهف] والشيء المكر : هو الذي لا تعرفه ، ولا عهد لنا به أو ألفة ؛ لاننا حينما نعذب في الدنيا نُعَذِّبُ بِفِطْرَتِنَا وَطَاقَتِنَا ، أما عذاب الله في الآخرة فهو شيء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ
الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

قول : ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى .. ﴾ (٨٨) [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٨٨) [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعُه ويحفِّزه ، وإنْ كُفِّفناه كُفِّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمع بلا جزاءات تثيب الحمْدَ وتعاقب المقصِّرَ مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيب ، فإنْ أَمِنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانیه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملق ويذايق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجْدُ ويعمل ويخلص فهو مُتْهِكُ القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوّر مدى الفساد والتسيب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٨٨) [الكهف]

فما أجمل أنْ نرصدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطة أنْ يقوم ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والْحُسْنَى : أفعال التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنَى

فَالْحَسَنُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ (٦٦) [يونس]

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٩)

أى : ذهب إلى مكان آخر .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠)

قوله تعالى : ﴿مَطْلِعَ الشَّمْسِ ۖ﴾ (٩٠) [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠) [الكهف] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينى الحر أو ليقينى البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل فى وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظلون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حر الصيف أو برد الشتاء ، وهم أناس متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يعوضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وجه الإنسان وهو

مكتشف للحر والبرد ، ولتقلبات الجو : لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملايس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديد الحساسية للحر أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أن تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملايس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويرون الملايس ، وكيف أنها زينة وستر للعودة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإن قسنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضرهم ووفر لهم أسباب الرقى .

وبعض المفسرين يرون أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم ير لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم ير لها سترًا يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿١١﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ﴿١٢﴾

ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (٩٣)

السد: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون امرأ معنويا ،
وقد يكون طبيعيا محسوسا كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان
بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبين هنا يقتضى
وجود فجوة بين السدين يأتى منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا .. ﴾ (٩٣) [الكهف] أى : تحتها ﴿ قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (٩٣) [الكهف] أى : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون
القول : لأن الذى يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون
كلاما ، ولا يفهمون ما يُقال لهم ، ومعنى : ﴿ لَا يَكَادُونَ .. ﴾ (٩٣) [الكهف]
لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفى عنهم الفهم ، بل مجرد
القرب من الفهم ، وكأنه لا أمل فى أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُوا
يٰۤأَيُّهَا الْقُرْآنُ .. ﴾ (٩٤) [الكهف] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاسطهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعل من
حركاتهم كلاما يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شك أن هذه العملية
احتاجت منه جهدا وصبرا حتى يفهمهم ويفهم منهم ، وإلا فقد كان
فى وسعته أن يتصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٢٢٤/٦) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » .
وقال ابن كثير (١٠٢/٢) : « هما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منهما يا جوج
وما جوج على بلاد الترك » .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذي لا يالو جهداً في نفع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الآخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا بئذا القرنين إن ياجوج وماجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ (٩٤)

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبّرة تعبير القول ، فلا يدُ أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

وياجوج وماجوج قوم خلف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم ؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له (خُرْجاً) أى : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أن يسدّ لهم هذه الفجوة . فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق - تبارك وتعالى - عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥)

والقول هنا أيضاً قول دلالة وإشارة تفهمهم أنه فى غنى عن

(٩) الخُرْجُ والخُرَاج : ما يخرج منه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الاجر ، فعنده الكثير من الخير الذى اعطاه الله ، إنما هو فى حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكن فى الأرض المالك للشيء يجب أن تكون حسنة لله ، وأن تُعين معونة لا تحوج الذى تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أهله إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كان تعلمه أن يعمل بنفسه بدل أن تعطيه مثلاً مالاً ينفقه فى يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطينى سمكة ، ولكن علّمنى كيف اصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَسٌ ، ولها عُمُرٌ .

ولما كان ذو القرنين مُمكنًا فى الأرض ، وفى يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو فى حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ (٩٥) [الكهف] أى : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصه ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) [الكهف]

ولم يقل : سدا ؛ لأن السد الأصم يعيبه أنه إذا حصلت رجة مثلاً فى ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردمًا أى : يبنى حائطًا من الامام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردمًا من التراب ليكون السد مرنًا لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوسْت » التى تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تزدحم حُفْرَةٌ مثلاً وتُسَوِّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أن يسمع ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ (٩٦)

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوات ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أن يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدربهم ويُعلمهم ما داموا قادرين . ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. ﴾ (٧) [الملاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أى قطع الحديد الكبيرة ومفردتها زُبْرَة ، والقَطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون فى المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسدَّ ما بيته من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الاعداء من خرقه ، وليكون املس ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلمون عليه .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ .. ﴾ (٩٦) [الكهف] الصدف :

(١) زُبْرُ الحديد : قطعه . والصدغان : الجائبان . [القاموس الغريب ١/ ٢٨٢ ، ٢٧٨] .

الجانب . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۖ ۝١٥٧ ﴾ [الأنعام] أى : مال عنها جانباً .

فمعتى : ساوى بين الصدفين . أى : ساوى الحائطين الأمامى والخلفى بالجبلين ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ۖ ۝٩٦ ﴾ [الكهف] أى : فى الحديد الذى أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿ قَالَ أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ ﴾ [الكهف] وهكذا انسبك الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فاصبح لدينا حائط صلب عال أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لِنَفْخِهِ ۖ ۝٩٧ ﴾

(أن يظهره) أى : ما استطاعت ياجوج وماجوج أن يعطوا السد أو يتسلقوه ويتفقدوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَفْخًا ۖ ۝٩٧ ﴾ [الكهف] لأنه صلب .

ثم يقول تعالى على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ۝٩٨ ﴾

لم يفت ذا القرنين - وهو الرجل الصالح - أن يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأن يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ۖ ۝٩٨ ﴾ [الكهف] لأننى أخذت المقومات التى منحنى الله إياها ، واستعملتها فى خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقدرة مخلوقة لله ، المواد والعناصر فى الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لى أن أقول : أنا عملت كذا وكذا ؟